

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

٦٩١هـ - ٧٥١هـ

دراسة وتحقيق

القدس للدراسات والبحوث

الناشر

دار البيان العربي

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

رقم الإيداع
١٥٠٩٤ / ٢٠٠٤

الناشر
دار البيان العربي
١٨ درب الأتراك القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالله نثق

تُراثُ الأمَّــةِ ذَاكِرَتُها وهويتُها

وذلكَ بجعلهِ حيًّا فينا، وليس بأن نحيا نحن فيه، وشتان ما بين الحياتين.

تحقيقًا لأهداف القدس للدراسات والبحوث يقوم نخبة من الباحثين المتخصصين على تنشيط ذاكرة الأمة، بإحياء تراثها، وذلك بتحقيق الكتب التراثية، وعمل الدراسات والموسوعات العلمية.

والبوم نقدم للقارئ بالتنسيق مع،

دار البيان العربي .... وله حق الطباعة والنشر، وكافة الحقوق المادية.

كتاب: الروح

تأليف: شمس الدين ابن قيم الجوزية توفى سنة (٧٥١هـ).

المقاس: ١٢,٥ × ٢١سم (٤٦١ صفحة).

دراسة وتحقيق : القدس للدراسات والبحوث.

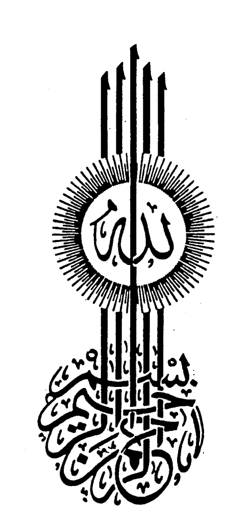
تقديم: حسام نافع.

الباحثون: مجدى عيسى.

تنضيـــد: منى زايد.

القدس للدراسات والبحوث

ص . ب ٥٧٣ المعادى





مقدمة التحقيق

الحمد لله ، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أكرمنا بخير نبى أرسل وأعزنا بخير كتاب أنزل وجعل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وأتم علينا النعمة بإكمال هذا الدين ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾[المائدة:٣].

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

أما بعد؛ فقضية [الروح] التى بوجودها وجود الحياة وبعدمها عدم الحياة والتى لا يعلم كنهها إلا الله تعالى لذا فيجب أن نعلم أن ديننا الإسلام ، إنما يدلنا ويرشدنا إلى كل معرفة وكل علم يترتب عليه عمل أما مالا يترتب عليه عمل فلا حاجة للخوض فيه لذلك لما سأل المشركون رسول الله ﷺ عن الروح سكت رسول الله ولم يجبهم فجاء الرد من قبل ربه ومولاه ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً**﴾[الإسراء:٨٥].

بمعنى لا تتعبوا أنفسكم فى هذه القضية فإنها مما استأثر الله بعلمه وما دام الله استأثر بعلمها فلا مجال للبحث إلا بقدر ما أخبرت به سنة النبى ﷺ وفى حدود ما تلفظ به، دون الوقوف على كنهها أو شكلها أو غير ذلك .

فمما جاءنا فى هذا أن هناك نعيمًا أو عذابًا يتم للروح عند نزعها بواسطة الملائكة، فبالنسبة إلى هذه الروح الطيبة الطاهرة من المؤمنين المتقين فقد

قال عنها الرسول ﷺ : «إنَّ العَبْدَ المُؤْمن إذَا كَانَ فى انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نزَلَ إليه ملائكة مِنَ السماء، بيضُ الوجوهِ، كَأَنَّ وجُوهَهم الشَمسُ، معهم كفنٌ مِنْ أكفَانِ الجنَّةِ وحنوط مِنْ حنوطِ الجنةِ حتى يَجلِسُوا مِنْهُ مَدَ البصرِ، ويجيء ملَكُ الموتِ حتى يَجلِسُوا عِند رَأسِهِ فيقولُ: أيتُهَا الروح الطَيبةُ اخرُجي إلى مَغفرةٍ مِنَ اللهِ ورضوانٍ، قَالَ: فتخرجُ فتَسِيلُ كَمَا تَسِيلِ القطرةُ مِنَ فِي السقاء»... الحديث.

وأما ذو الروح الخبيثة من الكافرين والمنافقين فقال عنه رسول الله ﷺ «وإنَّ العبدَ الكافرَ إذَا كَانَ فى انقطاعٍ مِنَ الدنيا وإقبالٍ مِنَ الآخرةِ ، نَزَلَ إليه ملائكةُ سود الوجوهِ، مَعَهم المسوحُ فَيَجلِسُونَ مِنْهُ مَدَ البصرِ، ثمَّ يَجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلسَ عِندَ رأسِهِ فيقولُ: أيتها النَفسُ الخَبيثةُ أخرجى إلى سَخَطٍ مِن اللَّه وغَضَبِهِ، فتُفَرقَ فى جَسَدِهِ فينتزُعهَا كَمَا يُنتزعُ السَفودُ مِنَ الصوفِ المَبلولِ» الحديث.

ثم إنه بعد انتزاع الروح من الجسد ، فإن الروح البشرية تودع فى مستودع للرحمة أو العذاب فى عليين ، أو فى سجين ، وتبقى هكذا مرهونة محبوسة فى ذلك المستودع إلى يوم يبعثون، ثم يعيد الله تعالى الأجسام بعد فنائها ويأذن للأرواح أن تدخلها .

بيد أن للأرواح ؛ سواء كانت فى عليين مستودع الأخيار أو فى سجين مستودع الأشرار اتصالاً مباشرًا بالقبر الذى ضم رفات صاحبها وأودعت جثته فيه ، وهو اتصال مباشر أشبه بالاتصال اللاسلكى الذى يتم اليوم بين محطتى الإرسال والاستقبال ، وبذلك تتم معرفة الزائر للقبر، والمُسلم على صاحبه، روى ابن عبد البر وصححه عن ابن عباس مرفوعًا: «مامِنْ أحدٍ يمرُ بقبرِ أخيهِ المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيَسلّم عليهِ إلا رَدّ عليهِ رُوحَهُ حتى يَرُدّ عليهِ السَّلامَ»؛ بل إن ذلك الاتصال تجد الروح معه لذة النعيم،

أو ألم الجحيم فى القبر، ولا يستثنى من هذه الحقيقة إلا أرواح الشهداء فإن القرآن والسنة قد صرحا بأن أرواح الشهداء تكون بعد الاستشهاد فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش قال تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[آل عمران:١٦٩،١٧٠].

وقال رسول الله ﷺ : «**أرواحُهم -الشهداء- فى جوف طير خضر، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش، تسرحُ فى الجنةِ حيثُ شاءتْ ، ثُم تأوى إلى تلك القناديل، ما اطلع ربهم إليهم إطلاعه فقَالَ: هل تشتَهُونَ شَيئًا؟ قالوا: أى شيء تشتَهى ، ونَحنُ نَسرحُ مِنَ الجنَّةِ حيثُ شِئْنَا؟ ففَعَل بهم ذلك ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رَأى أنهم لَنْ يُتركوا مِن أن يُسألُوا قالوا: يا رب نُريدُ أن تُرد أرواحُنا فى أجسامنا حتى نقتل فى سَبيلكَ مرة أُخرى فلمَّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا**».

وعلى أية حال .. فإن الذى لا يسع المسلم جهله هو أن هناك روحًا خلقها الله تعالى ، ماهى؟ وكيف خلقها؟ كل ذلك مما لا طائل ولا حاجة لنا أن نعلمه وإنما كل الذى علينا أن نعلمه أن الروح من أمر الله وخلقه تنعم وتعذب وتشقى وتسعد حسب عمل صاحبها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر فعلينا -نحن المسلمين- أن نسعى فى تحصيل المنافع سواء فى الدنيا بالسعى والجد والعمل للارتقاء بأمتنا والعمل على رفعتها واستعادة مجدها وعزتها والآخرة بتحصيل الطاعات وأنواع القربات.

وبهذه التقدمة نكون قد وقفنا على لب الكتاب وما يدور حوله من قضية الروح وحدود النظر فيها.

فهذا كتاب [**الروح**] للحافظ الفقيه ابن قيم الجوزية شيخ الإسلام وقدوة العلماء وصاحب الفنون الحسان، إمام المجتهدين ووارث الرسل والأنبياء .

تناول فيه ابن القيم الروح التى حار العلماء فى تفسير المراد بها فجاء الكتاب متضمنًا الحديث عن أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من خلال آى القرآن الكريم، ثم أحاديث رسول الله ﷺ ثم أقوال العلماء .

فقد تناول المصنِّف بدايةً مسألة معرفة الأموات بزيارة الأحياء لهم حيث وردت الآثار الكثيرة الدالة على أن الميت يستأنس بالمشيعين وقراءة القرآن عند القبور عقيب الدفن ثم التلقين.

وذكر كذلك وصية ثابت بن قيس وكيف أنفذها الخليفة أبو بكر الصديق.

وقد تضمن الكتاب -ضمن ما تضمن- عدة مسائل تناول فيها الحديث عن تلاقي الأرواح وتعارفها، وذكر الدجال، ويأجوج ومأجوج، وتحدث عن لقاء أرواح الأحياء بالأموات، والقصص فى ذلك كثير وكذلك الرؤى.

وضمن ما تناوله الكتاب تساؤل هل تموت الروح مع البدن أم أن الموت للبدن فحسب ، ثم ذكر بعد ذلك الحديث عن الصعق يوم القيامة ، وكيفية الإفاقة ، وذكر حالة نزع الروح من المؤمن والكافر، ومسألة عذاب القبر لمن يحدث بالكذب أو يصلى بغير وضوء أو غيرهما أو من هو مستحق له ولو لم يقبر مثل مَنْ أكلته السباع .

ثم بيَّن الحكمة من ستر عذاب القبر موضحًا ما جاء فى القرآن وشدة الحاجة إليه والأسباب التى يُعذب بها أصحاب القبور، وكذا الأسباب المنجية من هذا العذاب مثل الشهادة وفضيلة سورة الملك، والموت يوم الجمعة وليلة الجمعة.

ثم حدثنا الكتاب عن سؤال القبر وهل هو خاص بأمة محمد أم لها ولغيرها، وهل الأطفال يمتحنون فى قبورهم وهل العذاب داخل القبر دائم أم منقطع، وأين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة وبيان أقوال العلماء .

ثم بيَّن مدى انتفاع روح الميت بسعيه فى الدنيا حال حياته وسعى غيره بعد وفاته كثواب الصدقة والصوم والحج وغيرها، مع ذكر آراء المانعين وصول ثواب العبادات للأموات.

ومما تناوله المصنف كذلك مسألة قِدم الروح وحداثتها وبيان اختلاف العلماء حول هذه المسألة وكذا اختلافهم فى تفسير آية ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ﴾ وهل الروح خلقت أولاً ثم تلتها الأبدان؟ وما الأدلة على حقيقة الروح سواء من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو أدلة العقل وذكر دلائله.

أيضًا مما تناوله المصنِّف حرمة سب الصحابة وما يمكن أن يقع على الفاعلين من العقاب فى الدنيا ثم عذابهم يوم القيامة .

وفند ابن القيم بيان أدلة المنازعين فى جسمية الروح والنفس والجواب عن تلك الشُبه التى أوردها هؤلاء .

وختم المصنِّف مصنَّفه بإيراد عدة فروق بين الروح الطيبة والروح الخبيثة وذلك ليربط بين الروح بقسميها وبين مجموعة من مكارم الأخلاق أو مفاسدها كى يرشد القارئ إلى بيان ما تقوم به كلتاهما - فعقد المقارنات بين كل من التواضع والمهانة ، والمهابة والكبر، والصبر والقسوة، والتحدث بنعم الله والفخر، ورقة القلب والجزع، والانتصار والانتقام، والتوكل والعجز، والنصيحة والتأنيب.

ثم بعد ذلك تحدث عن الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

وأخيرًا فهذا الكتاب من أجلِّ المصنَّفات التى وضعت فى هذا الفرع من فروع العلم وأرفعها منزلة ألا وهو علم العقيدة.

لكن المصنِّف أجاد فى استخدام ما توفر له من أدوات فخرج هذا المصنَّف على هذا القدر الجليل لتنتفع به الأمة.

وصدق القائل : من عمَّر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة.. لم تخطئ له فِراسة.

تحقيق الكتاب:

هذا الكتاب مدرج ضمن جدول أعمال [**القدس للدراسات والبحوث**]

والكتاب أيضا ضمن سلسلة تحقيق مؤلفات ابن القيم التى أخذنا على عاتقنا إعادة تحقيقها بأسلوب يتسم بالنهج العلمى ، وراعينا بعض الاعتبارات منها:

إخراج الكتاب بصورة يمكن من خلالها تناول النص بشكل سهل ميسر.

عملنا فى هذا الكتاب:

- المقابلة بعدة نسخ مطبوعة.
- تحاشى الأخطاء اللغوية التى وردت فى النسخ السابقة قدر الإمكان .
- ضبط ألفاظ الأحاديث النبوية مع عزوها.
- ضبط الأشعار الواردة فى الكتاب ضبطًا تامًا.
- إفراد الكتاب بمجموعة من الفهارس قل أن يُوجد مثيل لها فى كتاب آخر فقد تضمن المصنف -فهارس- للآيات والأطراف ، والأعلام والأشعار ... إلخ.
- وضع مقدمة تضمنت عرضًا كاملاً لموضوعات المصنَّف بحيث يسهل على القارئ الإلمام بمحتواه دون عناء.
- تنسيق المصنَّف بصورة جديدة تمكن القارئ من فهم مسائله المتعددة بسهولة ويسر. إضافة إلى ترجمة لمصنِّفه .
- وضع العناوين للأبواب والفصول المختلفة.

وختامًا: نسأل الله أن نكون قد وفقنا فى هذا العمل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القدس للدراسات والبحوث

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه[1]: محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى، ثم الدمشقى الحنبلى.

كنيته: أبو عبد الله (شمس الدين).

شهرته: اشتهر بابن قيِّم الجوزية.

سبب التسمية: سميَّ بهذا الاسم نسبة إلى المدرسة التى كان أبوه قيِّمًا لها قائمًا عليها، والجوزية : مدرسة بدمشق.

مولده ونشأته: ولد ابن القيم -رحمه الله- فى بيت علم وصلاح فى السابع من صفر لسنة إحدى وتسعين وستمائة هجرية (٧ صفر ٦٩١هـ) فى قرية زرع من قرى حوران تبعد عن دمشق خمسة وخمسين ميلاً جنوب شرقيها.

شيوخه الذين أخذ عنهم: أخذ علم العربية عن ابن الفتح البعلى، وسمع الحديث من الشهاب النابلسى ، وابن عبد الدائم، وعيسى المطعم، واسماعيل ابن مكتوم.

تلقى علم الأصول والفقه على الشيخ صفى الدين الهندى، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ إسماعيل بن محمد الحرانى .

علاقته بابن تيمية [ملازمته له]:

وقد لازم ابن القيم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمةً تامة منذ عودته من مصر سنة (٧١٢هـ) إلى وفاته (٧٢٨هـ) وهو إذ ذاك فى ريعان شبابه، وذروة قوته، واكتمال مَدْرَكه، فنهل من فيض علمه الواسع، واستمع إلى آرائه الناضجة السديدة، وغلب عليه حبُّه ، حتى كان يأخذ بأكثر اجتهاداته ، وينتصر لها، ويتوسع فى التدليل على صحتها ، وضعف ما يخالفها، وهو الذى هذَّب كتبه، ونشر علمه.

أهم ما استفاده منه:

دعوتُه إلى الأخذ بكتاب الله تعالى الكريم، وسنة رسوله الصحيحة، والاعتصام بهما، وفهمهما على النحو الذى فهمه السلف الصالح، وطرح ما يخالفهما، وتحديد

---

(١) انظر: معجم المؤلفين ص(١٦٤)، الأعلام ص (٥٦).

ما دَرَسَ من معالم الدين الصحيح، وتنقيته مما ابتدعه المسلمون من مناهج رائفة من تلقاء أنفسهم خلال القرون السالفة، قرون الانحطاط والجمود والتقليد الأعمى، وتحذير المسلمين مما تسرّب إلى الفكر الإسلامى من خرافات التصوف ، ومنطق يونان ، وزهد الهند.

تأثره به:

يستطيع القارئ أن يتبيَّن مدى تأثير شيخه عليه من مؤلفاته الكثيرة المتنوعة التى تُلح بقوةٍ وإصرارٍ على إعطاء كتاب الله تعالى حقه من العناية به، والعكوف على دراسته، وتدبر آياته ومعانيه، وبيان قيمة السنة الصحيحة، والتنويه بها، والكشف عما تنطوى عليه، من بيان للقرآن، وتفصيل لمجمله، وتوضيح لمعانيه، وتوكيد لحقائقه، وتبصير بمعالم الطريق السوىّ الذى يأخذ بأيديهم إلى العلم الصحيح الخالص من شوائب الجمود والتقليد .

وهو يعد بحق فى زمرة أولئك المفكرين المصلحين الذين استنارت بأفكارهم المبثوثة فى تفاريق مؤلفاتهم عقول معاصريهم ومن أتى بعدهم إلى يومنا هذا، وتنورت قلوبهم ، وانجلى ما لصق بمرآتها من صدأ الشَّكِّ والجمود، وانحَّل ما انعقد فى أذهانهم من شبه الزيغ والارتياب.

من آرائه فى العقيدة والفقه:

كان رحمه الله يهدف من وراء ما أَلَّف من تآليف إلى بيان خصائص أهل السنة والجماعة، وبيان الصراط المستقيم، والطريق الوسط بين المغالى فيه، والجافى عنه، فيما يتعلق بصفات الله تبارك وتعالى، وحقوق الأنبياء عليهم السلام، ومعرفة الحلال والحرام، والخلق والأمر ، والوعد والوعيد، والاقتصاد فى السنة واتباعها، كما جاءت مع بيان ما حادت عنه الملل والفرق الحائدة عن الصراط المستقيم، مترسمًا فى كل ذلك خطا شيخه ابن تيمية.

مذهبه فى صفات الله:

الإيمان بما وصف الله سبحانه به نفسه، ووصفه به رسوله واجراؤها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فإنّ الله تعالى أعلم بنفسه من كل أحد ورسوله أعلم الخلق.

رايه فى غلاة المتصوفة:

ينعى عليهم أمورًا تنافى الشرع كالقول بوحدة الوجود، وسقوط التكليف والتفرقة بين الشريعة والحقيقة، والتعبد بما لم يأذن به الله، وتحكيم الذوق، وطرح العلم، والتقليل من أهميته، والتواكل والعزلة، والتنفير من الزواج.

رايه فى الفتوى: [الفتيا]:

يرى أنها تتغير وتختلف باختلاف الأزمنة وتغير الأمكنة والأحوال والنّيات والعوائد، ذلك أن الشريعة مبناها رفع الحرج ودفع المشقة عن المكلفين ورعاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد.

تلامـــذته[1]:

وقد تلقى عن المؤلف -رحمه الله- كثيرٌ من العلماء المشهود لهم بالفضل فى حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به أيما انتفاع.

ومنهم:

١- الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلى، توفى سنة (٧٩٥هـ).
٢- الإمام الحافظ ابن قدامة المقدسى، توفى سنة (٧٤٤هـ).
٣- الإمام الحافظ العلامة المفسر ابن كثير، توفى سنة (٧٧٤هـ).
٤- ومنهم: ولده شرف الدين عبد الله.
٥- ومنهم: شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسى، توفى سنة (٧٩٧هـ).

تصانيفه وآثاره[2] :

صنف -رحمه الله- تصانيف كثيرة فى مختلف العلوم، منها:

فى الفقه وأصوله:

- إعلام الموقعين عن رب العالمين.
- الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.
- تحفة المورود فى أحكام المولود.

---

(١) مقدمة زاد المعاد للأرنؤط.
(٢) انظر: الأعلام للزركلى ص(٥٦).

فى الحديث والسيرة:

- تهذيب سنن أبى داود.
- زاد المعاد.

فى العقيدة:

اجتماع الجيوش، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، وشفاء العليل.

فى الرقائق والآداب:

عدة الصابرين، الداء والدواء، الوابل الصيِّب.

فى اللغة:

بدائع الفوائد، والتبيان فى أقسام القرآن.

وهذا قليل من آثاره وتصانيفه التى نفع الله بها البلاد والعباد.

ثناء العلماء والحفاظ عليه:

قال العلامَّة ابن رجب الحنبلى رحمه الله[١]:

كان عارفًا بالتفسير لايجارى فيه وبالحديث ومعانيه وفقهه وبالفقه والاستنباط والأصول والعربية وله فيها يدٌ طُولى؛ وكان ذا عبادةٍ وتهجد.

وقال الحافظ الذهبى[٢]: عنىَ بالحديث ومتونه وبعض رجاله، وكان يشتغل بالفقه، ويجيد تقريره، وبالنحو ويدريه، وفى الأصلين، وتصدر للاشتغال، ونشر العلم.

وقال الحافظ ابن كثير[٣]: برع فى علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، فصار فريداً فى بابه فى فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهارًا، وكثرة الابتهال، ولا أعرف فى هذا العالم فى زماننا أكثر عبادة منه.

وقال العلامَّة ابن ناصر الدمشقى: كان ذا فنون من العلوم، وخاصة الأصول، والتفسير من المنطوق والمفهوم.

وقال القاضى برهان الدين الزرعى -رحمه الله-: ما تحت أديم السماء أوسع منه علمًا.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (ص٤٤٨).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/٢٥٣).
(٣) نقلاً عن مقدمة زاد المعاد للأرنؤط (ص٢٤).

قال الحافظ ابن حجر: كان جرئ الجنان ، واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف.

نبذة عن عصره[1]:

عاش ابن القيم فى عصر دولة المماليك البحرية [٦٧٨-٧٨٤هـ] / (١٢٧٩-١٣٨٢).

أولاً: الأوضاع السياسية:

شهدت سلطنة المماليك فى هذه الحقبة فترات عدم استقرار نتيجة عديد من الأسباب يأتى التهديد العسكرى الخارجى على رأسها؛ فلقد وقعت دمشق تحت وطأة حكم المغول، حيث كان المغول يمثلون خطرًا حربيًا كبيرًا يهدد استقرار دولة المماليك، ولما وقعت دمشق تحت وطأتهم ضربوا الناس وعصروهم وأذاقوهم الخزى والذل، وكثُر مع ذلك القتل والنهب فى ضواحى دمشق، حتى يقال: إنه قُتِل من الجند والفلاحين والعامة نحو المائة ألف إنسان.

وهكذا كان من نتيجة وقوع دمشق تحت وطأة حكم العدو المغولى أن تمادى التتار فى جمع المال عن طريق مصادرة أموال الناس وما لديهم من نفائس مما أدى إلى غلاء الأسعار إلى درجة كبيرة بحيث تعذر على الناس الحصول على أقواتهم، زيادة على ذلك كان وجود التتار فى دمشق سببًا رئيسيًا فى هجرة الناس لمنازلهم ، واغلاق أبواب المدينة وأسواقها.

وترتبط حالة عدم الاستقرار السياسى بهلع الشعب وذعره خشية التعرض لغزو خارجى، والعيش تحت وطأة الحكم الأجنبى، والمعاناة من مختلف مظاهر التعنت والاضطهاد، مما أدى بالتالى إلى تكتلهم الموحد مع قادة الدولة لمواجهة أى هجوم فجائى.

وقد ارتبط بهذا كله الارتفاع التدريجى فى أسعار المواد الغذائية ، ولكن ما أن تنتهى حالة التهيؤ الحربى هذه، ويعود الهدوء إلى البلاد وتطمئن النفوس

---

(١) انظر: أحوال العامة والمماليك (ص١٢٤).

حتى تأخذ الأسعار فى الانخفاض بشكل طبيعى وتلقائى، فيغلب على المجتمع طابع الاستقرار.

كان المماليك يمارسون ضد الشعب الكثير من أعمال العنف والقسوة عن طريق بعث رسائل مجهولة الإمضاء إلى السلطان يثيرون بها شكوكه وهواجسه ضد الأمراء، فيعمل على التخلص منهم كما عانى الشعب الكثير من مظاهر الظلم والقسوة على يد كبار الإداريين فى الدولة الذين كانوا يعملون على مصادرة ممتلكاتهم وتسخيرهم فى أعمال البناء والتعمير، وحرمانهم من وسائل اللهو البرىء فى الأعياد والمناسبات الدينية.

وبهذا نرى أن ابن القيم عاش حقبة كانت مليئة بالحروب وعدم الاستقرار السياسى، ومع ذلك كله فقد شرح الله صدره، ويسَّر له أمره وأعانه على طلب العلم مما يدل على مثابرته وعلو همته.

الأحوال الاقتصادية:

تعتبر الحالة الاقتصادية لأى بلد أو مجتمع إنسانى من أكثر المظاهر تأثرًا بالوضع السياسى السائد فى ذلك المجتمع؛ ذلك أن حدوث أزمة سياسية فى سلطنة المماليك كان لابد أن يسبب حالة من التشنج الاقتصادى، فتتأثر عجلة البيع والشراء وتتجمد جميع الأنشطة التجارية فى الأسواق، أدى ذلك كله إلى ارتفاع الأسعار، وبالتالى المعاناة من غلاء الأقوات والأغذية فى الأسواق فيقاسون الجوع، وعدم القدرة على دفع قيمة ما يحتاجونه من الطعام اللازم مثل القمح والفول والذرة.

انتهز بعض القصابين فى كثير من الأحيان أزمة ارتفاع الأسعار، فلجئوا إلى بيع لحوم الكلاب على أنها لحوم المواشى، وهنا يظهر دور المحتسب، وتشدده مع هؤلاء الغشاشين لمنعهم من هذا البيع الحرام لهدف تحقيق الفائدة المادية الكبيرة.

اتباع بعض سلاطين المماليك عادة إلزام كبار الأمراء والأغنياء من التجار وأصحاب العقار التكفل بإطعام عدد من الفقراء الجياع.

ومن ثم يتوجب على هؤلاء الميسورين توفير الطعام اللازم لهؤلاء الفقراء المسؤلين عنهم حتى تنفرج الأزمة وتنخفض الأسعار، ويستطيعوا القيام بتحصيل أرزاقهم بيسر وسهولة فى حدود الأسعار المنخفضة والبضائع الرخيصة.

ولا شك أن هذه الصورة تعبيرًا صريحًا بمبدأ الشريعة الحنيفة فى حق الفقراء بمال الأغنياء، فيصبح فرضًا واجبًا يلتزم الأمراء بالقيام به فى أوقات المجاعةوالغلاء والوباء.

ارتباط حالة الوضع الاقتصادى فى الأقاليم المملوكية ببعضها كأعضاء فى جسم واحد، فحينما يحدث غلاء فى إقليم الشام يمتد تأثير ذلك إلى مصر فترتفع الأسعار، كذلك عندما تنخفض الأسعار فى الأقاليم الأخرى حيث أن كلا الإقليمين جزء من دولة واحدة.

ظاهرة قيام بعض الصيارفة بتزييف النقد وطرحه فى الأسواق على أنه عملة حكومية مختومة، ويستمر هذا الوضع فترة من الوقت حتى ينكشف الأمر وتحاول الدولة جاهدة تطهير السوق من العملة المزيفة.

تلاعب الجهاز الحاكم بقيمة الدينار المملوكى من الدراهم حيث تعرضت الدولة أكثر من مرة لظاهرة التضخم المالى نتيجة لعدة أسباب:

أولاً: الإسراف غير المحدود فى الصرف على مختلف ألوان البزخ والمتعة والرفاهية.

ثانيًا: تناقص قيمة رصيد الدولة من الذهب بسبب زيادة نسبة الوارد على الصادر إلى خزانة الدولة مما يؤدى إلى اختلال ميزان الحالة الاقتصادية فى البلاد.

ثالثًا: التضخم المالى الشنيع نتيجة تناقص القيمة الشرائية للدينار المملوكى.

رابعًا: التعديل فى القيمة النقدية للدينار، أو بالأحرى القيمة الشرائية للدرهم مما يسبب حالة من التوتر المتوالى فى الناحية الاقتصادية، وعدم الاستقرار فى حركة النشاط التجارى.

الحياة الاجتماعية:

اتسمت الحياة الاجتماعية فى العصر الملوكى بالبساطة الواضحة، حيث كانت وسائل الترفيه محدودة، وأساليب المتعة مقيدة ومراقبة بشدة

وصرامة، إلى جانب صعوبة ارتيادهم مراكز التعليم والثقافة، مما أدى إلى انتشار الجهل والخزعبلات بين فئاتهم المختلفة وعلى ذلك فإنه يمكننا من تتبع هذه الظواهر الاجتماعية أن نبين بعض الملاحظات لخصائص هذه الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك:

١- وصول بعض المسئولين من ذوى الضمائر الميتة إلى المناصب الإدارية العليا مما يعنى ضياع الكثير من الأهداف المهمة نتيجة التسابق لتحقيق الأغراض الخاصة.

٢- حرص فئة من أمراء المماليك الكبار على رفع الظلم عن العامة بمحاولة مشورة السلطان أن يتخذ إجراءات حازمة على كل من تسول له نفسه استغلال ضعف الشعب.

٣- وجود طائفة من العامة المحتاجين ((مرتبين فى الصدقات)) حيث دأبوا على الحضور شهريًا إلى القلعة للحصول على تلك الإعانة الشهرية لأجل القوت اليومى.

٤- كانت المساجد هى الأماكن الآمنة التى يستطيع فيها الضعفاء والمظلومين التصريح عما فى نفوسهم مما يعانونه من الظلم والاضطهاد بحرية تامة دون خوف الوقوع فى يد الأقوياء المتسلطين، إذ توفر لهم فى مراكز ودور العبادة تلك الحرية الفكرية والاطمئنان النفسى والأمان المعنوى.

وفاته[١]:

توفى -رحمة الله عليه- وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس فى الثالث والعشرين من شهر رجب سنة (٧٥١هـ) وصُلى عليه من الغد بجامع دمشق الكبير، ثم بجامع الجراح بقرب المقبرة التى دفن فيها بالباب الصغير، وقبره معروف حتى الآن، فهو يسار الداخل إلى المقبرة من الباب الجديد الذى وسع منذ أكثر من عشرين سنة، وقد أزيل القبر من موضعه، وأبعد أكثر من مترين إلى الشرق، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه بحبوحة جناته.

(١) انظر: هدية العارفين(ص١٥٧)، معجم المؤلفين(ص١٦٥)، ذيل الطبقات (ص٤٥٠).

الــروح

للإمام الحافظ

شمس الدين ابن قيم الجوزية

توفي سنة (٧٥١هـ)

دراسة وتحقيق

القدس للدراسات والبحوث



الباب الأول
مسائل الروح



المسألة الأولى
فى معرفة الأموات بزيارة الأحياء وسلامهم

قال ابن عبد البر[1]: ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُرُّ على قَبْرِ أَخِيهِ كَانَ يَعْرِفُهُ فى الدُّنيا فَيُسَلِّمُ عليهِ إلاَّ رَدَّ الله عليه رُوحَهُ حتَّى يَرُدَّ عليهِ السَّلاَمَ»** .

وفى الصحيحين[2]:

عنه صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه متعددة: **أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب؛ ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: «يَافُلانُ ابْنُ فُلان وَيَا فُلانُ ابنُ فُلان هَلْ وَجَدتُم مَا وعَدَكُمْ رَبُّكُم حَقًّا، فَإِنِّى وَجَدتُ مَا وعَدَنِى رَبِّى حَقًّا»**.

فقال له عمر: يارسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جيفوا

فقال: «وَالَّذِى بَعَثَنِى بِالحَق مَا أَنتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَيَسْتَطِيعُونَ جَوَابًا» .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم: **«أنَّ المَيِّتَ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِ المُشَيِّعِينَ إِذَا انْصَرَفُوا عَنْهُ»**[3].

---

(١) ابن عبد البر، هو: يوسف بن عبد الله بن محمد، النمرى، أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، ومن الأدباء المؤرخين، باحث عظيم، له الكثير من الرحلات الطويلة إلى غربى الأندلس وشرقها، ولى قضاء لشبونة وشنترين، له العديد من المصنفات، منها: التمهيد، الاستيعاب، توفى سنة(٤٦٣هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣٤٨/٢) الأعلام(٢٤٠/٨).

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: المغازى، باب: قتل أبى جهل (٣٩٧٦) ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعميها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) الحديث: أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٨٨/٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه فى سياق أطول من هذا.

وقد شرع النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأمته، إذا سلّموا على أهـل القبـور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»[1]. وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة المعدوم والجماد.

والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب القبور باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء :

حدثنا محمد بن عون: ثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان زيد بن أسلم، عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخيِهِ ويَجْلِسُ عِنْدَهُ إلا اسْتَأْنَسَ بهِ ورَدَّ عليهِ حتَّى يَقُومَ**»[2].

حدثنا محمد بن قدامة الجوهرى: ثنا معن بن عيسى القزاز، أخبرنا هشام بن سعد، ثنا زيد بن أسلم، عن هريرة رضى الله تعالى عنه قال: «**إذا مرَّ الرَّجُلُ بقبرِ أخِيهِ يَعْرِفُهُ فَسلَّمَ عليهِ السلامَ وعَرَفَهُ، وإذا مَرَّ بقبرٍ لا يَعْرِفُهُ فسلَّمَ عليه ردَّ عليهِ السَّلاَم**».

حدثنا محمد بن الحسين: حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر، حدثنى مسمع، حدثنى رجل من آل عاصم الجحدرى.

قال: رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين.

فقلت: أليس قد مت ؟

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء (٢٤٩).

(٢) الحديث: عزاه الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء (٤/٤٤٧) إلى ابن أبى الدنيا فى القبور، وقال: وفيه عبد الله بن سمعان، ولم أقف على حاله. ثم قال العراقى: ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه، وصححه عبد الحق الإشبيلى.

قال: بلى.

قلت: فأين أنت ؟

قال: أنا والله فى روضة من رياض الجنة: أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى، فنتلقى أخباركم ؟

قال: **قلت**: أجسادكم أم أرواحكم ؟

قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح.

قال قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟

قال: نعم نعلم بها عشية الجمعة، ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس.

قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟

قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته .

وحدثنا محمد بن الحسين: حدثنى بكر بن محمد، ثنا حسن القصاب.

قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع [1] فى كل غداة سبت حتى نأتى الجبان، فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعوا لهم ثم ننصرف.

فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين.

قال: بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويومًا بعدها.

حدثنى محمد، ثنا عبد العزيز بن إبان قال: ثنا سفيان الثورى.

قال: بلغنى عن الضحاك.

أنه قال: من زار قبرًا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته.

فقيل له: وكيف ذلك ؟

قال: لمكان يوم الجمعة .

---

(١) محمد بن واسع؛ هو: ابن جابر الأزدى، أبو بكر، أحد الفقهاء الزهاد، اتصف بالورع، من ثقات أهل الحديث، عرض عليه قضاء البصرة ولكنه أبى، وانقطع للعبادة. توفى (١٢٣هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٩/٤٩٩)، تاريخ الإسلام للذهبى(٥/١٥٩).

حدثنا خالد بن خداش ثنا جعفر بن سلمان عن أبى التياح قال: كان مطرف[1] يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلج.

قال: وسمعت أبا التياح يقول: بلغنا أنه كان ينور لـه فى سوطه فأقبل ليلة حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأىٰ أهل القبور كل صاحب قبر جالسًا على قبره.

فقالوا: هذا مطرف يأتى الجمعة.

قلت: وتعلمون عندكم يوم الجمعة ؟

قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير.

قلت: وما يقولون ؟

قالوا: يقولون سلام .

حدثنى محمد بن الحسين، حدثنى يحيى بن أبى بكير، حدثنى الفضل بن موفق بن خال سفيان ابن عيينة.

قال: لما مات أبى جزعت عليه جزعًا شديدًا، فكنت آتى قبره كل يوم ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله ثم إنى أتيته يومًا، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحًا أكفانه عليه سحنة الموتى.

قال: فكأنى بكيت لما رأيته.

قال: يابنى ما أبطأك عنى ؟

قلت: وإنك لتعلم بمجيئى ؟

قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتينى فآنس بك؛ ويسر من حولى بدعائك.

قال: فكنت آتيه بعد ذلك كثيرًا .

---

(١) مطرف؛ هو: ابن عبد الله بن الشخير الحرشى، العامرى، أبو عبد الله، من كبار الزهاد التابعين، له كلمات مأثورة، ثقة فيما رواه من الحديث، توفى سنة (٨٧ هـ) انظر: حلية الأولياء (١٩٨/٢) وفيات الأعيان (٩٧/٢).

حدثني محمد، حدثني يحيي بن بسطام، حدثني عثمان بن سودة الطفاوي

قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها راهبة- لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء.

فقالت: ياذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى فى قبرى.

قال: فماتت، فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم فى منامى

فقلت لها: يا أمه كيف أنت ؟

قالت: أى بنى إن للموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفترش فيه الريحان ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور .

فقلت لها: ألكِ حاجة ؟

قالت: نعم.

قلت: وماهى ؟

قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك.

يقال لى: ياراهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر من حولى الأموات .

حدثنى محمد بن عبد العزيز بن سليمان: ثنا بشر بن منصور.

قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف الى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز. فإذا أمسى وقف على باب المقابر.

فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن مسيئكم وقبل حسناتكم، لايزيد على هؤلاء الكلمات.

قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو.

قال: فبينا أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى.

فقلت: ما أنتم وما حاجتكم ؟

قالوا: نحن أهل المقابر.

قلت: ما حاجتكم ؟

قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك.

فقلت: وما هى ؟

قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها.

قال: قلت: فإنى أعود لذلك.

قال: فما تركتها بعد .

حدثنى محمد، حدثنى أحمد بن سهل: حدثنى رشدين بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبى حبيب: أن سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول، فقال له بعض أصحابه: لو نزلت إلى هذه المقابر فبلت فى بعض حفرها، فبكى.

ثم قال: سبحان الله والله إنى لأستحيي من الأموات كما أستحيى من الأحياء، ولولا الميت يشعر بذلك لما استحيى منه .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه.

قال عبد الله بن المبارك[1]:

حدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبى أيوب.

قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا، وان رأوا سوءًا.

---

(١) عبد الله بن المبارك؛ هو: ابن واضح الحنظلى، أبو عبد الرحمن، شيخ الإسلام، السخى الجواد، أحد المجاهدين، يشتغل بالتجارة. أفنى عمره فى الأسفار، صاحب التصانيف، جمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس. من تصانيفه: كتاب فى الجهاد وهو أول من صنف فيه توفى سنه(١٨١هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (١/٢٥٣) والحلية (٨/١٦٢).

قالوا: اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى[1].

قال: حدثنى محمد أخى قال دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين.

فقال: عظنى.

قال: بم أعظك أصلحك الله بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عملك.

فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته.

قال ابن أبى الدنيا:

حدثنى محمد بن الحسين، حدثنى خالد بن عمرو الأموى، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى.

قال: كانت لى شرة سمجة [2] فمات أبى فأنبت وندمت على ما فرطت.

قال: ثم زللت أيما زلة فرأيت أبى فى المنام .

فقال: أى بنى ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديدًا فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات.

قال: فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر وكان جارًا لى بالكوفة: أسألك إنابة لارجعة فيها ولاحور. يامصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين .

---

(١) أحمد بن عبد الله بن ميمون بن أبى الحوارى، أبو الحسن، الزاهد العابد، طلب العلم ثلاثين سنة، قال عنه ابن معين: أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث، توفى سنة (٢٤٦هـ). انظر: حلية الأولياء (١٠/٥)، تهذيب التهذيب(١/٣١).

(٢) شرة: النشاط والرغبة، انظر القاموس المحيط، مادة[شر]. سمجة: من سمج أى قبح. انظر: القاموس المحيط، مادة [سمج]. والمراد شئ قبيح، أى رذيلة.

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة .

وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة.

يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله. ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائراً ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائرًا فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم. وكذلك السلام عليهم أيضًا، فإن السلام على من لايشعر ولايعلم بالمسلم محال، وقد علم النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «**سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية**»[1].

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، وإذا صلى الرجل قريبًا منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك.

قال يزيد بن هارون[2]: أخبرنا سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف، فانتهى إلى قبر.

قال: فصليت ركعتين ثم اتكأت عليه فوالله إن قلبى ليقظان، إذ سمعت صوتا من القبر: إليك عنى لاتؤذنى فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون، ونحن قوم نعلم ولا نعمل، ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا. فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته .

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٤) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

(٢) يزيد بن هارون بن زاذان السلمى، أبو خالد الواسطى أحد جهابذة الحفاظ ونقادهم، يضيق مثل هذا الموضع عن ذكر مآثره ومناقبه رحمه الله تعالى. توفى سنة (٢٠٦هـ). انظر تذكرة الحفاظ(١/٢٩١). تاريخ بغداد (٤/٣٣٧).

وقال ابن أبى الدنيا:

حدثنى الحسين بن على العجلى، ثنا محمد بن الصلت، ثنا إسماعيل ابن عياش عن ثابت بن سليم، ثنا أبو قلابة.

قال: أقبلت من الشام إلى البصرة، فنزلت منزلا فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر: فنمت ثم انتبهت، فإذا صاحب القبر يشتكينى.

يقول: قد آذينى منذ الليلة.

ثم قال: إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعلم ولا نقدر على العمل.

ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها.

ثم قال: جزى الله أهل الدنيا خيرًا أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال .

وحدثنى الحسين العجلى، ثنا عبد الله بن نمير، ثنا مالك بن مغول عن منصور عن زيد بن وهب.

قال: خرجت إلى الجبانة فجلست فيها فإذا رجل قد جاء إلى القبر فسواه ثم تحول إلى فجلس.

قال: فقلت له ماهذا القبر؟

قال: أخ لى.

فقلت: أخ لك؟

فقال: أخ لى فى الله رأيته فيما يرى النائم فقلت فلان عشت الحمد لله رب العالمين.

قال: قد قلتها لأن أقدر على أن أقولها أحب إلى من الدنيا وما فيها .

ثم قال: ألم تر حيث كانوا يدفنونى فإن فلانا قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها.

حدثنى أبو بكر التيمى، ثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث بن سعد، حدثنى حميد الطويل عن مطرف بن عبد الله الحرشى.

قال: خرجنا إلى الربيع فى زمانه فقلنا ندخل يوم الجمعة لشهودها وطريقنا على المقبرة.

قال: فدخلنا فرأيت جنازة فى المقبرة.

فقلت: لو اغتنمت شهود هذه الجنازة فشهدتها.

قال: فاعتزلت ناحية قريبا من قبر فركعت ركعتين خففتهما لم أرض إتقانهما، ونعست فرأيت صاحب القبر يكلمنى.

وقال: ركعت ركعتين لم ترض إتقانهما.

قلت: قد كان ذلك.

قال: تعملون ولا تعلمون، ولا نستطيع أن نعمل لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلىَّ من الدنيا بحذافيرها.

فقلت: من هاهنا ؟

فقال: كلهم مسلم قد أصاب خيرًا.

فقلت: من هاهنا أفضل ؟ فأشار إلى قبر.

فقلت فى نفسى: اللهم ربنا أخرجه إلىَّ فأكلمه.

قال: فخرج من قبره فتى شاب.

فقلت: أنت أفضل من هاهنا ؟

قال: قد قالوا ذلك.

قلت: فبأى شيء نلت ذلك ؟ فو الله ما أرى لك ذلك السن، فأقول نلت ذلك بطول الحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله والعمل.

قال: قد ابتليت بالمصائب فرزقت الصبر عليها فبذلك فضلتهم .

وهذه المرأى وإن لم تصح بمجرده الإثبات مثل ذلك فهى على كثرتها وإنها لايحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى.

وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«أرَى رُؤْيَاكُم قَدْ تَواطَأتْ على أنها فى العشْرِ الأواخر»**[1] يعنى ليلة القدر فإذا تَواطَأتْ رؤيا المؤمنين على شيء كان كتواطُؤ رأْيهم على استحسانِهِ واستقباحِهِ، **«وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند اللهِ حسنٌ وما رأُوه قبيحًا فهو عندَ اللهِ قبيحٌ»**[2] على أنا لم نثبت هذا بمجرد الرؤيا؛ بل بما ذكرناه من الحجج وغيرها .

وقد ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه .

فروى مسلم فى صحيحه[3]:

من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهرى.

قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار .

فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه، أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا ؟ فأقبل بوجهه.

فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإنى كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منى، ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال، لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقلت: ابسط يدك فلأبايعك فبسط يمينه.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصلى (١١٥٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) الحديث: عزاه العجلونى فى كشف الخفا (٢/٢٤٥) لأحمد فى السنة من قول ابن مسعود موقوفًا عليه. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الايمان: باب: كون الإسلام يهدم ما قبله.(١٢١).

قال: فقبضت يدى.

قال: فقال «**مالك ياعمرو**» ؟

قال: قلت: أردت أن أشترط

قال: «**تشترط ماذا**» ؟

قلت: أن يغفر لى.

قال: «**أما عَلِمتَ أن الإسلامَ يهدمُ ما كانَ قبلَه، وأن الهجرةَ تهدمُ ماكانَ قَبلَها، وأن الحجَّ يهدمُ ما كانَ قبلَهُ**» وماكان أحد أحب إلىَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولاأجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولانار، فإذا دفنتمونى فسنوا علىَّ التراب سنًا، ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى.

فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .

وقد ذكر على جماعة من السلف: أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن.

قال عبد الحق(١): يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة.

وممن رأى ذلك العلى بن عبد الرحمن، وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولا حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك .

---

(١) عبد الحق؛ هو: ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين، أبو محمد، ابن الخراط، من علماء الأندلس، كان فقيها حافظًا، عالمًا بالحديث وعلله ورجاله، شارك فى الأدب وقول الشعر، الجامع الكبير، توفى سنة(٥٨١هـ). انظر: فوات الوفيات (٢٤٨/١)، الأعلام (١/٢/٣).

وقال الخلال فى الجامع كتاب القراءة عند القبور[1]:

أخبرنا العباس بن محمد الدروى، ثنا يحيي بن معين، ثنا مبشر الحلبى، حدثني عبد الرحمن بن العلاء بن الحلاج عن أبيه.

قال: قال أبي: إذا أنا مت فضعنى فى اللحد وقل: بسم الله وعلى سنة رسول الله وسن على التراب سنًا واقرأ عند رأسى بفاتحة البقرة خاتمتها، فإنى سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك .

قال عباس الدورى[2]: سألت أحمد بن حنبل قلت: تحفظ فى القراءة على القبر شيئا؟

فقال: لا، وسألت يحيى بن معين فحدثنى بهذا الحديث .

قال الخلال: وأخبرنى الحسن بن أحمد الوراق، ثنا على بن أبى موسي الحداد وكان صدوقا.

قال: كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهرى فى جنازة، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر.

فقال له أحمد: ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر.

قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله ما تقول فى مبشر الحلبى.

قال: ثقه.

قال: كتبت عنه شيئا؟

قال: نعم.

---

(١) الخلال؛ هو: أحمد بن محمد بن هارون، أبو بكر، مفسر عالم بالحديث واللغة، وهو من كبار الحنابلة، له كثير من التفاسير والكتب، من آثاره: طبقات أصحاب ابن حنبل، تفسير الغريب، توفى سنة (٣١١هـ). انظر: طبقات الحنابلة (١٢/٢)، البداية والنهاية(١٤٨/١١).

(٢) عباس الدورى، هو: ابن محمد بن حاتم بن واقد، أبو الفضل، أحد المحدثين الحفاظ، صحب يحيى بن معين، له كتاب فى الرجال عن ابن معين، توفى سنة (٢٧١هـ). انظر: تهذيب التهذيب (١٢٩/٥)، سير أعلام النبلاء (٢٦٦/٨).

قال: فأخبرنى مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن الحلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها.

وقال: سمعت ابن عمر يوصى بذلك.

فقال له أحمد: فارجع وقل للرجل يقرأ.

وقال الحسن بن الصباح الزعفرانى: سألت الشافعى عن القراءة عند القبر فقال: لابأس بها .

وذكر الخلال عن الشعبى قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرأون عنده القرآن.

قال: وأخبرنى أبو يحيى الناقد.

قال: سمعت الحسن بن الجروى يقول: مررت على قبر أخت لى فقرأت عندها تبارك لما يذكر فيها فجاءنى رجل.

فقال: إنى رأيت أختك فى المنام تقول: جزى الله أبا على خيرًا، فقد انتفعت بما قرأ.

أخبرنى الحسن بن الهيثم قال: سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبى نصر بن التمار.

يقول: كان رجل يجىء إلى قبر أمه يوم الجمعة فيقرأ سورة يس، فجاء فى بعض أيامه فقرأ سورة يس، ثم قال: اللهم إن كنت قسمت لهذه السورة ثوابا فاجعله فى أهل هذه المقابر، فلما كان فى الجمعة التى تليها جاءت امرأة.

فقالت: أنت فلان ابن فلانة ؟

قال: نعم.

قالت: إن بنتا لى ماتت فرأيتها فى النوم جالسة على شفير قبرها فقلت: ما أجلسك ها هنا؟ فقالت: إن فلان ابن فلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس وجعل ثوابها لأهل المقابر، فأصابنا من روح ذلك، أو غفر لنا، أو نحو ذلك .

وفى النسائى:

وغيره من حديث معقل بن يسار المزنى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«اقْرَأُوا يَس عِنْدَ مَوْتَاكُم»**[1]. وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله: **«لَقِّنوا مَوْتَاكُم لا إله إلا الله»**[2]. ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر والأول أظهر لوجوه .

أحدها: أنه نظير قوله **«لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»**.

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه.

بقوله: ﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس:٢٦،٢٧]. فيستبشر الروح بذلك فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه.

فإن هذه السورة قلب القرآن ولها خاصية عجيبة فى قراءتها للمحتضر .

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى قال: كنا عند شيخنا أبى الوقت عبد الأول وهو فى السياق وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال: **﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾**[يس:٢٦،٢٧]. وقضى .

الثالث: أن هذا عمل الناس وعادتهم قديما وحديثا يقرأون يس عند المتحضر .

الرابع: الصحابة لو فهموا من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«اقرأوا يس عِنْدَ موتاكم»** قراءتها عند القبر لما أخلوا به وكان ذلك أمرا معتادًا مشهورًا بينهم .

الخامس: إن انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها فى آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأما قراءتها عند قبره فإنه لايثاب على ذلك، لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع، وهو عمل وقد انقطع من الميت.

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: القراءة عند الميت (٣١٢١).

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: تلقين الموتى (٩١٦) لاإله إلا الله وابن ماجه، كتاب: ما جاء فى الجنائز، باب: ماجاء فى تلقين الميت لاإله إلا الله (١٤٤٥) من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ.

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الإشبيلى على هذا.

فقال: ذكر ما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم.

ثم قال: ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم **«مَا مِنْ رَجُلٍ يمرُّ بقبْرِ أخيهِ المؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فُيسَلِّمُ عليهِ إلا عَرفَهُ وردَّ عليهِ السَّلامَ».**

ويروى هذا من حديث أبى هريرة مرفوعا قال: **«فإنْ لم يَعْرِفْهُ وسلَّمَ عليهِ ردَّ عليهِ السَّلامَ»** .

قال: ويروى من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبرَ أخيهِ فيجْلسُ عِنْدَهُ إلا استْأْنَسَ بهِ حتى يَقُومَ»** .

واحتج الحافظ أبو محمد فى هذا الباب بما رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَا مِنْ أحَدٍ يُسَلِّمُ عليَّ إلا رَدَّ اللّهُ عليَّ رَوْحى حتى أردَّ عليهِ السَّلامَ»**[(1)].

قال: وقال سليمان بن نعيم: رأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى النوم.

فقلت: يارسول الله، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون أتفقه منهم ؟

قال: نعم وأرد عليهم.

قال: وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر: السلام عليكم أهل الديار الحديث. قال وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه ودعاء من يدعو له .

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: المناسك، باب: زيارة القبور (٢٠٤١)، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٥٢٧).

قال أبو محمد: ويذكر عن الفضل بن الموفق[١].

قال: كنت آتى قبر أبى المرة بعد المرة، فأكثر من ذلك فشهدت يومًا جنازة فى المقبرة التى دفن فيها فتعجلت لحاجتى، ولم آته فلما كان من الليل رأيته فى المنام.

فقال: لى يابنى لِمَ تأتينى ؟

قلت له: يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك ؟

قال: أى والله يابنى ما أزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة حتى تصل إلى، وتقعد عندى ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

قال ابن أبى الدنيا:

حدثنى إبراهيم بن بشار الكوفى قال: حدثنى الفضل بن الموفق فذكر القصة.

وصح عن عمرو بن دينار[٢] أنه قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم. وصح عن مجاهد أنه قال: إن الرجل ليبشر فى قبره بصلاح ولده من بعده.

ويدل على هذا أيضا: ما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت فى قبره ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فائدة وكان عبثا، وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل، ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبرانى فى معجمه من حديث أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا مَاتَ أَحَدُكُم فَسَوَّيْتُم عليهِ التُّراب فَليقُمْ أَحَدُكُم على رأسِ قبرِهِ، ثم يَقُولُ يا فلانُ ابن فلانة فإنَّه يَسْمَعُ ولا يُجيبُ،**

---

(١) الفضل بن الموفق، هو: ابن أبى المتئد الثقفى، أبو الجهم الكوفى، ابن خال سفيان بن عيينة، ويقال ابن عمته. كان شيخًا صالحًا رحمه الله تعالى. انظر: تهذيب التهذيب (٣/٣٩٦).

(٢) عمرو بن دينار؛ هو: الجمحى، أبو محمد، الأثرم، أحد فقهاء مكة، كان ثبتًا فى الحديث، وثقة النسائى، قال ابن المدينى؛ له خمسمائة حديث: توفى سنة (١٢٦ هـ) . انظر: تهذيب التهذيب (٨/٣٠)، تاريخ الإسلام، للذهبى (٥/١١٤).

ثم ليقلْ يا فلان ابن فلانة الثانَيةَ فإنه يَسْتَوى قاعداً ثم لَيقُلْ يا فُلانُ ابـن فلانـةَ فإنه يقولُ أرْشِدْنَا رَحَمِكَ اللّهُ ولكِنكم لاتسمعون. فيقـولُ اذْكُـر مـا خَرجْـتَ عليهِ من الدَّنيا شهادةَ أنْ لاإله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّهِ وأنَّـك رضيـتَ باللَّهِ ربًا وبالإسلام دينا، وبمحمدٍ نبيًـا، وبـالقرآن إمامًـا. فـإن منكـرًا ونكـيرًا يتأخَّرُ كلُّ واحدٍ منهما ويقَولُ: انطلِقْ بنا ما يُقْعِدُنَا عند هذا وقـد لُقِّـنَ حُجَّتَـهُ ويكونَ اللّهُ ورسولُهُ حَجيجَهُ دونَهُما»

فقال: رجل يارسول الله فإن لم يعرف أمه ؟

قال: «يَنْسبُهُ إلى أمِّهِ حواءَ»[1].

فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به فى سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كاف في العمل به، وما جرى الله سبحانه العادة قط بأن أمـة طبقـت مشارق الأرض ومغاربها، وهى أكمل الأمم عقولا وأوفرها معارف، تطبق علـى مخاطبة من لايسمع ولايعقل وتستحسن ذلك لاينكره منها منكر، بل سنه الأول للآخر، ويقتدى فيه الآخر بالأول ،فلـولا أن المخـاطب يسـمع وإلا كـان ذلـك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم، وهذا وإن استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود فى سننه[2]**بإسناد لابأس بـه:** أن النبـى صلـى اللـه عليـه وآله وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال: **«سَلُوا لأَخِيكُم التَثْبِيـتَ فإنـهُ الآنَ يُسْأَلُ»**. فأخبر أنه يسأل حينئذ وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين .

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم:**«أنَّ الميتَ يسمعُ قَرْعَ نِعَالِهم إذَا وَلّوا مُنصَرفينَ»**.

---

(١) الحديث: أخرجه الطبرانى فى الكبير (٨/٢٤٩ ، ٢٥٠).

(٢) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت فى وقت الانصراف (٣٢٢١) من حديث عثمان بن عفان.

وذكر عبد الحق عن بعض الصالحين:

قال: مات أخ لي فرأيته في النوم.

فقلت: يا أخي ماكان حالك حين وضعت في قبرك؟

قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعا لي لهلكت .

قال شبيب بن شيبة[1]: أوصتني أمي عند موتها .

فقالت: يابني إذا دفنتني فقم عند قبري

وقل: يا أم شبيب قولي لاإله إلا الله. فلما دفنتها قمت عند قبرها.

فقلت: يا أم شبيب قولي: لا إله إلا الله، ثم انصرفت. فلما كان من الليل رأيتها في النوم.

فقالت: يابني كدت أن أهلك لولا أن تداركني لاإله إلا الله فقد حفظت وصيتي يا بني .

وذكر ابن أبي الدنيا :

عن تماضر بنت سهل - امرأة أيوب بن عيينة .

قالت: رأيت سفيان بن عيينة في النوم.

فقال: جزى الله أخي أيوب عني خيرًا فإنه يزورني كثيرًا وقد كان عندي اليوم.

فقال: أيوب: نعم. حضرت الجبان اليوم فذهبت إلى قبره .

وصح عن حماد بن سلمة، عن ثابت عن شهر بن حوشب أن الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين.

---

(١) شبيب بن شيبة؛ هو: ابن عبد الله التميمي، المنقرى، أبو معمر، كان أديبًا للملوك، واشتهر بفصاحته، وكان يتميز بدهائه، كان شريفًا يجالس الفقراء، توفى سنة (١٧٠هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٤/٣٠٧)، ميزان الاعتدال (١/٤٤١).

قال: صعب لعوف: أى أخى أينا مات قبل صاحبه فليترايا[1] له.

قال: أو يكون ذلك؟

قال: نعم.

فمات صعب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه.

قال: قلت أى أخى.

قال: نعم.

قلت: ما فُعل بكم؟

قال: غُفر لنا بعد المصائب.

قال: ورأيت لمعة[2] سوداء فى عنقه.

قلت: أى أخى ما هذا؟

قال: عشرة دنانير استسلفتها من فلان اليهودى فهن فى قرنى فاعطوه إياها، واعلم أى أخى أنه لم يحدث فى أهلى حدث بعد موتى إلا قد لحق بى خبره حتى هرة لنا ماتت منذ أيام.

واعلم أن بنتى تموت إلى ستة أيام فاستوصوا بها معروفًا.

فلما أصبحت قلت إن فى هذا لمعلما فأتيت أهله.

فقالوا: مرحبًا بعوف أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم ؟ لم تقربنا منذ مات صعب.

قال: فاعتللت بما يعتل به الناس فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتشلت ما فيه، فوجدت الصرة التى فيها الدنانير فبعثت بها إلى اليهودى.

---

(١) يترايا: يفسح عن خناقه. انظر: القاموس المحيط، مادة[ريأ].

(٢) اللمعة: البقعة السوداء. انظر: القاموس المحيط، مادة [لمع].

فقلت: هل كان لك على صعب شيء؟

قال: رحم الله صعبًا كان من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي له.

قلت: لتخبرني.

قال: نعم أسلفته عشرة دنانير فنبذتها إليه.

قال: هي والله بأعيانها.

قال: قلت: هذه واحدة.

قال: فقلت: هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب؟

قالوا: نعم حدث فينا كذا حدث فينا كذا.

قال: قلت اذكروا.

قالوا: نعم هرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان.

قلت: أين ابنة أخي؟

قالوا: تلعب فأتيت بها فمسستها فإذا هي محمومة.

فقلت: استوصوا بها معروفًا مضت ستة أيام .

وهـذا من فقه عـوف رحمه الله وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد موته وعلم صحة قوله بالقرائن التي أخبره بها من أن الدنانير عشرة وهي في القرن، ثم سأل اليهودي فطابق قوله لما في الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر فأعطى اليهودي الدنانير.

وهذا فقه إنما يليق بأفقه الناس وأعملهم، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولعل أكثر المتأخرين ينكر ذلك.

ويقول: كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركة صعب وهي لأيتامه وورثته إلى يهودى بمنام ؟ ونظير هذا من الفقه الذى خصهم الله به دون الناس قصة ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرها أبو عمر بن عبد البر وغيره.

قال أبو عمر: أخبرنا عبد الوارث بن سفيان، ثنا قاسم بن أصبغ، ثنا أبو الزنباع روح بن الفرج، ثنا سعيد بن عفير وعبد العزيز بن يحيى المدنى، ثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصارى عن ثابت بن قيس بن شماس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: **«يَا ثَابتُ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعيشَ حَمِيدًا وتُقتَلَ شَهيدًا وَتَدَخُلَ الجنَّةَ؟»**[1].

قال مالك: فقتل ثابت بن قيس يوم اليمامة شهيدًا.

قال أبو عمرو: روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد، ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثنا عطاء الخراسانى، حدثتنى ابنة ثابت بن قيس بن شماس.

قالت: لما نزلت ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾[الحجرات: ٢].

دخل أبوها بيته وأغلق بابه ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسل إليه يسأله ما خبره؟

قال: أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملي، قال: **«لستَ مِنهُم، بلْ تَعِيشُ بخير وتموتُ بخير»**.

قال: ثم أنزل الله ﴿**وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[الحديد: ٢٣]. فأغلق بابه وطفق يبكى ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه فأخبره، فقال: يارسول الله إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى، فقال: **«لستَ مِنهُمْ بَلْ تَعيشُ حَمِيدًا وتُقْتلُ شَهِيدًا وتَدْخُلِ الجنَّةَ»** .

---

(١) الحديث: أخرجه الطبرى فى تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١]، وابن حبان فى صحيحه (١٢٦،١٢٥/١٦).

قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا أو انكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة، فمر به رجل مسلم من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت فى منامه .

فقال له: أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إنى لما قتلت أمس مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن فى طوله، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل فأت خالدًا فمره أن يبعث إلىَّ درعى فيأخذها، وإذا قدمت إلى المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -يعنى أبا بكر الصديق- فقل له: أن علىَّ من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقى عتيق وفلان.

فأتى الرجل خالدًا فأخبره فبعث إلىَّ الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته .

قال: ولانعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله انتهى ماذكره أبو عمر. فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرؤيا وتنفيذ الوصية بها وانتزاع الدرع ممن هى فى يده بها وهذا محض الفقه.

وإذا كان أبو حنيفة وأحمد ومالك يقبلون قول المدعى من الزوجين ما يصلح له دون الآخر بقرينة صدقه فهذا أولى.

وكذلك أبو حنيفة يقبل قول المدعى للحائط بوجوه الآجر إلى جانبه، وبمعاقد القمط[1].

قد شرع الله حد المرأة بأيمان الزوج وقرينة تكون لها فإن ذلك من أظهر الأدلة على الزوج. وأبلغ من ذلك قتل المقسم عليه فى القسامة بأيمان المدعين مع القرينة الظاهرة من اللوث.

---

(١) القمط: حبل تُشَدُّ به الاخصاص وقوائم الشاه للذبح، انظر: القاموس المحيط، مادة [قمط].

وقد شرع سبحانه قبول قول المدعين لتركة ميتهم إذا مات في السفر وأوصى إلى رجلين من غير المسلمين فأطلع الورثة على خيانة الوصيين فإنهما يحلفان بالله ويستحقانه وتكون أيمانهما أولى من أيمان الوصيين، وهذا أنزله الله سبحانه في آخر الأمر في سورة المائدة وهي في آخر القرآن نزولا ولم ينسخها شيء وعمل بها الصحابة بعده، وهذا دليل على أنه يقضى فى الأموال باللوث وإذا كان الدم يباح باللوث في القسامة فلأن يقضى باللوث وهو القرائن الظاهرة فى الأموال أولى وأحرى. وعلى هذا العمل ولاة العدل في استخراج السرقات من السراق، حتى إن كثيرًا ممن ينكر ذلك عليهم يستعين بهم إذا سرق ماله.

وقد حكى الله سبحانه عن الشاهد الذى شهد بين يوسف الصديق وامرأة العزيز أنه حكم بالقرينة على صدق يوسف وكذب المرأة، ولم ينكر الله سبحانه عليه ذلك بل حكاه عنه تقريرًا له. وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن نبى الله سليمان بن داود أنه حكم بين المرأتين اللتين ادعتا الولد للصغرى بالقرينة التى ظهرت له.

لما قال: آتونى بالسكين أشق الولد بينكما.

فقالت الكبرى: نعم، رضيت بذلك للتسلى بفقد ابن صاحبتها.

وقالت الأخرى: لاتفعل هو ابنها فقضى به لها للشفقة والرحمة التى قامت بقلبها حتى سمحت به للأخرى ويبقى حيًا وتنظر إليه .

وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها. وشريعة الإسلام تقرر مثل هذا وتشهد بصحته وهل الحكم بالقافة و إلحاق النسب بها للاعتماد على قرائن الشبه مع اشتباهها و خفائها غالبًا ؟ والمقصود أن القرائن التى قامت فى رؤيا عوف بن مالك وقصة ثابت بن قيس لاتقصر عن كثير من هذه القرائن، بل هى أقوى من مجرد وجوه الآجر ومعاقد القمط وصلاحية المتاع المدعى دون الآخر فى مسأله الزوجين والصانعين. وهذا ظاهر لاخفاء به وفطر الناس وعقولهم تشهد بصحته، وبالله التوفيق والمقصود .

جواب السائل: وإن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها فمعرفته بزيارة الحى له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى .

المسألة الثانية

هل أرواح الموتى تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا؟

فهى أيضًا مسـألة شريفة كبيرة القـدر وجوابهـا أن الأرواح قسـمان: أرواح معذبة، وأرواح منعمة .

فالمعذبة: فى شغل بما هى فيه من العذاب عن التزاور والتلاقى .

والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة: تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها فى الدنيا و ما يكون من أهل الدنيا. فتكون كل روح مع رفيقها الـذى هـو على مثل عملها، وروح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى الرفيق الأعلى.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾[النساء: ٦٩].

وهذه المعية ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ والمرء مـع مـن أحـب فـى هـذه الدور الثلاثة .

وروى جرير، عن منصور، عن أبى الضحى عن مسروق.

قال: قال أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ما ينبغى لنا أن نفـارقك فى الدنيا فإذا مت رفعت فوقنا، فلم نرك، فأنزل اللـه تعـالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾[النساء: ٦٩].

قال الشعبى[1]: جاء رجل من الأنصار وهو يبكى إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: «ما يُبكيكَ يا فلانُ»؟

فقال: يا نبى الله، والله الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من أهلى ومـالى، والله الذى لا إله إلاهو لأنت أحب إلى من نفسى وأنا أذكرك أنا وأهلى فنـأخذ فى كذا حتى أراك، فذكرت موتك وموتى فعرفت أنى لن أجامعك إلا فى الدنيا

---

(١) الشعبى؛ هو: عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبار، الحميرى، أبو عمرو، مـن أئمة التـابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ بالكوفة، كان نديمًا وسميرًا لعبد الملك بن مـروان، وكـان فقيها شاعرًا، توفى سنة (١٠٣هـ). انظر تهذيب التهذيب (٦٥/٥)، الوفيات (٢٤٤/١).

وأنك ترفع فى النبيين، وعرفت أنى إن دخلت الجنة كنت فى أدنى منزلة منك فلم يرد النبى صلى الله عليه وآله وسلم شيئًا فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: ٢٧ :٣٠].

أى ادخلى فى جملتهم وكونى معهم، وهذا يقال للروح عند الموت .

وفى قصة الإسراء من حديث عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم بموسى فلم يكن عنده منها علم، حتى أجمعوا الحديث إلى عيسى.

فقال عيسى: عهد الله إلى فيما دون وجبتها، فذكر خروج الدجال.

فقال: فأهبط فأقتله، ويرجع إلى بلادهم فتستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا يمرون بشىء إلا أفسدوه فيجأرون إلى الله فيدعون فيميتهم، فتجأر الأرض إلى الله من ريحهم، ويجأرون إلى فأدعو ويرسل الله السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها فى البحر، ثم ينسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم، فعهد الله إلى إذا كان كذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم لايدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهار. وذكره الحاكم والبيهقى وغيرهما[2].

وهذا نص فى تذاكر الأرواح العلم، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وأنهم أحياء يستبشرون بنعمه من الله وفضل.

---

(١) الحديث: أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (١٢٠٨/٤)، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور لابن المنذر فى تفسيره.

(٢) الحديث: أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤٥٢/٢،٤٥٣).

وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم عند ربهم يرزقون وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون .

الثاني: أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم .

الثالث: أن لفظ يستبشرون يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضًا مثل يتباشرون وقد تواترت المرائى بذلك .

فمنها ماذكره صالح بن بشير[1] قال: رأيت عطاء المسلمى فى النوم بعد موته.

فقلت له: يرحمك الله، لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا.

فقال: أما والله لقد أعجبنى ذلك فرحا وسرورًا دائمًا.

فقلت: فى أى الدرجات أنت؟

قال: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وقال عبد الله بن المبارك: رأيت سفيان الثورى فى النوم.

فقلت له: ما فعل الله بك؟

قال: لقيت محمدًا وحزبه .

وقال صخر بن راشد: رأيت عبد الله بن المبارك بعد موته.

فقلت: أليس قد مت؟

قال: بلى.

قلت: فما صنع الله بك؟

قال: غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب.

قلت: فسفيان الثورى؟

قال: بخ بخ، ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

---

(١) صالح بن بشير؛ هو: ابن وادع المرى، أبو بشر كان رجلا صالحًا، كان من عباد أهل البصرة وقرائهم، غلب عليه الخير والصلاح. توفى سنة (١٧٢هـ) انظر: حلية الأولياء (٦/١٦٥)، تهذيب التهذيب (٢/١٨٩).

وذكر ابن أبى الدنيا:

من حديث حماد بن زيد، عن هشام بن حسان، عن يقظة بنت راشد.

قالت: كان مروان المحلمى لى جارًا وكان قاضيًا مجتهدًا.

قالت: فمات فوجدت عليه وجدًا شديدًا.

قالت: فرأيته فيما يرى النائم.

قلت: أبا عبد الله ماصنع بك ربك؟

قال: أدخلنى الجنة.

قلت: ثم ماذا ؟

قال: ثم رفعت إلى أصحاب اليمين.

قلت: ثم ماذا ؟.

قال: ثم رفعت إلى المقربين.

قلت: فمن رأيت من إخوانك؟ قال رأيت الحسن وابن سيرين وميمون بن سياه.

قال حماد: قال هشام بن حسان فحدثتنى أم عبد الله - وكانت من خيار نساء أهل البصرة .

قالت: رأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت دارًا حسنة ثم دخلت بستانًا، فذكرت من حسنه ما شاء الله. فإذا أنا فيه برجل متكىء على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم الأكاويب.

قالت: فإنى لمتعجبة من حسن ما أرى.

إذ قيل: هذا مروان المحلمى أقبل، فوثب فاستوى جالسًا على سريره.

قالت: واستيقظت من منامى، فإذا جنازة مروان قد مرَّ بها على بابى تلك الساعة.

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقى الأرواح وتعارفها.

قال ابن أبي الدنيا[1]**:**

حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع، أخبرنى فضيل بن سليمان النميرى، حدثنى يحيى بن عبد الرحمن بن أبى لبيبة عن جده.

قال: لما مات بشر بن البراء بن معرور، وجدت عليه أم بشر وجدًا شديدًا.

فقالت: يارسول الله إنه لايزال الهالك يهلك من بنى سلمة، فهل تتعارف الموتى، فأرسل إلى بشر بالسلام؟

فقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم: **«نَعَمْ وَالَّذِى نَفْسِى بيدِهِ يَا أمَّ بِشْرٍ إنَّهُم لَيَتَعَارفُون كَمَا تَتَعَارفُ الطَّيْرُ فِى رؤُوس الشَّجَرِ»**.

وكان لا يهلك مالك من بنى سلمة إلا جاءته أم بشر.

فقالت: يا فلان عليك السلام.

فيقول: وعليك

فتقول: اقرأ على بشر السلام .

وذكر ابن أبي الدنيا:

من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير.

قال: أهل القبور يتوكفون[2] الأخبار، فإذا أتاهم الميت.

قالوا: مافعل فلان؟

فيقول: صالح. مافعل فلان يقول صالح. ما فعل فلان.

فيقول: ألم يأتكم أو ماقدم عليكم؟

فيقولون: لا.

فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا .

وقال صالح المرى: بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت، فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم: كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أم خبيث؟ ثم بكى حتى غلبه البكاء .

---

(١) الحديث: عزاه الحافظ فى الإصابة (٧/٢٩١)، لابن أبى الدنيا فى القبور.

(٢) يتوكفون: يتعهدون، انظر: القاموس المحيط، مادة [وكف].

وقال عبيد بن عمير أيضًا: إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الركب ما فعل فلان ما فعل فلان، فإذا قال توفى ولم يأتهم.

قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية.

وقال سعيد بن المسيب[1]: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب.

وقال عبيد بن عمير: لو أنى آنس من لقاء من مات من أهلى لألفانى قد مت كمدًا.

وذكر معاويه بن يحيى، عن عبد الله بن سلمة، أن أبا رهم المسمعى حدثه، أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إنَّ نَفْسَ المؤْمِنَ إذَا قُبِضَتْ تَلَّقَاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ كَمَا يُتَلَقَّى البَشِيرُ فى الدُّنْيَا.

فَيَقُولُونَ :انظُرُوا أخَاكُم حتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإنَّهُ كَانَ فِي كرب شَدِيدٍ.

فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَل فُلَانٌ؟ وَمَاذَا فَعَلَتْ فُلَانَةٌ؟ وَهَلْ تَزَوَّجتْ فُلَانَةُ.

فَإذَا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ قَالَ إنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلِي.

قَالُوا: إنَّا لِلَّـهِ وَإنَّـا إلَيْـهِ رَاجِعُونَ ذَهَـبَ بِـه إلـى أُمِّـه الهَاوِيـة فَبِئْسَـتِ الأمُّ وبِئْسَتِ المُرَبِّيَةُ».

وقد تقدم حديث يحيى بن بسطام حدثنى مسمع بن عاصم .

قال: رأيت عاصمًا الجحدرى فى منامى بعد موتة بسنتين.

فقلت: أليس قد مت؟

قال: بلى.

قلت: وأين أنت؟

قال: أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم.

قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟

قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح.

---

(١) سعيد بن المسيب؛ هو: ابن حزن، أبو محمد المخزومى. إمام جليل من أئمة التابعين الكبار، والصالحين الأخيار. توفى رحمه الله تعالى سنة (٩٠هـ). انظر: طبقات ابن سعد (٥/٨٨)، وحلية الأولياء (٢/١٦١).

المسألة الثالثة
هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟

فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى، والحس والواقع من أعدل الشهود بها، فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء.

وقد قال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله ابن مندة:

ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم، ثنا عبد الله بن حسين الحرانى، ثنا جدى أحمد بن شعيب، ثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآيه قال: بلغنى أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره:

ثنا عبد الله بن سليمان، ثنا الحسين، ثنا عامر ثنا أسباط عن السدى فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾.

قال: يتوفاها فى منامها فيلتقى روح الحى وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان.

قال [الأول]: فترجع روح الحى إلى جسده فى الدنيا إلى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس وهذا أحد القولين فى الآيه، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولا، والمرسلة من توفيت وفاة النوم. والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامه، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثانى: فى الآية أن الممسكة والمرسلة فى الآية كلاهما توفى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده، فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكملة.

واختار شيخ الإسلام هذا القول .

وقال: عليه يدل القرآن والسنة.

قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التى قضى عليها الموت من هذه الأنفس التى توفاها وفاة النوم، وأما التى توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال، بل هى قسم ثالث والذى يترجح هو القول الأول، لأنه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهى وفاة الموت، ووفاة صغرى وهى وفاة النوم.

وقسم الأرواح قسمين: قسمًا قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهى التى توفاها وفاة الموت، وقسمًا لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولا، فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التى لم تمت هى التى توفاها فى منامها، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمى وفاة موت ووفاة نوم - ولم يقل والتى لم تمت فى منامها - فإنها من حين قبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك فيمسك التى قضى عليها الموت ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى: ﴿**فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ**﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم، ثم قضى عليها الموت بعد ذلك.

والتحقيق: أن الآيه تتناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات فى النوم أو فى اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت فقوله: ﴿**يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ يتناول من مات فى اليقظة ومن مات فى المنام، وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحى يرى الميت فى منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلمه الحى، فيصادف خبره كما أخبر فى الماضى والمستقبل وربما، أخبره بمال دفنه الميت فى مكان لم يعلم به سواه وربما، أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحدًا من العالمين.

وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر، وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له. وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس إخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين. وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وإخبار ابنة له بما عمل من بعده، وقصه شبيب بن شيبه وبقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيرًا حيث لقنها لا إله إلا الله، وقصة الفصل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب: التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى.

فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلى فالقنى فأخبرنى ما لقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك .

فقال الآخر: وهل تلتقى الأموات والأحياء؟

قال: نعم أرواحهم فى الجنه تذهب حيث شاءت.

قال: فمات فلان فلقيه فى المنام، فقال توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط.

وقال العباس بن عبد المطلب: كنت أشتهى أن أرى عمر فى المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغى إن كاد عرشى ليهد لولا أن لقيت رءوفًا رحيمًا .

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالى الوفاة دخل عليه عفيف بن الحارث وهو يجود بنفسه.

فقال: يا أبا الحجاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل.

قال: وكانت كلمة مقبولة فى أهل الفقة.

قال: فمكث زمانًا لايراه ثم رآه فى منامه.

فقال له: أليس قد مت؟

قال: بلى.

قال: فكيف حالك؟

قال: تجاوز ربنا عنا الذنوب فلم يهلك منا إلا الأحراض.

قلت: وما الأحراض؟

قال: الذين يشار إليهم بالأصابع فى الشىء .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: رأيت أبى فى النوم بعد موته كأنه فى حديقة فدفع إلى تفاحات فأوّلتهن الولد.

فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟

فقال: الاستغفار يابنى. ورأى مسلمة بن عبد الملك بن عبد العزيز بعد موته.

فقال: يا أمير المؤمنين، ليت شعرى إلى أى الحالات صرت بعد الموت؟

قال: يامسلمة هذا أوان فراغى والله ما استرحت إلا الآن.

قال: قلت فأين أنت يا أمير المؤمنين.

قال: مع أئمة الهدى فى جنة عدن .

وقال صالح البراد[1]: رأيت زرارة بن أوفى بعد موته.

فقلت: رحمك الله ماذا قيل لك وماذا قلت؟ فأعرض عنى.

قلت: فما صنع الله بك؟

قال: تفضل علىَّ بجوده وكرمه.

قلت: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف؟

قال: ذاك فى الدرجات العلى.

قلت: فأى الأعمال أبلغ فيما عندكم؟

قال: التوكل وقصر الأمل.

(١) صالح البراد، هو: من علماء أهل البصرة، له ترجمة فى ثقات ابن حبان (٦/٤٥٥)، والتاريخ الكبير (٢/٢/٢٧٣،٢٧٤).

وقال مالك بن دينار: رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد على السلام.

فقلت: ما يمنعك أن ترد السلام؟

قال: أنا ميت فكيف أرد عليك السلام.

فقلت له: ماذا لقيت بعد الموت؟

قال: لقيت والله أهوالاً وزلازل عظامًا شدادًا.

قال قلت له: فما كان بعد ذلك؟ قال: وما تراه يكون من الكريم قبل منا الحسنات وعفا لنا عن السيئات، وضمن عنا التبعات.

قال: ثم شهق مالك شهقة خر مغشيًا عليه.

قال: فلبث بعد ذلك أيامًا مريضًا ثم انصدع قلبه فمات .

وقال سهيل أخو حزم: رأيت مالك بن دينار بعد موتة فقلت: يا أبا يحيى ليت شعرى، ماذا قدمت به على الله ؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة محاها عنى حسن الظن بالله عز وجل.

ولما مات رجاء بن حيوة[1] رأته امرأة عابدة.

فقالت: يا أبا المقدم إلى ما صرتم؟

قال: إلى خير، ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت.

قال قلت: ومم ذلك؟

قال: دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها.

---

(١) رجاء بن حيوة؛ هو: ابن جرول الكندى، أبو المقدام، كان واعظًا فصيحًا، عالما، وكان شيخ أهل الشام فى عصره، كان ملازما لعمر بن عبد العزيز فى عهدى الإمارة والخلافة، توفى سنة (١١٢هـ). انظر: حلية الأولياء (٥/١٧٠)، تهذيب التهذيب(٣/٢٦٥).

وقال جميل بن مرة[1]: كان مورق العجلي لي أخا وصديقًا.

فقلت له ذات يوم: أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه.

قال: فمات مورق فرأت أهلى فى منامها كأنه أتانا كما يـأتى، فقـرع البـاب كما كان يقرع.

قالت: فقمت ففتحت له كما كنت أفتح.

وقلت: ادخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك.

فقال: كيف أدخل وقد ذقت الموت، إنما جئت لأعلم جميلا بما صنع اللـه بى أعلميه إنه قد جعلنى فى المقربين .

ولما مات محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزنًا شـديدًا فـرآه فـى المنام فى حال حسنة.

فقال: يا أخى قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن.

قال: رفع فوقى بسبعين درجة.

قلت: ولِمَ ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه؟

قال: ذاك بطول حزنه.

وقال ابن عيينة: رأيت سفيان الثورى فى المنام فقلت: أوصنى، قال: أقلَّ من معرفة الناس.

وقال عمار بن سيف: رأيت الحسن بن صالح فى منامى.

فقلت: قد كنت متمنيًا للقائك فماذا عندك فتخبرنا به؟

فقال: أبشر فإنى لم أر مثل حسن الظن بالله شيئًا .

ولما مات ضيغم العابد رآه بعض أصحابه فى المنام.

---

(١) جميل بن مرة؛ هو: جميل ابن مرة الشيبانى البصرى، قـال الإمـام أحمـد عنـه: مـا أعلـم إلا خيرًا. انظر: تهذيب التهذيب (٣١٦/١).

فقال: أما صليت عليّ؟

قال: فذكرت علة كانت.

فقال: أما لو كنت صليت على ربحت رأسك .

ولما ماتت رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة استبرق وخمار من سندس، وكانت كفنت فى جبة وخمار من صوف.

فقالت لها: ما فعلت الجبة التى كفنتك فيها وخمار الصوف؟

قالت: والله إنه نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترين على وطويت أكفانى وختم عليها ورفعت فى عليين، ليكمل لى ثوابها يوم القيامة.

قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين، أيام الدنيا؟

فقالت: وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه؟

فقلت لها: فما فعلت عبدة بنت كلاب؟

فقالت: هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى.

قالت قلت: وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها؟

فقالت: إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمست.

فقلت: فما فعل أبو مالك - تعنى ضيغمًا؟

فقالت: يزور الله تبارك وتعالى متى شاء.

قالت: قلت فما فعل بشر بن منصور؟

قالت: بخٍ بخٍ، أُعطىَ والله فوق ما كان يأمل.

قالت قلت: مرينى بأمر أتقرب به إلى الله تعالى.

قالت: عليكِ بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك.

ولما مات عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر، وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ.

فقال: كيف كنت بعدنا، وجدت طعم الموت، وكيف رأيت الأمر هناك؟

قال: أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب وما تلقانا إلا بفضله .

وقال صالح بن بشر: لما مات عطاء السلمى رأيته فى منامى.

فقلت: يا أبا محمد ألست فى زمرة الموتى؟

قال: بلى.

قلت: فماذا صرت إليه بعد الموت؟

قال: صرت والله إلى خير كثير ورب غفور شكور.

وقال: قلت أما والله لقد كنت طويل الحزن فى دار الدنيا.

فتبسم وقال: والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويله وفرحًا دائمًا.

فقلت: ففى أى الدرجات أنت؟

قال: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

ولما مات عاصم الجحدرى رآه بعض أهله فى المنام.

فقال: أليسَ قد متَ؟

قال: بلى.

قال: فأين أنت؟

قال: أنا والله فى روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى، فنتلقى أخباركم.

قال قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟

قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح .

ورؤى الفضيل بن عياض بعد موته فقال: لم أر للعبد خيرًا من ربه .

وكان مرة الهمدانى قد سجد حتى أكل التراب جبهته، فلما مات رآه رجل من أهله فى منامه، وكان موضع سجوده كهيئة الكوكب الدرى.

فقال: ما هذا الأثر الذى أرى بوجهك؟

قال: كسى موضع السجود بأكل التراب له نورًا.

قال: قلت: فما منزلتك فى الآخرة؟

قال: خير منزل دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون .

وقال أبو يعقوب القارى: رأيت فى منامى رجلا آدما طوالا والناس يتبعونه.

قلت: من هذا؟

قالوا: أويس القرنى فاتبعته.

فقلت: أوصنى يرحمك الله فكلح فى وجهى.

فقلت: مسترشد فأرشدنى رحمك الله، فأقبل على.

فقال: ابتغ رحمة الله عند محبته، واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك، ثم ولى وتركنى .

وقال ابن السماك: رأيت مسعرا فى النوم.

فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟

قال: مجالس الذكر.

وقال الأجلح: رأيت سلمة بن كهيل فى النوم.

فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟

قال: قيام الليل .

وقال أبو بكر ابن أبى مريم: رأيت وفاء بن بشر بعد موته.

فقلت: ما فعلت يا وفاء؟

قال: نجوت بعد كل جهد.

قلت: فأى الأعمال وجدتوها أفضل؟

قال: البكاء من خشية الله عز وجل .

وقال الليث بن سعد، عن موسى بن وردان: أنه رأى عبد الله بن أبى حبيبة بعد موته.

فقال: عرضت على حسناتى وسيئاتى، فرأيت فى حسناتى حبات رمان التقطتهن فأكلتهن، ورأيت فى سيئاتى خيطى حرير كانا فى قلنسوتى .

وقال سنيد بن داود: حدثنى ابن أخى جويرية بن أسماء.

قال: كنا بعبادان فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعبد فمات بهـا فـى يـوم شديد الحر.

فقلت: نبرد ثم نأخذ فى جهازه، فنمت فرأيت كأنى فـى المقـابر فـإذا بقبـة جوهر تتلألأ حسنًا، وأنا أنظر إليها إذ انفلقت فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها، فأقبلت على.

فقالت: بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر .

قال: فانتبهت فزعًا وأخذت فى جهازه وحفرت له قـبرًا فـى الموضـع الـذى رأيـت فيه القبة فدفنته فيه .

وقال عبد الملك بن عتاب الليثى: رأيت عامر بن قيس فى النوم.

فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟

قال: ما أريد به وجه الله عز وجل .

وقال يزيد بن هارون: رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين فى المنام.

فقلت: ما فعل بك ربك؟

قال: غفر لى.

قلت: بماذا؟

قال: بالصوم والصلاة.

قلت: أرأيت منصور بن زاذان؟

قال: هيهات ذاك نرى قصره من بعيد .

وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية فى طاعون الجارف فلقيها أبوها بعد موتها.

فقال لها: يا بنية أخبرنى عن الآخرة.

قالت: يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عملى أحب إلى من الدنيا وما فيها.

وقال كثير بن مرة: رأيت فى منامى كأنى دخلت درجة علياء فى الجنة فجعلت أطوف بها وأتعجب منها، فإذا أنا بنساء من نساء المسجد فى ناحية منها فذهبت حتى سلمت عليهن.

ثم قلت: بما بلغتن هذه الدرجة؟

قلن: بسجدات وتكبيرات .

وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز: عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز قالت: انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال: لقد رأيت رؤيا معجبة.

قالت، فقلت: جعلت فداك فأخبرنى بها.

فقال: ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح، فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه.

قالت: فاغتنمت خلوته.

فقلت: أخبرنى بالرؤيا التى رأيت.

قال: رأيت كأنى رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر، وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر.

فهتف بأعلى صوته يقول: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ أين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل ذلك القصر.

قال: ثم أن آخر خرج من ذلك القصر: أين أبو بكر الصديق أين ابن أبى قحافة ؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل القصر.

ثم خرج آخر فنادى:. أين عمر بن الخطاب؟ فأقبل عمر حتى دخل القصر.
ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر.
ثم خرج آخر فنادى: أين على بن أبى طالب؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر.
ثم إن آخر خرج فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟
قال عمر: فقمت حتى دخلت ذلك القصر.
قال: فدفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقوم حوله
فقلت بينى وبين نفسى: أين أجلس؟ فجلست إلى جنب عمر بن الخطاب.
فنظرت فإذا أبو بكر عن يميـن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا عمر عن يساره، فتأملت فإذا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبى بكر رجل.
فقلت: من هذا الرجل الذى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبى بكر؟
فقال: هذا عيسى ابن مريم.
فسمعت هاتفًا يهتف وبينى وبينه ستر نور: يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه، واثبت على ما أنت عليه، ثم كأنه أذن لى فى الخروج، فقمت فخرجت من ذلك القصر، فالتفت خلفى فإذا أنا بعثمان بن عفان وهو خارج من ذلك القصر يقول الحمد لله الذى نصرنى، وإذا على بن أبى طالب فى أثره خارج من ذلك القصر يقول الحمد لله الذى غفر لى.

وقال سعيد بن أبى عروبة: عن عمر بن عبد العزيز: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت وجلست، فبينا أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج على وهو يقول قضى لى ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لى ورب الكعبة.

وقال حماد بن أبى هاشم: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله، وأقبل رجلان، يختصمان وأنت بين يديه جالس.

فقال لك: يا عمر إذا علمت فاعمل بعمل هذين لأبى بكر وعمر، فاستحلفه عمر بالله أرأيت هذه الرؤيا فحلف فبكى عمر .

وقال عبد الرحمن بن غنم[1]: رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق، وخلفه رجال بيض عليهم ثياب على خيل بلق[2] وهو قدامهم، وهو يقول ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين، ثم التفت عن يمينه وشماله .

يقول: يا ابن رواحة يا ابن مظعون، الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين. ثم صافحنى وسلم على .

وقال قبيصة بن عقبة[3]: رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته.

فقلت: ما فعل الله بك؟

فقال:

نظرتُ إلى ربِّى عَيانًا فقالَ لِى ... هَنِيئًا رضَائِى عَنْكَ يَا ابْنَ سَعِيد
فقد كنتَ قوّامًا إذا الليلُ قد دَجَى ... بَعَبْرَةِ محزُون وقَلْبِ عَمِيد
فدُونَكَ فاخْتَر أى قَصْر تُرِيدُه ... وَزُرْنِى فَإنِّى مِنكَ غَيرُ بَعِيد

وقال سفيان بن عيينة: رأيت سفيان الثورى بعد موته يطير فى الجنة من نخلة إلى شجرة ومن شجرة إلى نخلة، وهو يقول لمثل هذا فليعمل العاملون.

فقيل له: بما أدخلت الجنة؟

قال: بالورع بالورع.

---

(١) عبد الرحمن بن غنم: هو ابن كُريب بن هانئ بن ربيعة الأشعرى، مختلف فى صحبته. كان من كبار فقهاء أهل الشام، وهو الذى فَقَّه عامة التابعين بالشام، وكان جليل القدر، ولازم معاذ بن جبل حتى مات، توفى سنة (٧٨هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٥٤٤،٥٤٣/٢).

(٢) خيل بلق: خيول فى لونها سواد وبياض، انظر: القاموس، مادة [بلق].

(٣) قبيصة بن عقبة: هو ابن محمد بن سفيان ابن عقبة الكوفى، أبو عامر. جالس الثورى وهو صغير. توفى رحمه الله تعالى سنة (٢١٥هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٤٢٧،٤٢٦/٣).

قيل له: فما فعل على بن عاصم؟

قال: ما نراه إلا مثل الكوكب .

وكان شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين وكانا جليلين.

قال أبو أحمد البريدى: فرأيتهما بعد موتهما.

فقلت: أبا بسطام ما فعل الله بك؟

فقال: وفقك الله لحفظ ما أقول:

حبَـانِى إلَهـى فِـى الجنَـان بقُبَّـةٍ … لَهَا أَلْفُ بَابٍ مِـنْ لُجَيـن وجَوْهَـرَا

وَقَالَ لِى الرَّحْمَنُ يَـا شُـعْبَةُ الَّـذِى … تَبحَّـرَ فِـى جَمْـع العُلـوم فـأَكْثَرا

تَنعَّـمْ بقُربـى إنِّـى عَنْـكَ ذُو رضًـا … وَعَن عَبْدى القَوَّام فِى اللَّيْل مِسْعرًا

كَفَـى مِسْـعَرًا عِـزاً بـأنْ سَـيَزُورُنِى … وَأَكْشفُ عَنْ وَجْهِى الكَرِيم لِيَنْظُـرَا

وهَـذَا فِعَـالِى بـالَّذِين تَنسَّـكُوا … وَلَـم يَـأْلَفُوا سَـالِفَ الدَّهْـر مُنْكَـراَ

وقال أحمد بن محمد اللبدى: رأيت أحمد بن حنبل فى النوم.

فقلت: يا أبا عبد الله ما فعل الله بك؟

قال: غفر لى.

ثم قال: يا أحمد ضربت فى ستين سوطًا؟

قلت: نعم يارب.

قال: هذا وجهى قد أبحتك فانظر إليه .

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج: حدثنى رجل من أهل طرسوس.

قال: دعوت الله عز وجل أن يرينى أهل القبور حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به.

فرأيت: بعد عشر سنين فى المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادرونى بالكلام.

فقالوا: يا هذا كم تدعو الله عز وجل أن يريك إيانا. تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى .

قال أبو محمد عبد الحق: وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو إخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانه وعظم منزلته، فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعما هو فيه إلا بهذا وما هو فى معناه .

وقال أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث: رأيت بشر الحافى ومعروف الكرخى وهما جائيان.

فقلت: من أين؟

فقالا: من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى .

وقال عاصم الجزرى: رأيت فى النوم كأنى لقيت بشر بن الحارث.

فقلت: من أين يا أبا نصر؟ قال من عليين.

قلت: فما فعل أحمد بن حنبل؟

قال: تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدى الله عز وجل يأكلان ويشربان.

قلت له: فأنت؟

قال: علم قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه .

وقال أبو جعفر السقاء: رأيت بشر بن الحارث فى النوم بعد موته .

فقلت: أبا نصر ما فعل الله بك؟

قال: ألطفنى ورحمنى.

وقال لى: يابشر لو سجدت لى فى الدنيا على الجمر ما أديت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك.

وأباح لى نصف الجنة فأسرع فيها حيث شئت ووعدنى أن يغفر لمن تبع جنازتى.

فقلت: ما فعل أبو نصر التمار؟

فقال: ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره .

قال عبد الحق: لعله أراد بقوله نصف الجنة: نصف نعيمها ؛ لأن نعيمها نصفان نصف روحانى ونصف جسمانى، فيتنعمون أولا بالروحانى فإذا ردت الأرواح إلى الأجسام أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى.

وقال غيره: نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه فى العلم. والله أعلم .

وقال بعض الصالحين: رأيت أبا بكر الشبلى[1] فى المنام، وكأنه قاعد فى مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يقعد فيه وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان فقمت إليه وسلمت عليه وجلست بين يديه.

فقلت له: من أقرب أصحابك إليك؟

قال: ألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله .

وقال أبو عبد الرحمن الساحلى: رأيت ميسرة بن سليم فى المنام بعد موته.

فقلت له: طالت غيبتك.

فقال: السفر طويل.

فقلت له : فما الذى قدمت عليه.

فقال: رخص لى لأنا كنا نفتى بالرخص.

فقلت: فما تأمرنى به؟

قال: اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار .

وقال أبو جعفر الضرير: رأيت عيسى بن زاذان بعد موته.

فقلت: ما فعل الله بك؟

---

(١) أبو بكر الشبلى: اختلفوا فى اسمه على أقوال، فقيل: دلف بن جعفر، ويقال: دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس. أصله فى بلاد خراسان، وولد بسامراء، وكان أبوه حاجبًا للخليفة الموفق. وقد تاب على يدى أحد الوعاظ، ثم صحب الصوفية حتى صار من أئمتهم. توفى رحمه الله تعالى سنة (٣٣٣هـ). انظر: البداية والنهاية (١١/٢٨،٢٢٩).

فأنشأ يقول:

لَوْ رَأَيتَ الحِسَانَ فِي الخُلْدِ حَوْلِي	وأَكَـــاوِيبَ مَعَهَـــا لِلشَّـــرَابِ
يَـــتَرَنَّمن بالكِتَـــابِ جَمِيعًـــا	يَتَمَشَّـــيْنَ مُسْـــبِلات الثِّيَـــابِ

وقال بعض أصحاب ابن جريج: رأيت كأني جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة، فرأيت على عامتها سرادقًا ورأيت منها قبرًا عليه سرادق وفسطاط وسدرة، فجئت حتى دخلت فسلمت عليه، فإذا مسلم بن خالد الزنجي فسلمت عليه.

وقلت: يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط، وفيه سدرة؟

فقال: إني كنت كثير الصيام.

فقلت: فأين قبر ابن جريج وأين محله، فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه؟

فقال: هكذا بيده هيهات وأدار إصبعه السبابة وأين قبر ابن جريج رفعت صحيفته في عليين .

ورأى حماد بن سلمة في النوم بعض أصحابه.

فقال له: ما فعل الله بك؟

فقال: قال لي طال ما كددت نفسك في الدنيا فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

وهذا باب طويل جدًا فإن لم تسمح نفسك بتصديقه أو قلت هذه منامات هي غير معصوبة، فتأمل من رأى صاحبًا له أو قريبًا أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا، أو أخبره بمال دفنه أو حذره من أمر يقع، أو بشره بأمر يوجد فوقع، كما قال أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا، فيقع كما أخبره أو أخبره بخصب أو جذب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره، و الواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه.

وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب.

وأبطل من قال: إن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم، وهذا عين الباطل والمحال، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت، ولا خطرت ببالها ولاعندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما؟ ونحن لاننكر أن الأمر قد يقع كذلك. وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد، بل كثير من مرائى الناس إنما هى مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

فإن الرؤيا على ثلاثه أنواع:

رؤيا من الله، ورؤيا من الشيطان، ورؤيا من حديث النفس .

والرؤيا الصحيحة أقسام :

منها: إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد، وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام، كما قال عبادة بن الصامت وغيره، ومنها مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها.

ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرها كما ذكرناه.

ومنها: عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له .

ومنها: دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من المحسوسات، وهذا موضع اضطرب فيه الناس .

فمن قائل إن العلوم كلها كامنة فى النفس، وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها، فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها، ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل، وهذا فيه حق وباطل، فلا يرد كله ولايقبل كله، فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لاتحصل بدون التجرد، لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية، وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة، وتفاصيل الأمر والنهى، والأسماء والصفات والأفعال، وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحى، ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك، وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة فى الشواغل البدنية .

ومن قائل: إن هذه المرائى علوم علقها الله فى النفس ابتداء بلا سبب، وهذا قول منكرى الأسباب والحكم والقوى، وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة.

ومن قائل: إن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداده ألفه على يد ملك الرؤيا، فمرة يكون مثلا مضروبا ، ومرة يكون نفس ما رآه الرائى فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه، وهذا أقرب من القولين قبلة، ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه؛ بل لها أسباب أُخرَ كما تقدم من ملاقاة الأرواح وإخبار بعضها بعضًا، ومن إلقاء الملك الذى فى القلب والروع ومن رؤية الروح للأشياء مكافحة بلا واسطة .

وقد ذكر أبو عبد الله ابن منده[1] الحافظ فى كتاب النفس والروح:

من حديث محمد بن حميد: ثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى، ثنا الأزهر بن عبد الله الأزدى، عن محمد بن عجلان، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه.

قال: لقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب.

فقال له: يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا وشهدنا وغبت ثلاثًا. أسألك عنهن فهل عندك منهن علم؟

فقال على بن أبى طالب: وما هن.

فقال الرجل: يحب الرجل ولم ير منه خيرًا والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شرًا.

فقال على: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: **«إنَّ الأرْوَاحَ جنودٌ مجنَّدةٌ تَلْتَقِى فى الهواءِ فتشامُ فما تَعَارفَ منها ائتلفَ وما تَناكَرِ مِنها اخْتَلَفَ»**.

فقال عمر: واحدة.

قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذا نسيه فبينا هو وما نسيه إذ ذكره.

فقال: نعم.

---

(١) أبو عبد الله ابن منده: هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى الأصبهانى الحافظ، ولد سنة (٣١٠هـ)، وهو من بيت علم وفضل. رحل رحلات كثيرة، وأكثر من السماع حتى فاق أهل عصره. توفى رحمه الله تعالى سنة (٣٩٥هـ) بأصبهان، وقد ترك كثيرًا من التصانيف. انظر: تذكرة الحفاظ (٣/٢٢٠-٢٢٤).

سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: **«ما فى القُلوبِ قَلْبٌ إلاَّ ولهُ سحابَةَ كَسَحابةِ القَمَرِ بينا القَمَرُ مضيءٌ إذا تَجَلَّلتُهُ سحَابَةٌ فأَظْلم إذ تَجلَّتْ فَاضَاءَ، وبينا القَلْبُ يتحَدثُ إذْ تجلَّلتُه سَحَابةٌ فَنسِيَ إذ تجلَّت عنه فَيذْكَر»** .

قال عمر: اثنتان.

قال: والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب.

فقال: نعم.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: **«ما مِنْ عَبْدٍ ينام يَتَمَلَّى نَومًا إلا عُرِجَ بروحِهِ إلى العرش، فالذى لا يَسْتيقِظُ دونَ العرْشِ فتلْكَ الرُّؤيا التى تُصَدَّقُ والَذى يَسْتيقِظُ دونَ العرْشِ فهى التى تُكَذَّبُ»** .

فقال عمر: ثلاث كنت فى طلبهن فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت[1] .

وقال بقية بن الوليد: حدثنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر الحضرى.

قال: قال عمر بن الخطاب: عجبت لرؤيا الرجل يرى الشىء لم يخطر له على بال، فيكون كأخذ بيد، ويرى الشىء لم يكن شيئا.

فقال: على بن أبى طالب يا أمير المؤمنين يقول الله عز وجل: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾[الزمر: ٢٤].

قال: والأرواح يعرج بها فى منامها، فما رأت وهى فى السماء فهو الحق، فإذا ردت أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها فما رأت من ذلك فهو الباطل.

قال: فجعل عمر يتعجب من قول على .

قال ابن منده: هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره وروى عن أبى الدرداء.

---

(١) الحديث: عزاه الهيثمى فى المجمع، كتاب: العلم، باب: سؤال العالم عما لا يعلم للطبرانى فى الأوسط، وقال: فيه أزهر بن عبدالله، قال العقيلى: حديثه غير محفوظ عن ابن عجلان، وهذا الحديث يُعرف من حديث إسرائيل عن أبى إسحاق عن الحارث عن على موقوفًا، وبقية رجاله موثوقون.

وذكر الطبرانى من حديث على بن أبى طلحة:

أن عبد الله بن عباس قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين أشياء أسألك عنها؟

قال: سل عما شئت.

قال: يا أمير المؤمنين مم يذكر الرجل ومم ينسى. ومم تصدق الرؤيا، ومم تكذب؟

فقال له عمر: إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر فإذا تغشت القلب نسى ابن آدم فإذا انجلت ذكر ما كان نسى، وإما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب، فإن الله عز وجل يقول: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ فمن دخل منها فى ملكوت السماء فهى التى تصدق، وما كان منها دون ملكوت السماء فهى التى تكذب .

وروى ابن لهيعة: عن عثمان بن نعيم الرعينى، عن أبى عثمان الأصبحى، عن أبى الدرداء قال: إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها إلى العرش، فإن كان طاهرًا أذن لها بالسجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن لها بالسجود .

وروى جعفر بن عون، عن إبراهيم الهجرى، عن أبى الحوص، عن عبد الله ابن مسعود أنه قال: إن الأرواح جنود مجندة تتلاقى فتشام كما تشام الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ولم يزل الناس قديمًا وحديثًا تعرف هذا وتشاهده.

قال جميل بن معمر العذرى:

أَظَلُّ نَهَارِى مُسْتَهَامًا وَتَلْتَقِى ... مع اللَّيلِ روْحِى فى المنَامِ ورَوْحِها

فإن قيل: فالنائم يرى غيره من الأحياء يحدثه ويخاطبه وربما كان بينهما مسافة بعيدة، ويكون المرء يقظان وروحه لم تفارق جسده فكيف التقت روحاهما؟

قيل: هذا إما أن يكون مثلا مضروبا ضربه ملك الرؤيا للنائم، أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له فى المنامة.

كما قال حبيب بن أوس :

سَقيا لَطيفِكِ مِنْ زورٍ أتَاكَ بِهِ ... حديثُ نَفْسِكَ عنهُ وهو مَشْغُولُ

وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة إحداهما بالأخرى، فيشعر كل منهما

ببعض ما يحدث لصاحبه، وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشده العلاقة بينهما، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب. والمقصود أن أرواح الأحياء تتلاقى فى النوم كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات .

قال بعض السلف: إن الأرواح تتلاقى فى الهواء فتتعارف أو تتذاكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر.

قال: وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكا علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها ومتقلبها فى دينها ودنياها وطبعها ومعارفها، لا يشتبه عليه منها شيء، ولا يغلط فيها فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان من خير وشر فى دينه ودنياه، ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته، فتارة يبشره بخير قدمه أو يقدمه، وينذر من معصية ارتكبها أو هم بها ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها، ولغير ذلك من الحكم والمصالح التى جعلها الله فى الرؤيا نعمة منه ورحمة وأحياءً تذكيرًا وتعريفًا وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها وتعارفها، وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة عن منام رآه أو روى له، وكم ممن استغنى وأصاب كنزًا دفينًا عن منام .

وفى كتاب المجالسة لأبى بكر أحمد بن مروان المالكى، عن ابن قتيبة، عن أبى حاتم، عن الأصمعى، عن المعتمر بن سليمان عمن حدثه.

قال: خرجنا مرة فى سفر وكنا ثلاثة نفر فنام أحدنا، فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غارًا قريبًا منه ثم رجع، فدخل أنفه فاستيقظ يمسح وجهه.

وقال: رأيت عجبًا، رأيت فى هذا الغار كذا، وكذا، فدخلناه فوجدنا فيه بقية من كنز كان .

وهذا عبد المطلب، دل فى النوم على زمزم وأصاب الكنز الذى كان هناك .

وهذا عمير بن وهب، أوتى فى منامه

فقيل له: قم إلى موضع كذا، وكذا من البيت، فاحفره تجد مال أبيك، وكان أبوه قد دفن مالاً ومات ولم يوص به، فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره، فأصاب عشرة آلاف درهم وتبرًا كثيرًا، فقضى دينه وحسن حاله وحال

أهل بيته، وكان عقيب إسلامه، فقالت له الصغرى من بناته: يا أبت ربنا هذا الذى حيانا بدينه خير من هبل والعزى ولولا أنه كذلك ما ورثك هذا المال، وإنما عبدته أيامًا قلائل .

قال على بن أبى طالب القيروانى العابر[1]: وماحديث عمير هذا واستخراجه المال بالمنام بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه فى عصرنا بمدينتنا من أبى محمد عبد الله البغانشى، وكان رجلا صالحًا مشهورًا برؤية الأموات وسؤالهم عن الغائبات، ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك، وكثر منه فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية وله مال لا يهتدى مكانه، فيعده خيرًا ويدعو الله تعالى فى ليلته فيتراءى له الميت الموصوف فيسأله عن الأمر فيخبره به .

فمن نوادره أن امرأة عجوزًا من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعه دنانير وديعة فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه مانزل بها، وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها، ثم عادت إليه من الغد، فقال لها: تقول لك فلانه عدى من سقف بيتى سبع خشبات تجدى الدنانير فى السابعة فى خرقة صوف، ففعلت ذلك ووجدتها كما وصف لها.

قال: وأخبرنى رجل لا أظن به كذبًا .

قال: استأجرتنى امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم، فلما أخذت فى الهدم لزمت الفعلة هى ومن معها.

فقلت: ما لك؟

قالت: والله ما لى إلى هدم هذه الدار من حاجة، ولكن أبى مات وكان ذا يسر كثير فلم نجد له كثير شىء، فخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلى أجد شيئًا.

---

(١) ذكر المناوى القدير (٣/٣٦) أن له كتابًا اسمه البستان.

فقال لها بعض من حضرنا: لقد فاتك ما هو أهون عليك من هذا ؟

قالت: وما هو؟

قال: فلان تمضين إليه وتسألينه أن يبيت قصتك الليلة فلعله يرى أباك فيدلـك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة، فذهبت إليه ثم عادت إلينا فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده، فلما كان من الغد بكرت إلى العمل وجاءت المرأة من عند الرجل.

فقالت: إن الرجل قال لى: رأيت أباك وهو يقول: المال فى الحنية.

قال: فجعلنا نحفر تحت الحنية وفى جوانبها حتى لاح لى شق، وإذا المال فيه.

قال: فأخذنا فى التعجب، والمرأة تستخف بما وجدت.

وتقول: مال أبى كان أكثر من هذا، ولكنى أعود إليه، فمضت، فأعلمته ثـم سألته المعاودة، فلما كان من الغد أتت.

وقالت: إنه قال لها: إن أباك يقول لك: احفرى تحت الحابيـة المربعـة التى فى مخزن الزيت.

قال: ففتحت المخزن فإذا بحابية مربعة فى الركن، فأزلناها وحفرنـا تحتهـا، فوجدنا كوزا كبيرا فأخذته ثم دام بها الطمع فى المعاودة ففعلـت فرجعـت مـن عنده وعليها الكآبة.

فقالت: زعم أنه رآه وهو يقول له قد أخذنا ما قدر لهـا، وأمـا مـا بقـى فقـد جلس عليه عفريت من الجن يحرسه إلى من قدر له .

والحكايات فى هذا الباب كثيرة جدًا. وأما من حصل لـه الشـفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له فى منامه فكثير جدًا .

وقد حدثنى غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائـض وغيرهـا فأجابه بالصواب، وبالجملة فهذا أمر ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها، وبالله التوفيق .

المسألة الرابعة
هـل تمـوت الأرواح؟

فقد اختلف الناس فى هذا .

فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت، لأنها نفس وكل نفس، ذائقة الموت.

قالوا: وقد دلت الأدلة على هذا لايبقى إلا الله وحده.

قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾[الرحمن: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾[القصص: ٨٨].

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت.

قالوا: وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا: ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين. فالموتة الأولى هذه المشهودة وهى للبدن، والأخرى للروح.

وقالت أخرى: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان.

قالوا: وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله فى أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب.

وقد قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ**﴾[آل عمران: ١٦٩].

هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت .

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت.

وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهى لا تموت بهذا الاعتبار، بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب، كما سيأتى إن شاء الله تعالى بعد هذا، كما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله فى جسدها .

وقد نظم أحمد بن الحسين الكندى هذا الاختلاف فى قوله :

تَنَازَعَ النَّاسُ حتَّى لا اتّفَاقَ لَهُمْ   إلا على شَجَبٍ والخُلْفُ فِي الشَجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمةً   وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فِى العَطَبِ

فإن قيل: فعند النفخ فى الصور هل تبقى الأرواح حية كما هى أو تموت ثم تحيا؟ قيل: قد قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾[الزمر: ٦٨].

فقد استثنى الله سبحانه بعض من فى السماوات ومن فى الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبى هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير.

وقيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره.

وقيل: هم الذين فى الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن النار من أهل العذاب وخزنتها. قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا .

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يموتن عند النفخ فى الصور، وقد أخبرنا سبحانه أن أهل الجنة لايذوقون الموت إلا الموتة الأولى، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان.

وأما قول أهل النار: ﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾[غافر: ١١].فتفسير هذه الآية التى فى البقرة وهى قوله تعالى:﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾[البقرة: ٢٨].

فكانوا أمواتا وهم نطف فى أصلاب آبائهم وفى أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم ثم يحيهم يوم النشور، وليس فى ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند نفخ الصور لا يلزم منه موتها .

ففى الحديث الصحيح[1]: **«إنَّ النَّاسَ يُصْعقُونَ يومَ القيامـةِ فـأكُونُ أوَّلَ مَـنْ يَفيقُ، فإذا مُوسَى آخذٌ بقَائمةِ العَرْشِ فلا أدْرِى أفَاقَ قبْلـِى أم جُـوزِىَ بصعقـةِ يومِ الطُّورِ؟»**

فهذا صعق فى موقـف القيـامة إذا جاء اللـه لفصـل القضـاء وأشـرقت الأرض بنوره، فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: ﴿**فَذَرْهُـمْ حَتَّى يُلاقُـوا يَوْمَهُـمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ**﴾[الطور: ٤٥].

ولو كان هذا الصعق موتًا لكانت موتة أخرى، وقد تنبه لهذا جماعه من الفضلاء.

فقال أبو عبد الله القرطبـى[2]: ظـاهر هـذا الحديـث أن هـذه صعقـة غشـيٍ تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور .

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمر[3]: ظاهر حديث النبـى صلـى اللـه عليـه وآله وسلم يدل على أن هذه الصعقة إنما هى بعد النفخـة الثانيـة، نفخـة البعـث ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق.

ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء وهذا باطل .

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الخصومات باب ما يُذكر فى الأشخاص والملازمة، والخصومة بين المسلم واليهودى (٢٤١١)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم (٢٣٧٣). من حديث أبى هريرة ﷺ.

(٢) أبو عبد الله القرطبى: هو محمد بن أحمد بن أبى بكر، ابن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى المفسر. رحل إلى المشرق، واستقر فى مصر. قال عنه الذهبى: إمام متفنن، متبحر فى العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله توفى رحمه الله تعالى سنة (٦٧١هـ). انظر: نفح الطيب (٧/٢٢١-٢٢٤)، والديباج المذهب لابن فرحون (٣١٧،٣١٨).

(٣) أحمد بن عمر: هو ابن إبراهيم بن عمر الأنصارى القرطبى المالكى، أبو العباس، المعروفة بابن المزين. وُلد بقرطبة، ورحل إلى المشرق، وأقام فى الإسكندرية، وتوفى بها سنة (٦٥٦هـ). له تصانيف منها: المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، ويبدو أن النص المذكور هنا منقول منه. انظر: الديباج المذهب (٦٨-٧٠).

وقال القاضى عياض[1]: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض.

قال: فتستقل الأحاديث والآثار.

ورد عليه أبو العباس القرطبى فقال: يرد هذا قوله فى الحديث الصحيح إنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش.

قال: وهذا إنما هو عند نفخة الفزع .

قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: والذى يزيح هذا الإشكال -إن شاء الله- أن الموت ليس بعدم محض، وإنما انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا.

وإذا كان هذا فى الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى.

من أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«أن الأرض لاتأكل أجساد الأنبياء»**[2].

وأنه صلى الله عليه وآله وسلم: اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء، وخصوصًا بموسى.

وقد أخبر بأنه: ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه ورحه حتى يرد عليه السلام.

إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع

---

(١) القاضى عياض: هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى المالكى، أبو الفضل. إمام ذو فنون، مُكثر من التصانيف من أشهر تصانيفه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار.توفى رحمه الله تعالى سنة (٥٤٤هـ). انظر: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض للمقرى.

(٢) إشارة إلى حديث: **«إن الله عز وجل قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»**. أخرجه النسائى، كتاب: الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبى ﷺ يوم الجمعة (١٣٧٤)، وأبو داود، كتاب: الصلاة باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧). من حديث أوس ابن أوس رضي الله عنه.

إلى أن غيبوا عنا بحيث لاندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ فى الصور نفخة الصعق صعق كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت.

وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ فى الصور نفخة البعث فمن مات حيي، ومن غشى عليه أفاق؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث المتفق على صحته: **«فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ»** .

فبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى. فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته، أو بقى على الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقًا؛ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور، وهذه فضيلة عظيمة لموسى، ولا يلزم من فضيلة عظيمة لموسى، ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقًا؛ لأن الشيء الجزئى لا يوجب أمرًا كليًا. انتهى .

قال أبو عبد الله القرطبي: إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ فى الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى إذا نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور.

قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تردد هل أفاق موسى قبله، أم لم يصعق، بل جوزى بصعقة الطور، فالمعنى لاأدرى أصعق أم لم يصعق.

وقد قال فى الحديث: **«فأكونُ أوَّل مَنْ يَفيقُ»**

وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل فى موسى: هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ؟ ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهى صعقة الموت، ولكان صلى الله عليه وآله وسلم قد جزم بموتة.

وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة .

فعلم أنها صعقة فزع لاصعقة موت، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت فى النفخة الأولى، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى، وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت مرة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله فى الحديث: «**إن النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامَةِ فأكُونُ أوَّلَ من تَنْشَقُّ عنْهُ الأرضُ فأجدُ مُوسَى باطِشًا بقائِمَةِ العرْشِ**».

قيل: لاريب أن هذا اللفظ ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا .

أحدهما: أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق .

والثانى: هكذا أنا أول من تنشق عنه الأرض عنه يوم القيامة .

ففى الترمذى وغيره[1]:

من حديث أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يومَ القِيَامةِ ولافَخْرَ، وبيدِى لواءُ الحمْد ولا فَخْرَ، وما مِنْ نَبِى يومئذٍ آدم فَمَنْ سِواهُ إلا تَحتَ لوائِـى، وأنَا أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأرْضُ ولاَ فَخْرَ**».

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. فدخل على الراوى هذا الحديث فى الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك .

فإن قيل: فما تصنعون بقوله: «**فلا أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل**»، والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعق النفخة لامن صعقة يوم القيامة.

كما قال الله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ**﴾[الزمر:٦٨]. ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة.

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بنى إسرائيل (٣١٤٨)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٨).

قيل: هذا والله أعلم غير محفوظ، وهو وهم من بعض الرواة، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «**فلا أدْرِى أَفَاقَ قَبْلِى أم جُوزِىَ بصعقَةِ الطور**».

فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هى صعقة النفخة، وأن موسى داخل فيمن استثنى منها، وهذا لايلتئم على مساق الحديث قطعًا فإن الإفاقة حينئذ هى إفاقة البعث.

فكيف يقول: «**لا أدرى أبعث قبلى أم جوزى بصعقة الطور**». فتأمله. وهذا بخلاف الصعقة التى يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم، فإنهم يصعقون جميعًا.

وأما موسى صلى الله عليه وسلم فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا، فجعلت صعقة هذا التجلى عوضا من صعقة الخلائق لتجلى الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم ولو لم يكن فى الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقته أن يعض عليه بالنواجذ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق .

المسألة الخامسة
فــى ماهيــة الــروح

فهذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل، ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها، وليست بداخل العالم ولا خارجه، ولا لها شكل ولا قدر، ولا شخص، فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه .

وكذلك من يقول: هى عرض من أعراض البدن، فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها، فلا تميز لها بعد الموت بل لاوجود لها على أصولهم، بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن، كما تبطل سائر صفات الحى، ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدله القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل .

والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجىء وتتحرك وتسكن وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها فى كتابنا الكبير فى معرفة الروح والنفس وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال غيره لم يعرف نفسه وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها.

فقال تعالى: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ**﴾[الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر: ٢٧-٢٩].

وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد.

وقال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[الشمس:٧٨].

فأخبر أنه سوَّى النفس، كما أخبر أنه سوَّى البدن فى قوله: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾[الانفطار: ٧].

فهو سبحانه سوَّى نفس الإنسان كما سوَّى بدنه، بل سوَّى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس والبدن موضوع لها كالقلب لما هو موضوع له، ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة لتميز بها عن غيرها، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن، كما يتأثر البدن وينتقل عنها فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبيثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطًا وتناسبًا وتفاعلاً، وتأثرًا من أحدهما بالآخر الروح والبدن؛ ولهذا يقال لها عند المفارقة: اخرجي أيتها النفس الطيبة كنت في الجسد الطيب، واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث.

وقال الله تعالى: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾**[الزمر:٤٢]. فوصفها بالتوفي والإمساك والإرسال، كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«أنَّ بَصَرَ الميتِ يَتْبَعُ نَفْسَهُ إذا قُبِضَت»**[1]. وأخبر: **« أن المَلَكَ يَقْبِضُها فتأخُذُها الملائكةُ مِنْ يدِهِ فيوجَدُ لها كأطيبِ نَفحَةِ مِسْكٍ وجِدَتْ على وجْهِ الأرض، أو كأنْتنِ ريح جيفةٍ وجِدَت على وجهِ الأرض»**[2].

والأعراض لا ريح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد.

وأخبر: **«أنَّها تَصْعَدُ إلى السَّماء ويُصلِّي عَلَيها كُلُّ مَلَكٍ للَّهِ بَيْنَ السماء والأرْضِ وأنها تُفْتَحُ لها أبْوابُ السَماء فَتَصْعَدُ من سماء إلى سَماء حتَّى ينْتَهِيَ بها إلى السَّماء التي فِيها اللَّهُ عزَّ وجَلَ، فتُوقَفُ بينَ يديهِ ويأمُرُ: بكَتابة اسمِهِ في دِيوانِ أهْلِ عِلِّيينَ أو ديوان أهلِ سجِّينَ، ثمَّ تردُّ إلى الأرض، وأنَّ روحَ الكافرِ تُطْرَحُ طرحًا، وأنها تَدْخُلُ مع البدَنِ في قبْرِهِ للسؤال»** .

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: شخوص بصر الميت يتبع نفسه (٩٢١). من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) إشارة: إلى حديث، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٧/٤). من حديث البراء بن عازب ﷺ.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«بأنَّ نِسمَةَ المؤمِن- وهي روحُهُ- طائرٌ يعلَّقُ في شَجَرِ الجنَّةِ حتى يردَّهَا اللّـهُ إلى جَسَدِهَا، وأَخْبَرَ أن أرواح الشُّهداءِ في حواصِلِ طيرٍ خُضْرٍ تَرِد أنهار الجنةِ وتأكُلُ من ثمارِها، وأَخْبَرَ أنَّ الرُّوحَ تُنعَمُ وتعذَّبَ في البَرْزَخِ إلى يومِ القيامةِ»**[1].

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون: أنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا قبل يوم القيامة.

وقد أخبر سبحانه عن الشهداء: بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه حياة أرواحهم ورزقها دارًا وإلا فلا بد أن قد تمزقت، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم إطلاعة.

فقال: على تشتهون شيئًا.

قالوا: أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟

ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا.

قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى[2].

وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«أنَّ أرَواحَ الشُّهدَاءِ في طيرٍ خضرٍ، تَعْلُقُ مِنْ ثَمرِ الجنَّةِ. وتعلق- بضم اللام- أى: تأكُلُ العلقةَ»**[3].

وقال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لمَّا أصيبَ إخْوانُكم بأحدٍ جَعَلَ اللَّهُ أرْواحَهُم في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ، تَردُ أنهارَ الجنةِ وتأكُلُ من ثِمَارِها، وتأوى إلى قناديلَ مِنْ ذهبٍ في ظلِّ العَرْشِ، فلمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهم ومأكَلِهم وحُسْنَ مقيلهم قالوا: ياليتَ إخوانَنَا يَعْلمُونَ ما صَنَعَ اللَّهُ لنَا لئلاَّ يَزْهَدُوا فيَ الجهادِ، ولا ينكُلُوا عن الحربِ، فقال الله عز وجل:**

---

(١) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٧١)، والإمام أحمد في مسنده (٣/٤٥٦). من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة.

(٣) الحديث: أخرجه الترمذي، كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في ثواب الشهداء (١٦٤١)، والإمام أحمد في مسنده (٦/٣٨٦). من حديث كعب بن مالك ﷺ.

أنا أبلّغهم عنكم فأنزلَ الله تعالى على رسول اللّه[1]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩]. الآيات». رواه الإمام أحمد. وهذا صريح فى أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها: وسيأتى مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى. وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيرًا، وأما الأرواح فقل ما تشتبه. يوضح هذا أنَّا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون فى علمنا أظهر تميز ،وليس ذلك التميز راجعًا إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم عن الآخر، بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته. ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشبهان كثيرًا وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين فى الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما فى غاية الظهور .

وأخبرك بأمر: إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عيانًا، قل أن ترى بدنا قبيحًا وشكلا إلا وجدته مركبًا على نفس تشاكله وتناسبه، وقل أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها، فقل أن تخطىء ذلك.

ويحكى عن الشافعى رحمه الله فى ذلك عجائب، وقل أن ترى شكلا حسنًا وصورة جميلة وتركيبًا لطيفًا، إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له، هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد، وإذا كانت الأرواح العلوية وهى الملائكة، متميزًا بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم، وكذلك الجن، فتميز الأرواح البشرية أولى .

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد،باب: فى فضل الشهادة (٢٥٢٠)، والإمام أحمد فى مسنده (٢٦٦/١). ينكلوا: يقال نكل عن الحرب إذا امتنع وترك الاقدام عليها، انظر: النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير، مادة [نكل].

المسألة السادسة
هل تعاد الأرواح إلى الأجساد فى القبور؟

فقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس، حيث صرح بإعادة الروح إليه.

فقال البراء بن عازب: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له .

فقال: «أعوذُ باللّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثلاث مرات، ثُمَّ قَالَ: إنَّ العبْد إذَا كَانَ فِي إقْبَال مِنَ الآخِرَةِ وانقطاع مِن الدُّنْيا نَزَلَتَ إلَيْهِ مَلائِكَةٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، فيجْلِسُون مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ.

فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَان، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.

قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فلا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلأ مِنَ الْمَلائِكَةِ- إلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟

فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فلان بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بها إلَى السَّمَاء التى فيها الله تعالى.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إلَى الأرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى.

قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَان فَيُجْلِسَانِه.

فَيَقُولان: لَهُ مَنْ رَبُّك؟

فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ.

فَيَقُولان: لَهُ مَا دِينُكَ؟

فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلام؟

فَيَقُولان لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ

فَيَقُولان لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ

فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ.

قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ.

قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ.

فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ.

فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ.

قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا. كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ. فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ

إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟

فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فلان بأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ، إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فلا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ.

فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي

فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ.

فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ»[1].

رواه الإمام أحمد وأبو داود، وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه أبو عوانة الإسفراييني في صحيحه.

وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف.

وقال أبو محمد ابن حزم في كتاب الملل والنحل له: وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة، فخطأ.

(١) سبق تخريجه.

إن الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك.

يعنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[غافر: ١١].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[البقرة: ٢٨].

قال: ولو كان الميت يحيا فى قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثًا وأحيانًا ثلاثًا، وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية لنبى من الأنبياء كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم.

والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ومن خصه نص.

وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[الزمر: ٤٢].

فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة.

وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة**» .

وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور.

ولم ينكر على الصحابة قولهم: قد جيفوا، واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك، وأما الجسد فلا حس له،

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢].

فنفى السمع عمن فى القبور وهى الأجساد بلا شك، ولا يشك مسلم أن الذى نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذى أثبت له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السمع .

قال: ولم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به.

قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح فى القبور إلى الأجساد المنهال ابن عمرو وحده وليس بالقوى تركه شعبة وغيره.

قال فيه المغيرة بن مقسم الضبى[1]**: وهو أحد الأئمة:** ماجازت للمنهال بن عمرو قط شهادة فى الإسلام على ماقد نقل، وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك.

قال: وهذا الذى قلنا هو الذى صح أيضا عن الصحابة، ثم ذكر من طريق ابن عيينة، عن منصور ابن صفية.

عن أمه صفية بنت شيبة قالت: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحًا قبل أن يقبر.

فقيل له: هذه أسماء بنت أبو بكر الصديق فمال ابن عمر إليها فعزاها.

وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء وإن الأرواح عند الله.

فقالت أمه: ومايمنعنى وقد أهدى رأس يحيي بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل.

قلت: ماذكره أبو محمد فيه حق وباطل.

أما قوله: من ظن أن الميت يحيا فى قبره فخطأ فهذا فيه إجمال، إن أراد به الحياة المعهودة فى الدنيا التى فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ، كما قال والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه إعادة المألوفة فى الدنيا، ليسأل ويمتحن فى قبره فهذا حق ونفيه خطأ.

---

(١) المغيرة بن مقسم الضبى: أبو هشام الكوفى الفقيه. قال أبو بكر بن عياش: ما رأيت أحدًا أفقه من مغيرة توفى سنة (١٣٦هـ)، وقيل غيرها. انظر: تهذيب التهذيب (٤/٤٣٨).

وقد دل عليه النص الصحيح والصريح وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«فَتُعادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ»** .

وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بقوله تعالى: **﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾**[غافر:١١]. فلا ينفى ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح فى الجسد، كما أن قتيل بنى إسرائيل الذى أحياه الله بعد قتله ثم أماته، لم تكن تلك الحياة العارضة له للمسألة معتدا بها .

فإنه حى لحظة بحيث قال: فلان قتلنى ثم خر ميتًا.

على أن قوله: ثم تغادر روحه فى جسده، لايدل على حياة مستقرة، إنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به الروح ولم تزل متعلقة ببدنها وإن بلى وتمزق.

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به فى بطن الأم جنينا .

الثانى: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث: تعلقها به فى حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

الرابع: تعلقها به فى البرزخ فإنها وإن فارقته، وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًا، بحيث لايبقى لها التفات إليه، وقد ذكرنا فى أول الجواب من الأحاديث والآثار مايدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لايوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولانسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لايقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادًا.

وأما قوله تعالى: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾**[الزمر:٤٢]. فإمساكه سبحانه التى قضى عليها الموت لاينافى ردها إلى

جسدها الميت فى وقت ما، ردًا عارضًا لايوجب له الحياة المعهودة فى الدنيا. وإذا كان النائم روحه فى جسده وهو حى، وحياته غير حياة المستيقظ، فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحى وبين الميت الذى لم ترد روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحى والميت. فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة .

وأما إخبار النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن رؤية الأنبياء ليلة أسرى به، فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذى رآه أشباحهم وأرواحهم.

قال: فإنهم أحياء عند ربهم.

وقد رأى إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور.

ورأى موسى قائما فى قبره يصلى.

وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح.

فرأى موسى آدمًا ضربا طوالا وكأنه من رجال شنوءة.

ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس.

ورأى إبراهيم فشبه بنفسه ونازعهم فى ذلك آخرون.

وقالوا: هذه الرؤية إنما هى لأرواحهم دون أجسادهم، والأجساد فى ذلك الأرض قطعًا، إنما تبعث يوم يوم بعث الأجساد، ولو تبعث قبل ذلك، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخه الصور، وهذه موتة ثالثة، وهذا باطل قطعا، ولو كانت قد بعث الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها، بل كانت فى الجنة.

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق لم تنشق عن أحد قبله، ومعلوم بالضرورة أن جسده صلى الله عليه وآله وسلم فى الأرض طرى مطرا.

وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟

فقال: **«إِنَّ اللَّهَ حرَّمَ عَلَى الأرضِ أنْ تأكُلَ أجْسَادَ الأنْبيَاءِ»**. ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب .

وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام .

وصح عنه أنه خرج بين أبى بكر وعمر.

وقال:« هَكَذَا نُبْعَثُ»[1]. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين، مع أرواح الأنبياء.

وقد صح عنه أنه رأى موسى قائما يصلى فى قبره ليله الإسراء، ورآه فى السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن فى القبر وإشراف عليه، وتعلق به بحيث يصلى فى قبره ويرد سلام من سلم عليه، وهو فى الرفيق الأعلى ولا تنافى بين الأمرين، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان.

وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين فى غاية التحاور والقرب، وإن كان بينهما بعد المشرقين، وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين،

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن، فإنها تصعد إلى ما فوق السماوات ثم تهبط إلى الأرض، ما بين قبضها ووضع الميت فى قبره وهو زمن يسير، لا يصعد البدن وينزل فى مثله، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن فى النوم واليقظة، وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها، فإنها فى السماء وشعاعها فى الأرض .

قال شيخنا: وليس هذا مثلا مطابقًا، فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء والشعاع الذى على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل .

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: المناقب، باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وابن ماجه، المقدمة، باب: فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه (٣٦٦٩).

وأما قول الصحابة: للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قتلى بدر: كيف تخاطب أقوامًا قد جيفوا - مع إخباره بسماعهم كلامه - فلا ينفي ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت ردًا يسمعون به خطابه والأجساد قد جيفت. فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت .

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾[فاطر: ٢٢]. فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لاتقدر على إسماعهم إسماعًا ينتفع به.

كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعًا ينتفعون به ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لايسمعون شيئًا ألبتة.

كيف وقد أخبرالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين. وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع.

وأخبر أن من سلم على أخية المؤمن رد عليه السلام.

وهذه الآية نظير قوله: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾[النمل: ٨٠].

وقد يقال: نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى، ويدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعًا بمنزلة خطاب الميت والأصم، وهذا حق ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي والله أعلم .

وحقيقة المعنى أنك لاتستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه، إن أنت إلا نذير.

أي إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه.

وأما قوله: إن الحديث لايصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى. فهذا من مجازفته رحمه الله، فالحديث صحيح لاشك فيه. وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان، منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد .

قال الحافظ أبو عبد الله ابن منده فى كتاب الروح والنفس أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف، ثنا محمد بن إسحاق الصفار، ثنا أبو النضر هاشم بن القاسم، حدثنا عيسى بن المسيب، عن عدى بن ثابت، عن البراء بن عازب.

قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحن، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير فأرم قليلا.- والإرمام السكوت - فلما رفع رأسه قال: «**إنَّ المؤمِنَ إذَا كانَ فى قُبلٍ مِنَ الآخِرةِ ودُبُر مِنَ الدنيَا وحضَرَهُ ملَكُ الموتِ، نزَلَت عَليهِ ملائكةٌ معهُمْ كَفَنٌ منَ الجنةِ وحَنُوطٍ مِنَ الجَنَّة، فجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، وَجَاءَ عِنْدَ رأْسه.**

ثم قال: اخرُجى أيتُّها النَّفْسُ المُطَمئِنةُ، اخرُجى إلى رَحْمَةِ اللـه ورضْوانـه فَتَنسلُ نَفْسُهُ كَمَا تَقْطُرُ القَطْرَةُ مِنَ السِّقَاءِ، فَإذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ صَلَى عَلَيه كُلُّ مَنْ بَينَ السَّمَاء والأرْضِ إلا الثَّقَلَين، ثُمَّ يُصعَدُ به إلى السَّماء فَتُفْتَحُ لَهُ السَّمَاءُ وَيُشَيِّعهُ مُقَرَّبوُهَا إلى السَّمَاء الثانيةِ والثالثةِ والرابعةِ والخامسةِ والسادسةِ والسابعةِ إِلَى العَرْش، مُقَرَّبُو كُلِّ سَمَاء ،فإذَا انتَهَى إِلَى العَرْش كُتِبَ كِتَابُهُ فى عِلِّيِّين.

وَيقُولُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ: رُدُّوا عَبْدِى إلى مَضْجَعه، فَإنِّى وَعَدتُّهُم أَنِّى مِنهَا خَلَقْتهُم وَفيهَا أُعِيدُهُم وَمِنهْا أُخْرِجُهُم تَارَةً أُخْرَى، فَيُردُّ إِلى مَضْجَعِهِ فَيَأْتِيـهِ مُنْكَرٌ وَنَكيرٌ يُثِيران فِى الأَرْضِ بأنْيَابِهمَا، ويَفْحصان[1] الأرْضَ بأشْعَارِهِمَا، فَيُجْلسَانِه.

ثم يقال له: يَاهَذَا مَنْ رَبُّك ؟

فَيَقولُ: رَبِّى اللَّهُ.

---

(١) يفحصان: يحفران، انظر: النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير، مادة [فحص].

فيقولان: صَدَقْتَ.

ثم يقالُ لَهُ: مادِينُكَ ؟

فيقول: دِينِىَ الإِسْلامُ.

فيقولان: صَدَقْتَ.

ثم يقال له: من نبيُّكَ ؟

فيقول: محمدٌ رسولُ اللَّهِ.

فيقولان: صَدَقْتَ.

ثم يُفْسَحُ لهُ فِى قَبْرِه حَدُّ بَصَرِه وَيَأْتِيهِ رَجَلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثّيابِ.

فيقول: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فوالله مَا عَلِمْتُ إنْ كُنْتَ لسَرِيعًا فِى طَاعَةِ اللَّه بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيةِ الله.

فيقول: وَأَنْتَ فَجَزاكَ اللَّهُ خيرًا فَمَن أَنْتَ؟

فقال: أنا عَمَلُكَ الصَّالحُ.

ثُمَّ يُفْتحَ لَه بَابٌ إِلَى الجَنَّة، فَيَنْظُرُ إِلَى مِقْعُدِه ومَنْزِلِه مِنْهَا حَتَّى تَقومَ السَّاعَةُ. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِى دُبُرٍ مِنَ الدُّنْيَا وقُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ وَحَضَرَهُ المَوتُ نَزَلَتْ عَلَيهِ مِنَ السَّمَاء مَلائكَةٌ معَهُم كَفَنٌ مِنَ النَّار وحَنوطٍ مِنْ نارٍ.

قال: فَيَجْلِسونَ مِنْهُ مَدَّ بَصَرِه وَجَاءَ مَلكُ المـوتُ فَيَجْلِسُ عنْدَ رَأْسِه ثـم قال: اخرُجي أيتُّها النَّفْسُ الخَبيثَةُ اخرُجى إِلَى غَضَبِ اللـه وسَخَطِهِ، فَتُفَرَّقُ رُوحُهُ فِى جَسَدِه كَرَاهِيَةَ أَنْ تَخْرُجَ لَمَّا تَرَىَ وتُعَايِنُ، فَيَسْتَخْرِجَهَا كَمَا يُسْتَخْرَجَ السَّفُودَ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُول: فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسَهُ لَعَنَهُ كُلُّ شيء بَيْنَ السَّمَاء والأرْض إلاَّ الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يَصْعَدُ بهِ إلَى السَّمَاء فَتُغْلَقْ دُونَهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلّ: رُدُّوا عَبْدِى إِلَى مَضْجَعِهِ، فَإِنِّى وَعَدْتَهُم أنِّى خَلَقْتَهُم وفِيْهَا أُعِيْدُهُم وَمِنْهَا أَخْرِجَهُم تَارَةً أُخْرَى، فَتُرَدُّ رَوْحَهُ إِلَى مَضْجَعِه فَيَأتِيه مُنْكَرٌ

ونَكِيرٌ يُثِيرَان الأَرْضَ بأَنْيَابِهمـا ويَفْحَصَــان الأَرْضَ بأَشْـعَارِهِمَا، أَصْوَاتُهُمَـا كَالرَّعْدِ القَاصِفِ، وأَبْصَارُهُمَا كَالبَرْق الخَاطِفِ، فَيُجْلِسَانِه ثُمَّ يَقُولان: يَا هَـذَا مَنْ رَبُّـكَ؟ فَيَقُـول: لا أَدْرِى، فَيُنَـادَى مِـنْ جَـانِبِ القَبْرِ: لا دَرِيْتَ فَيَضْرِبَانِـهِ بمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيْدٍ لَو اجْتَمَعَ عَلَيْهَا مَنْ بَيْن الخَافِقَيْنِ لَمْ تَقُلْ، يَضِيْقُ عَلَيْـهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَختلفَ أضلاعُهُ، وَيَأْتِيـه رَجُـلٌ قَبِيـحُ الوَجْـهِ وَقَبِيحُ الثِّيَـابِ مُنْتِـن الرِّيـحِ فيقـول: جَـزَاكَ اللّـهُ شَـرًّا فَوَاللّـهِ مـاعَلِمْتُ إنْ كُنْـتَ لَبطِيئًـا عـنْ طَاعَـةِ اللّـهِ سَرِيعًافى مَعْصِيةِ اللّهِ.

فيقول: وَمَنْ أَنْتَ؟

فيقول: أَنَا عَمَلُكَ الخبيث، ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَابٌ إِلَى النَّـارِ، فَيَنْظُـرُ إلـى مَقْعـدِه فِيهَا حَتَّى تَقَومَ السَّاعَةُ»[1]. رواه الإمام أحمد ومحمـود بـن غيـلان وغيرهمـا عـن أبى النضرة ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر، وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه.

ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بـن سـلمة، عـن حصيـف الجـزرى، عـن مجاهد عن البراء بن عازب .

قال: كنا فى جنازة رجل من الأنصار، ومعنا رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم، فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة.

وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنَّ المؤمِنَ إذا احْتُضِـرَ أتاهُ ملكُ الموتِ فى أحْسَنِ صورةٍ وأطيبِه ريحًا فجَلَسَ عنـده لِقَبْـضِ روحِـهِ، وأتـاهُ مَلَكَـان بحَنـوطٍ مـن الجنَّـةِ وكَفَـنٍ مِـنَ الجنـةِ وكَانَـا مِنْـهُ علـى بعيــدٍ، فاسْتَخرج مَلَكُ المـوْتِ روحَـهُ مِـنَ جَسَـدِهِ رشْـحًا، فإذا صَـارتْ إلـى مَلَـكَ المَوت ابْتَدرَها المَلَكَان فحنطاها منه فأخذها بحنوطٍ من الجنةِ وكَفَّناها بكَفَنٍ من الجنةِ، ثـم عَرَجَـا بِـهِ إلـى الجنَّـةِ، فَتُفْتَـحُ لـه أبـوابُ السـماءِ، وتُسْتَـبْشِرُ الملائكةُ بها.

(1) سبق تخريجه ص(٣٧).

ويقولون: لِمنْ هِذهِ الروحُ الطيبةُ التى فُتِحَتَ لها أبْوابُ السماء، يسمَّى بأحسَنِ الأسْماء التى كَانَ يسمَّى بها فى الدُّنيا، فيقالُ: هذه رُوحُ فلَان، فإذا صُعِد بها إلى السَّماء شَيَّعَها مُقَرَّبُو كلِّ سماءٍ حتَّى تُوضَعَ بَينَ يدى اللَّه عِنْدَ العرْشِ فَيخْرُجَ عَمَلُها مِنْ عليِّين، فيقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ للمقربينَ: اشهدوا إنِّى قَدْ غَفَرْتُ لصاحِبِ هذا العَمَل، ويختم كتابُهُ فُيردُّ فى علِّيين فيقُولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ردُّوا رُوح عَبْدِى إلى الأرْضِ، فإنِّى وعْدتَهم أنى أردُهُم فيها، ثم قرأرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[طه: ٥٥] **فإذا وضع المؤمن فى قبره فتح له باب عند رجليه إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ماأعد الله لك من الثواب، ويفتح له باب عند رأسه إلى النار، فيقال له: انظر ماصرف الله عنك من العذاب، ثم يقال له: نم قرير العين فليس شىء أحب إليه من قيام الساعة»** .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا وضع المؤمن فى لحده تقول له الأرض: إن كنت لحبيبًا إلى وأنت على ظهرى، فكيف إذا صرت اليوم فى بطنى سأريك ما أصنع بك فيفسح له قبره مد بصره»**.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا وضع الكافر فى قبره أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: لاأدرى. فيقولان له: لادريت فيضربانه ضربة فيصير رمادًا ثم يعاد فيجلس فيقال له: ماقولك فى هذا الرجل ؟ فيقول أى رجل ؟ فيقولان: محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فيقول: قال الناس إنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيضربانه ضربة فيصير رمادًا»**[1]. هذا الحديث ثابت مشهور مستفيض صححه جماعة من الحفاظ، ولا نعلم أحدًا من أئمة الحديث طعن فيه، بل رووه فى كتبهم وتلقوه بالقبول وجعلوه أصلا من أصول الدين فى عذاب القبر، ونعيمه ومساءلة منكر ونكير وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدى الله ثم رجوعها إلى القبر.

---

(١) الحديث: عزاه السيوطى فى الدر للطبرانى فى الأوسط من حديث أبى قتادة الأنصارىﷺ، عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ بنحوه.

وقول أبي محمد لم يروه غير زاذان فوهم منه، بل رواه عن البراء غير زاذان ورواه عنه عدى بن ثابت ومجاهد بن جبر ومحمد بن عقبة وغيرهم، وقد جمع الدارقطني طرقه في مصنف مفرد وزاذان من الثقات، روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره، روى له مسلم في صحيحه .

قال يحيي بن معين: ثقة وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه هو ثقة، لاتسأل عن مثل هؤلاء، قال ابن عدى أحاديثه لابأس بها إذا روى عن ثقة، وقوله إن المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة وهي قوله فتعاد روحه في جسده وضعفه، فالمنهال أحد الثقات العدول.

قال ابن معين: المنهال ثقه وقال العجلي: كوفي ثقة. وأعظم ما قيل فيه: إنه سمع من بيته صوت غناء هذا لا يوجب القدح في روايته واطراح حديثه، وتضعيف ابن حزم له لا شيء، فإذا لم يذكر موجبًا لتضعيفه غير تفرده بقوله فتعاد روحه في جسده، وقد بينا أنه لم يتفرد بها بل قد رواها غيره وقد روى ماهو أبلغ منها أو نظيرها.

كقوله: «فترد إليه روحه» .

وقوله: «فتصيره إلى قبره».

وقوله: «فيستوى جالسًا».

وقوله: «فيجلسانه».

وقوله: «فيجلس في قبره ». وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فيها، وقد أعله غيره بأن زاذان لم يسمعه من البراء وهذه العلة باطلة فإن أبا عوانة الاسفرايينى رواه في صحيحه بإسناد، وقال عن أبي عمرو زاذان الكندي، قال: سمعت البراء بن عازب .

وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده: هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء، ولو نزلنا عن حديث البراء فسائر الأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك.

مثل حديث ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ الميتَ تحضرُه الملائكةُ فإذا كانَ الرجل الصالح قال: اخرُجي أيتُها النَّفْسُ الطيبةُ كانت في الجَسدِ الطيِّبِ اخرُجي حميدةً وَأبْشري برَوحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غَضبان، قال: فيقولُ ذلِكَ حتَّى تخرُجَ ثمَّ تُعرجُ بهَا إلى السَّماءِ فيُستَفْتَحُ لَهَا فيُقَالُ مَنْ هَذَا؟ فيقولون: فلان ابن فلان فَيَقُولُونَ: مرْحَبًا بالنفسِ الطيبةِ كانت في الجسَدِ الطيِّبِ، ادخُلِي حَمِيدَةً وأبشِري بروحٍ ورَيحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانٍ، فيُقالُ لَهَا ذَلِكَ حتَّى يَنْتهِي بهَا إلى السَّماءِ التي فِيهَا اللهُ عزَّ وجلَّ.**

وإذا كانَ الرجلُ السوء قالَ: اخرُجي أيتُها النفسُ الخبيثةُ، كانتْ في الجَسدِ الخبيثِ اخرُجي ذميمةً وأبْشِري بحَميمٍ وغسَّاقٍ وآخرَ مِن شكلِهِ أزوَاج، فَيقُولونَ، ذَلكَ حتَّى تخرُجَ ثمَّ يَعْرجُ بهَا إلَى السَّماءِ فيُستفْتحُ لها فيُقالُ: مَنْ هَذا؟ فيقولونَ: فُلانٌ، فَيقُولون: لا مَرْحبًا بالنفسِ الخبيثةِ كَانتْ في الجَسدِ الخبيثِ، وارْجعي ذَمِيمةً، فإنَّهَا لن تُفتحُ لَكِ أبْوابَ السَّماءِ فتُرْسلُ بَينَ السَّمَاءِ والأرْضِ، فتَصِيرُ إلى القبرِ فيجْلِسُ الرجلُ الصالحُ في قَبرِه غيرَ فَزِعٍ ولا معَوقٍ ثم يقالُ: فما كنتَ تقولُ في الإسلامِ ياهذَا الرجلُ ؟ فيقولُ: محمدٌ رسولُ اللَّهِ جَاء بالبيناتِ من قِبَلِ الله فآمنَّا وَصَدَّقْنَا»[1]. وذكر تمام الحديث.

قال الحافظ أبو نعيم: هذا حديث متفق على عدالة ناقليه، اتفق الإمامان محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج على بن أبي ذئب ومحمد بن عمرو بن عطاء وسعيد بن يسار وهم من شرطهما. ورواه المتقدمين الكبار عن ابن أبي ذئب مثل ابن أبي فديك، وعبد الرحمن بن إبراهيم انتهى .

ورواه عن ابن أبي ذئب غير واحد .

---

(١) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٢)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٦٤).

وقد احتج أبو عبد الله بن منده، على إعادة الروح إلى البدن بأن.

قال: حدثنا محمد بن الحسين بن الحسن، ثنا محمد بن يزيد النيسابورى، ثنا حماد بن قيراط، ثنا محمد ابن الفضل، عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخى، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس.

أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعدا تلا الآية: **﴿وَلَوْ تَرَى إذ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾**[الأنعام: ٩٣].

قال: «والذى نفسُ محمدٍ بيدهِ تفارقُ الدُّنيا حتَّى تَرى مقعدهَا مِنَ الجنَّةِ والنَّار».

ثم قال: «فإذا كانَ عِندَ ذلكَ صُفَّ له سماطانِ مِنَ الملائكةِ يَنتظمان مابينَ الخَافِقين، وكأَنَّ وُجوههُم الشمس فَيَنظُرُ إليهم مَايَرى غيرَهُم- وإنْ كنتُم تَرونَ أنَّهم ينظُرونَ إليكُم- معَ كلٍّ منهم أكفانٌ وحَنوطٌ فإنْ كانَ مُؤمنًا بَشَّرُوه بالجَنةِ وقالوا: اخرُجي أيَّتُها النفسُ الطيبةُ إلَى رِضوانِ اللَّهِ وجَنَّتِهِ، فقد أعدَّ اللَّهُ لكَ من الكَرَامةِ ماهُو خَيرٌ لكَ مِنَ الدُّنيا ومَا فِيهَا، فَلا يَزَالُونَ يُبَشِّرونَه ويحفونَ به، فلَهُم ألطَفُ وأرْأفُ مِنَ الوَالِدَةِ بوَلَدِهَا ثمَّ يسلُّونَ رُوحَه مِن تَحتِ كل ظفرٍ ومِفصَلٍ ويموتُ الأول فالأولُ، ويهونُ عليهِ وإن كُنتُم تَرونَهُ شديدًا حتى تبلُغَ ذَقَنَهُ. قالَ: فلَهِىَ أشَدُّ كَرَاهيةً للخُرُوجِ مِنَ الجَسدِ مِنَ الوَلَدِ حينَ يخُرجُ مِنَ الرَّحِمِ، فَيْبتَدِرَهَا كُلُّ مَلَكٍ مِنْهُم أَيُّهُم يَقبضُها فيتولى قَبَضَهَا ملكُ الموتِ، ثُم تَلاَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[السجدة: ١١].

فيتلقَاهَا بأكفان بيضٍ يحتضِنُها إليهِ فَلَهُوَ أشَدُّ لُزومًا لها من المرأَةِ إذَا وَلدتها ثُم يُفوحُ مِنهَا ريحٌ أطيبُ من المسكِ فَيستنشقونَ ريحَهَا وَيتَبَاشرُونَ بها.

ويقولون: مرحبًا بالرُّوحِ الطَيبةِ والرُوحِ الطيبِ، اللهُمَّ صلِّ عليه رُوحًا وعلى جسدٍ خَرجَتْ مِنهُ.

قال: فَيصعَدُونَ بهَا ولِلّهِ عزَّ وجلَّ خلْقٌ فِي الهَواءِ لا يَعْلَمُ عُدتهُـم إلا هُـو، فيَفوحُ لَهُم مِنهَا رِيحٌ أطيب مِنَ المِسـكِ، فيُصلُّونَ عَليهَـا ويتباشَـرُونَ ويُفتَـحُ لهم أبوابُ السماءِ فيُصَلِي عَليهَا كُلُّ مَلَكٍ فِي كل سَمَاءٍ تَمُرُ بهم حتّى يُنتَهَى بِهَا بَين يَدَى المَلِكِ الجَبَّارُ، فَيقُولُ الجبَّار جَلَّ جَلالُه: مَرْحَبًا بـالنفسِ الطيبـةِ وبجسدٍ خَرجتْ مِنهُ.

وإذا قال الرب عز وجل للشيء: مَرحَبًا رحَّبَ لَه كُلُّ شيء، ويَذْهَـبُ عَنْـهُ كُلُّ ضِيقٍ.

ثم يقول لهذه النفس الطيبة: أَدْخِلُوهَا الجَنَّةَ وأَروهَا مِنَ الجنَّةِ واعرضُوا عَلَيهـا مَا أعْدَدتُ لَهَا مِنَ الكَرَامَة والنَّعِيم، ثُمَّ اذهَبُوا بِهَـا إلَى الأَرْضِ فإنِّي قَضيـتُ أنِّـى مِنهَا خَلَقتُهم وَفِيهَا أُعِيدُهم وَمِنهَا أُخرجُهُم تَارَةً أُخرَى، فَوَالذِى نفسُ محمدٍ بيـدِه لَهِيَ أَشَدُّ كَرَاهيةً لِلْخُروجِ مِنهَا حِينَ كَانتْ تَخْرُجُ مِنَ الجَسدِ.

وتقول: أينَ تَذهَبونَ بِي إلى ذَلِكَ الجسد الذى كنت فيه؟

قال: فَيقُولُونَ إنَّا مَأمُورونَ بهذَا فَـلا بُـدَّ لَـكَ مِنْـهُ فَيَهْبطُونَ بـهِ عَلَـى قَـدْرِ فَرَاغِهِم مِنْ غُسْلِهِ وَأَكْفَانِه فيُدْخِلُون ذَلِكَ الرُّوحَ بَينَ جَسَدِه وأَكْفَانِه».

فدل هذا الحديث أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان، وهذا عود غير التعلق الذى كان لها فى الدنيا بالبدن وهو نوع آخر غير تعلقها بـه حـال النـوم، وغـير تعلقها به وهى فى مقرها، بل هو عود خاص للمساءلة .

قال شيخ الإسلام: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الـروح إلـى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفـة مـن النـاس وأنكـره الجمهور، وقابلهم آخرون.

فقالوا: السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلـط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كـان ذلـك علـى الـروح فقـط لـم يكـن للقبر بالروح اختصاص .

المسألة السابعة
هل عذاب القبر على النفس والبدن؟

وهذا يتضح بجواب المسألة، وهى قول السائل هل عذاب القبر علـى النفـس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس وهـل يشـارك البـدن النفس فى النعيم والعذاب أم لا؟

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه.

فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة.

تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعـذب متصلـة بـالبدن، والبـدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذه الحال مجتمعين، كمـا تكـون الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبـدن بـدون الـروح؟ هـذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام .

وفى المسألة: أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة و الحديث .

قول من يقول: إن النعيم والعذاب لايكون إلا على الروح، وأن البدن لاينعـم ولا يعـذب. وهـذا تقولـه الفلاسـفة المفكـرون لمعـاد الأبـدان، وهـؤلاء كفــار بإجماع المسلمين، ويقوله كثير مـن أهـل الكـلام مـن المعتزلـة وغـيرهم الذيـن يقرون بمعاد الأبدان، لكن يقولون لايكون ذلك فى البرزخ، وإنمـا يكـون عنـد القيام من القبور، ولكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن فى الـبرزخ فقـط، ويقولـون إن الأرواح هى المنعمة أو المعذبة فـى الـبرزخ، فـإذا كـان يـوم القيامـة عذبـت الروح والبدن معًا. وهـذا القـول قالـه طوائـف مـن المسـلمين مـن أهـل الكـلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم وابن مرة .

هذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة؛ بل هو مضاف إلى قول من يقـول بعذاب القبر بالقيامة، ويثبت معاد الأبدان والأرواح.

ولكن هؤلاء لهم فى عذاب القبر ثلاثة أقوال :

أحدهما: أنه على الروح فقط

والثانى: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها .

الثالث: أنه على البدن فقط، وقد يضم ذلك القول الثانى وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هى الحياة ويجعل الفساد قول منكر عذاب الأبدان، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقا فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة. فالقول الثانى الشاذ، قول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هى الحياة، هذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل .

وقد خالف أصحابه أبو المعالى الجوينى وغيره، بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وأنها منعمة أو معذبة، والفلاسفة الإلهيون يقربون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقربون بمعاد الأبدان لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان. وكلا القولين خطأ وضلال، لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قديوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام .

والقول الثالث الشاذ:

قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه، بناء على أن الروح لاتبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لاينعم ولايعذب، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال فى أمر البرزخ، لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقربون بالقيامة الكبرى .

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة؛ فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن

الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين؛ ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

ونحن نثبت ما ذكرناه:

فأما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة، ومتواترة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

كما فى الصحيحين:

عن ابن عباس: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مر بقبرين فقال: «**إنَّهُما لَيُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير، أمَّا أحَدَهُما فكَانَ لايَسْتبرئ مِنَ البَوْل، وأمَّا الآخَرَ فَكَانَ يَمْشي بالنَّميمَةِ، ثُم دَعا بجريدةٍ رِطْبةٍ فَشَقَّهَا نِصفَين فقَالَ: لعله يُخَفِفُ عَنْهُما مالم يَيْبسَا**»[1].

وفى صحيح مسلم[2]:

عن زيد بن ثابت قال: «**بَينَا رَسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حَائِطٍ لِبَنِى النَّجَار على بَغْلَتِه وَنحنُ مَعُه إذْ حَادتْ به فَكَادتْ تُلقيه، فإذَا أقْبُر ستةً أو خمسةً أو أربعةً.**

فَقَالَ: مَنْ يَعرِفُ أصْحَابَ هَذِه القبور؟

فقَالَ رجل: أنَا.

قال: فمَتَى مَات هَؤُلاء؟

قال: مَاتوا فِي الإشْرَاكِ.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٢١٦)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول (٢٩٢).

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٧٦٧).

فقال: إنَّ هَذِه الأمّةَ تُبتلَى فِى قُبُورِهَا فَلَولا أنْ تَدَافَنُوا لَدَعَوتُ اللَّهَ أنْ يُسْمِعَكُم مِنَ عَذَابِ القَبرِ الذِى أسمَعُ مِنهُ

ثُمَّ أقبَلَ عَلينَا بوَجهه:

فَقَالَ: تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ.

قالُوا: نَعُوذُ بَاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّار.

قَالَ: تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنَ الفِتَنِ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

قَالُوا: نَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَن.

قَال: تَعَوذُوا باللَّهِ مِن فِتْنَةِ الدَّجَّال

قالَوا: نَعُوذُ باللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ » .

فى صحيح مسلم، وجميع السنن:

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إذَا فَرَغَ أحَدُكُم مِنَ التشَهُدِ الأخير، فَلْيَتعَوذْ باللَّهِ مِنْ أربْع: مِنْ عَذَابِ جَهنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبرِ، وَمِنْ فِتنةِ المَحيَا والمَمَاتِ، ومِنْ فِتنةِ المسيحِ الدَّجال»**[1].

وفى صحيح مسلم[2]:

أيضًا وغيره عن ابن عباس: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: **«اللهُمَّ إنِّى أعوذُ بكَ مِنْ عَذابِ جَهنمَّ، وأعوذُ بكَ مِنْ عَذَابِ القبرِ، وأعوذُ بكَ مِنْ فِتنةِ المَحيَا والمَماتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتنةِ المسيحِ الدَّجَالِ»**.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة (٥٨٨)، والترمذى، كتاب: الدعوات، باب: فى الاستعاذة (٣٦٠٤)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يقول بعد التشهد (٩٨٣).

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب:ما يستعاذ منه فى الصلاة (٥٩٠).

وفى الصحيحين[1]:

عن أبى أيوب قال: خرج النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقد وجبت الشمس فسمع صوتا فقال **«يَهُودٌ تُعذَّبُ فِى قُبُورِهَا»** .

وفى الصحيحين[2]:

عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت علىَّ عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت: إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم.

قالت: فكذبتها، ولم أنعم أن أصدقها.

قالت: فخرجت ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقلت: يارسول الله، إن عجوزًا من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم.

قال: «صَدَقَتْ إِنَّهُم يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُه البَهَائِمُ كلُّها».

قالت: فما رأيته بعد صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

وفى صحيح ابن حبان[3]:

عن أم مبشر قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: تعوذوا بالله من عذاب القبر.

فقلت: يارسول الله وللقبر عذاب ؟

قال: «إِنَّهُم لَيُعذَّبُونَ فَى قُبُورِهِم عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ» .

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من عذاب القبر (٦٣٦٦)، ومسلم، كتاب: المساجد، باب: التعوذ من عذاب القبر (٥٨٦).

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر (١٣٧٥)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٦٩).

(٣) الحديث: أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٧/٣٩٥،٣٩٦).

وقال بعض أهل العلم: لهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالإسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام، فإن أصحاب الخيل سمعت عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعا وحرارة تذهب بالمغل .

وقد قال عبد الحق الإشبيلي حدثني الفقية أبو الحكم بن برخان – وكان من أهل العلم والعمل – أنهم دفنوا ميتًا بقريتهم في شرف إشبيليه، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريبًا منهم، فإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع، ثم ولت فارة ثم عادت إلى القبر، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع، ثم ولت فارة، فعلت ذلك مرة بعد أخرى.

قال أبو الحكم: فذكرت عذاب القبر، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّهُم لَيُعذَّبُونَ فِى قُبُورِهِم عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ»** .

ذكر لنا هذه الحكاية ونحن نسمع عليه كتاب مسلم لما انتهى القارىء إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّهُم لَيُعذَّبُونَ فِى قُبُورِهِم عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ»**. وهذا السماع واقع على أصوات المعذبين .

قال هناد السرى في كتاب الزهد: حدثنا وكيع عن الأعمش، عن شقيق، عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت على يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكرت ذلك له.

فقال: «والذِى نَفْسِي بِيَدِهِ إنهُم لَيُعذَّبُون فِى قُبُورِهِم حتَّى تسْمَعُ البَهَائِمُ أَصْوَاتَهُم».

قلت: وأحاديث المساءلة في القبر كبيرة، كما في الصحيحين والسنن .

عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«المُسْلمُ إِذَا سُئِلَ فِى قَبْرِه فَشَهِدَ أَنْ لاإِلَهَ إلا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّـهِ فَذَلِك قَولُ اللهِ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾**[إبراهيم: ٢٧].

وفى لفظ : نزلت فى عذاب القبر «**يقال له من ربك؟**

فيقول: الله ربى، ومحمد نبى.

فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧]» .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولا كما تقدم، وقد صرح فى هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن باختلاف أضلاعه، وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين، وقد روى مثل هذا الحديث عن البراء فى قبض الروح والمساءلة والنعيم والعذاب وأبى هريرة .

وحديثه فى المسند وصحيح أبى حاتم(١):

أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **إنَّ الميتَ إذَا وضِعَ فِى قَبره أنَّه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهم حِيَن يُولُّونَ عَنهُ، فإنْ كانَ مُؤمنًا كانَت الصلاةُ عِندَ رَأسِهِ والصيامُ عَن يَمِينه والزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ وَكَانَ فعلُ الخيراتِ مِن الصدقةِ والصِّلَةِ والمعروفِ والإحسانِ عندَ رِجْليهِ، فيُؤْتَى مِن قِبَل رَأْسِه**

فتقول الصلاة: ماقِبَلِي مَدْخَلٌ.

ثُم يُؤتَى مِن يَمنيه فيقولُ الصيامُ؟ ما قِبَلِى مَدْخلٌ.

ثُمَّ يُؤتَى عَنْ يَسَاره فتقولُ الزكاةُ: مَا قَبلِى مدخلٌ.

ثُمَّ يُؤتَى مِنْ قِبلِ رِجْليهِ فيقولُ فِعْلُ الخَيَراتِ مِنَ الصَدَقَةِ والصِّلَةِ والمعروفِ والإحسانِ: مَاقَبلى مَدْخَلٌ.

فيقال له: اجلِسْ فَيَجْلِسُ قَدْ مَثلت له الشمسُ، وقَدْ أخذَتْ للغُرُوب.

فيقال له: هذا الرجلُ الذِى كَانَ فِيكُم ما تقولُ فِيهِ، وماذَا تشهَدُ به عليهِ؟

فيقولُ: دَعُونى حتّى أُصَلِّى.

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد (٣٤٧/٢) مختصرًا، وابن حبان فى صحيحه (٣٨٠/٧-٣٨٢).

فيقولون: إنَّكَ ستُصَلِّى أَخبِرْنَا عَمَّا نَسأَلُكَ عَنْهُ، أرَأَيْتكَ هَذَا الرجُلَ الذِى كانَ فِيكم مَا تقولُ فِيهِ ومَا تَشهدُ عَليهِ؟

فيقولُ: محمدٌ أشْهدُ أنهُ رسولُ اللَّهِ جَاءَ بالحقِّ من عند اللَّهِ.

فيُقَالُ له: على ذَلِك حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ وعَلَى ذَلِك تُبعَثُ إن شاءَ اللَّهُ.

ثم يُفتحُ له بَابٌ إلى الجنَّةِ فيُقَالُ لَه: هَذَا مِقْعَدُكَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فيَزْدَاد غِبطةً وسرورًا ثُم يُفسحُ لـه قُبرُه سَبعُونَ ذراعًا ويُنـوَّرُ لَـهُ فِيـهِ ويُعَادُ الجسد لما بُدِئ مِنهُ وتجعل نِسمتُه فِي النَّسيمِ الطَّيب وَهِى طيرٌ معُلقٌ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ.

قال: فَذَلِك قَولُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ وذكر الكافر ضـد ذلـك إلـى أن قـال: ثُمَّ يُضيقَ عَلَيهِ فِي قَبره إلى أن تَختَلفَ فِيهِ أضْلاعُه فَتِلكَ المِعيشَةُ الضَنْكُ الَّتِى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه: ١٢٤].

وفى الصحيحين[1]:

من حديث قتادة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ المَيتَ إذَا وُضِعَ فى قَبرْه وَتَوَلَّى عَنهُ أَصحَابُهُ، إنه ليسمعُ خفقَ نِعَالِهم، وأتَاهُ مَلَكَان فَيُقْعِدَانِه فيقولان له: ماكنتَ تقولُ فِى هذَا الرجلِ مُحمدٍ؟

فأما المؤمن فيقول: أشْهَدُ أنَّهُ عَبْد اللَّهِ وَرَسُوله.

قال فيقول: انظُرْ إلَى مِقْعَدِكَ مِنَ النَّار قَدْ أَبْدَلَك اللَّهُ به مِقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا».

قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويُملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون.

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (١٣٣٨)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٠).

ثم رجع إلى حديث أنس: فأما الكافر والمنافق فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل .

فيقول: لاأدرى كنت أقول ما يقول الناس.

فيقولان: لادريت ولاتليت.

ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين.

وفى صحيح أبى حاتم[1]:

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذَا قُبرَ أَحَدُكُم أو الإنسانُ أتَاه مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ، أَزْرَقَانِ يُقَالُ لأحَدَهِمَا: الُمنْكَرِ وللآخَر النَّكيرُ .**

فَيَقُولان لَهُ: مَاكنتَ تَقولُ فِى هَذَا الرَّجُلِ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فهو قَائِلُ مَا كَانَ يَقُولُ.

فَإنْ كَانَ مُؤْمِنًا قالَ: هُوَ عَبدُ اللّهِ ورَسُوله أشْهَدُ أنْ لاإلهَ إلا اللّهِ وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورَسُولُه.

فَيَقُولان لَهُ: إنْ كُنَّا لَنَعلَمُ أنَّكَ تَقولُ ذَلِكَ، ثم يُفسحُ لَهُ فِى قَبرِه سَبعُون ذِرَاعًا فِى سَبْعِينَ ذِراعًا وَيُنَوَّر له فِيه.

ويُقَالُ لَهُ: نَمْ.

فيقولُ: أرْجِعُ إلَى أهْلِى ومَالِى فَأُخْبِرُهُم.

فيقولان: نَم كَنَوْمةِ العَرُوسِ الذِى يُوقِظُه إلا أَحَبُّ أَهْلِه إلَيهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللّهِ مِنْ مَضْجَعِه ذَلِك.

وإنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: لاأدْرِى كُنتُ أسمعُ النَاسَ يقُولونَ شيئًا، فكُنتُ أقُولُه، فَيقُولان له: كُنَّا نَعْلَمُ إنَّكَ تَقُول ذَلِكَ ثُمَّ يُقَالُ لِلأرْضِ التئِمى عَلَيهِ

---

(١) الحديث: أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٨٦/٧، ٣٨٧).

فَتَلْتَئِم عَلَيهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلاعُـه فَلا يَـزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّـى يَبْعَثَـه اللَّـهُ مِـنْ مَضْجَعِه ذَلِكَ».

وهذا صريح أن البدن يعذب .

وعن أبي هريرة: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ ملائِكَةُ الرَّحْمَةِ بحَريرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوح الطَّيِّبَةُ رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْـكِ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَتَخْرُجُ، كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاء.**

فَيَقُولُونَ مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحِ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الأَرْض: فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بغَائِبِهِ يَقْدُمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ؟ قال: **فَيَقُولُونَ دَعُوهُ يَسْتَرِحْ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ .**

فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُم فيقولون: إنه ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ.

وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ ملائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الأَرْضِ.

فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ»[1]. رواه النسائى والبزار ومسلم مختصرا .

واخرجه ابو حاتم فى صحيحه[2]:

قال: «إِنَّ المؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الموتُ حضرَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، فَإِذا قُبِضَ جُعِلَتَ روحه فى حريرة بَيْضَاءَ فَيَنْطَلِقُ بهَا إِلَى بَابِ السَّمَاءِ.

فَيَقُولُونَ: مَا وَجَدْنَا رِيحًا أطيبَ مِنْ هَذِه.

---

(١) الحديث: أخرجه النسائى، كتاب: الجنائز، باب: ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (١٨٣٣)، ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٢).

(٢) الحديث: أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢٨٣/٧).

فَيَقَالُ: مَا فَعَل فُلانٌ؟ مَا فَعَلَتْ فُلانَةُ؟

فيقال: دعوه يسترح، فإنَّه كانَ فِى غَمَّ الدُّنْيَا» .

وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض فتقول خزنة الأرض: ماوجدنا ريحا أنتن من هذه، فيبلغ بها إلى الأرض السفلى .

وروى النسائى فى سننه[1]:

من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«هَذَا الذّى تَحَرَّكَ لَهُ العرشُ، وفُتِحَت أبواب السَّماءِ وشَهِدَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الَمَلائِكَةِ، وَلَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ».**

قال النسائى: يعنى سعد بن معاذ .

وروى من حديث عائشة رضى الله منها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لِلْقَبرِ ضَغْطَةٌ لَوْ نَجَا مِنْهَا أحدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بنُ مُعَاذ»**[2]. رواه من حديث شعبة .

وقال هناد بن السرى: ثنا محمد بن فضل، عن أبيه، عن ابن أبى مليكة قال:

«ما أُجيرُ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ أَحَدٌ وَلا سَعْدُ بنُ مَعَاذ، الذِى مِنْدِيلٌ مِنْ مَنَادِيلِه خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيهَا»

قال: وحدثنا عبدة، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع قال: لقد بلغنى أنه شهد جنازة سعد بن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط، ولقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لَقَدْ ضُمَّ صَاحِبُكُم فى القبر ضمة».**

قال على بن معبد: ثنا عبيد الله، عن زيد بن أبى أنيسة، عن جابر، عن نافع، قال: أتينا صفية بنت أبى عبيد؛ امرأة عبد الله بن عمر، وهى فزعة، فقلنا: ما شأنك؟

فقالت: جئت من عند بعض نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الحديث: أخرجه النسائى، كتاب: الجنائز، باب: صفة القبر وضغطته (٢٠٥٥).

(٢) الحديث: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥٥/٦).

قالت: فحدثني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**إِنْ كُنتُ لأَرَى لَوْ أَنَّ أَحَدًا أُعْفِيَ مِنْ عَذَابِ القَبرِ لعُفِيَ مِنْهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذ لَقَدْ ضُمَّ فِيهِ ضَمَّةً**».

وحدثنا مروان بن معاوية، عن العلاء بن المسيب، عن معاوية العبسي، عن زاذان ابن عمرو.

قال: لما دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنيه جلس عند القبر فتربد وجهه ثم سرى عنه.

فقال له أصحابه: رأينا وجهك آنفا، ثم سرى عنك.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ذَكَرتُ ابنَتِي وضَعْفَهَا وعَذَابَ القَبرِ فدَعَوتُ اللَّهِ فَفَرَّجَ عَنْهَا، وايْمُ اللَّهِ لَقَدْ ضُمَّت ضَمَّةً سَمِعَهَا مَنْ بَيْنَ الخَافقَين**».

وحدثنا شعيب عن ابن دينار، عن إبراهيم الغنوى، عن رجل.

قال: كنت عند عائشة رضى الله عنها فمرت جنازة صبى صغير فبكت.

فقلت لها: ما يبكيك يا أم المؤمنين؟

فقالت: هذا الصبى بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .

ومعلوم أن هذا كله للجسد بواسطة الروح .

وهذا كما أنه مقتضى السنة الصحيحة فهو متفق عليه بين أهل السنة.

قال المروزى: قال أبو عبد الله: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل .

وقال حنبل: قلت لأبى عبد الله فى عذاب القبر.

فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها كلها جاءت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بإسناد جيد، أقررنا به، إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعناه رددناه ردنا على الله أمره.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ [الحشر: ٧].

قلت له: وعذاب القبر حق؟

قال: حق يعذبون فى القبور.

قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير، وأن العبد يسأل فى قبره ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]. فى القبر.

وقال أحمد بن القاسم قلت: يا أبا عبد الله نقر بمنكر ونكير، وما يروى فى عذاب القبر.

فقال: سبحان الله نعم، نقر بذلك ونقوله.

قلت: هذه اللفظة تقول منكر ونكير هكذا أو نقول ملكين.

قال: منكر ونكير.

قال: هو هكذا. يعنى أنهما منكر ونكير .

وأما أقوال أهل البدع والضلال، فقال أبو الهذيل والمريسى: من خرج عن سمة الإيمان، فإنه يعذب بين النفختين، والمسألة فى القبر إنما تقع فى ذلك الوقت.

وأثبت الجبائى وابنه والبلخى عذاب القبر، ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم.

وقال كثير من المعتزلة: لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير، وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين له .

وقال الصالحى: والصحيح أن عذاب القبر يجرى على المؤمن من غير رد الأرواح إلى الأجساد، والميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم بلا روح، وهذا قول جماعة من الكرَّامية.

وقال بعض المعتزلة: إن الله سبحانه يعذب الموتى فى قبورهم، ويحدث فيهم الآلام وهم لايشعرون، فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها.

قالوا: وسبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام، فإذا عاد إليهم العقل أحسوا بألم الضرب.

وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأسا، مثل ضرار بن عمرو ويحيي بن كامل وهو قول المريسى فهذه أقوال أهل الحيرة والضلالة .

ومما ينبغي أن نعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ:

فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه بدونه من العذاب ما يصل إلى القبور.

وفي صحيح البخاري[1]:

عن سمرة بن جندب قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: مَنْ رَأَى مِنكُم الليلةَ رُؤيَا؟

قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول: ماشاء الله. فسألنا يوما

فَقَالَ: « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟

قُلْنَا: لا.

قَالَ: لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي وأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُدْخِلُهُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ.

قُلْت: مَا هَذَا؟ قَالا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِصَخْرَةٍ فِهر فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ.

قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

قَالا: انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعلاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَار فَإِذا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ فَيَأْتِيهِمُ اللَّهَبُ مِنْ تحتهم، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارتفعُوا حَتَّى كَادُوا يخرجوا فَإِذا خَمَدَتْ رَجَعُوا.

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز (١٣٨٦).

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

قَالا: انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَرَجَعَ كَمَا كَانَ.

فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟

قَالا: انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ وَأَدْخَلانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ ثُمَّ صَعِدَا بِي فَأَدْخَلانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ،

قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ،

قَالا: نَعَمْ الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ كَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَأَمَا الَّذِي رَأَيْتَ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ.

وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ فَآكِلِ الرِّبَا،

وأَمَّا وَالشَّيْخُ الَّذِى فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ فَإِبْرَاهِيمُ وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلادُ النَّاسِ، وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَالدَّارُ الأُولَى دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ فَارْفَعْ رَأْسَكَ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا قصدٌ مِثْلُ السَّحَابَةِ.

قَالا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ .

قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي.

قَالا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَو اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»

وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى مطابق لما فى نفس الأمر.

وقد ذكر الطحاوى: عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أُمِرَ بعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أنْ يُضرَبَ فِي قَبره مِائَةُ جَلْدةٍ فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ اللَّهَ وَيَدْعُوه حتَّى صَارَتْ وَاحِدةٌ فامتلاء قبره عَلَيهِ نارًا فلمَّا ارتفع عنه أفاق**

فقال: على ما جلدتمونى.

قالوا: إنك صليت صلاةً بغِير طَهُورٍ ومَرَرْت عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ» .

وذكر البيهقى حديث الربيع بن أنس[1]:

عن أبى العالية عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الآية: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾[الإسراء: ١]. إلا أنه قال: «**أُتِيَ بفَرَسٍ فجُعِلَ عَلَيه– قَالَ: كُلُّ خُطوةٍ مُنتَهَى أقَصَى بَصَرِه– فسَارَ وَسَارَ مَعَهُ جبْرِيلُ، فأتَى عَلَى قَومٍ يزرعُونَ فى يومٍ ما يحصدونَ فى يومٍ، كُلَّمَا حصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ.**

فقال: يا جبريلُ، من هؤلاء؟

قال: المهاجرون في سبيل الله يضاعف لهم الحَسنة بسبعمائة، ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُه وهو خير الرازقين﴾.

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَومٍ تُرضَخُ رُؤوسهُمْ بِالصَّخْرَة كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَت كَمَا كَانَتْ لايُفَتَّرُ عنهُم شَيءٌ مِنْ ذَلِك.

قال: ياجبريلُ مَنْ هؤلاء؟

قال: الذِينَ تتثاقل رُؤوسهم عَنِ الصَّلاَةِ .

قَالَ: ثُم أُتِي عَلَى قَومٍ على أَقْبالِهِم رِقَاع وعلى أدْبَارِهِم رِقاع يَسْرَحُون كما تَسْرُح الأنعامُ على الضَّريعِ والزقُّوم، ورضْفِ جَهَنَّم وحِجَارتِها .

---

(١) الحديث: أخرجه الطبرى فى تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية [الإسراء:١]، وعزاه الهيثمى فى المجمع، كتاب: الإيمان، باب: منه فى الإسراء (٢٣٥). وزاد السيوطى عزوه فى الدر لابن نصر المروزى فى الصلاة وأبى يعلى وابن مردويه وابن أبى حاتم والبيهقى.

قال: ما هؤلاء يا جبريلُ ؟

قال: هؤلاء الذينَ لا يُؤدُّون صَدَقاتِ أموالِهِم وما ظَلَمَهُم اللّهُ وما اللّهُ بظلامٍ للعبيدِ.

ثمَّ أتَى على قومٍ بينَ أيديهِم لحم مِنْ قِدْرٍ نضيجٍ ولحمٍ آخَر خبيثٍ، فَجُعِلُوا يأكُلونَ مِنَ الخَبيث وَيَدعُونَ النضيجَ الطَّيب.

فقال: يا جبريلُ مَنْ هؤلاء؟

قال: هذَا الرَّجُلُ يقومُ- وَعِنْدَه امرأة حلالاً طيِّبًا- فيأتِي المرأةَ الخبيثةَ فَتَبيتُ معَهُ حتى تصْبحَ.

ثمَّ أتَى عَلَى خَشَبَةٍ على الطَّريق لا يمرُّ بها شيءٌ إلا قَصَفَتْهُ.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[الأعراف: ٨٦].

ثم مَرَّ على رجلٍ قَدْ جَمَعَ حزْمَةً عظيمَةً لا يَسْتَطيعُ حَمْلَها وهو يُريدُ أنْ يزيدَ عليها.

قال: يا جبريلُ ما هذا؟

قال: هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها.

ثم أتى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء .

قال: يا جبريل مَنْ هؤلاء.

قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثمَّ أتَى على حَجَرٍ صغيرٍ يَخْرُجُ منهُ نورٌ عظيمٌ فجَعَلَ النُّور يريد أن يَدْخُلَ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ ولا يَسْتَطيعُ.

قال: ماهذا يا جبريلُ؟

قَالَ: هذَا الرَجُلُ يتَكلمُ بالكلِمةِ فيندَمُ عليها فيريدُ أن يَردَّها فلا يَسْتطِيع»، وذكر الحديث.

وذكر البيهقي، أيضا في حديث الإسراء:

من رواية أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فَصَعَدْتُ أَنَا وَجِبْرِيلُ فَاستَفْتَحَ جبريلُ فَإذَا بآدَمَ كهيئَتِهِ يَومَ خَلَقَهُ اللّهُ عَلَى صُورَتِهِ تُعْرَضُ عَلَيهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيتِهِ المُؤْمِنِينَ فيقُولُ: روحٌ

طيبةٌ وَنَفسٌ طيبةٌ اجْعَلُوهَا فِي عليينَ. ثمَّ تُعرضُ عليهِ أرْواحُ ذُرِّيتهِ الفُجَّارِ فَيقُولُ: روحٌ خبيثةٌ ونفسٌ خبيثةٌ اجْعَلُوهَا فِي سِجّينَ، ثم مَضَيتُ هنيهَةً فإذَا أنَا بأخْونةٍ عَلَيْهَا لحمٌ مشرّحٌ ليس يقْربهَا أحدٌ، وَإذَا بأخْونَةٍ أخرى عَلَيها لحمٌ قد أرْوَحَ وَنَتِنَ وَعِنْدَهَا ناسٌ يَأكُلُونَ مِنْهَا.

قُلْتُ: يَا جبريلُ مَنْ هَؤُلاء؟

قَال: هؤلاء يَتْرُكُونَ الحَلاَلَ وَيَأتُونَ الحرامَ.

قال: ثمَّ مَضَيتُ هنيهَةً فإذَا أنَا بأقوامٍ بطونهم أمْثَالُ البيوتِ كُلَّمَا نَهَضَ أحَدُهُم خَرَّ يَقُول: اللّهُم لا تُقِم السَّاعَة.

قال: وهُمْ عَلَى سابلَةِ آل فِرْعَوْن.

قال: فتجيءُ السَّابلَةُ فتطؤُهُم فيصيحُونَ.

قلت: يا جبريلُ من هؤلاء؟

قال هؤلاء: الذينَ يأكُلُونَ الربَا لا يَقُومُونَ إلاَّ كَما يقومُ الذى يَتَخبطُهُ الشيطانُ من المسِّ.

قَالَ: ثُم مَضَيتُ هنيهةً فإذَا أنا بقومٍ مشَافِرُهُم كَمَشَافِرِ الإبلِ فَتَفْتَحُ أفْوَاهَهَم فيُلْقَمُونَ الجَمْرُ. ثم يَخْرُج من أسَافِلِهم فَسَمِعْتُهُم يَصيحُونَ.

قلتُ: مَنْ هَؤُلاء؟

قال: الذينَ يَأكُلَون أموالَ اليَتَامَى ظُلْمًا. ثُمَّ مَضَيتُ هنيهَةً فإذا أنا بنساءٍ معلقاتٍ بثديهنَّ فَسَمِعْتُهُن يَصِحْنَ.

قلت: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء الزَوَانِي.

ثمَّ مَضَيْتُ هَنيهَةً فإذا أنَا بقومٍ يُقَطَّعُ من جُنُوبهم اللحْمُ فَيُلْقَمُونَ.

فيقالُ: كُلْ كَمَا كُنْتَ تَأكُلُ مِنْ لَحْمِ أخيكَ.

قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاء؟

قال: الهمَّازُونَ من أمَّتِكَ». وذكر الحديث بطوله.

وفى سنن أبى داود[1]:

من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لما عُرِجَ بِى مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لهمْ أظْفَارٌ مِنْ نحاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُم وَصُدُورَهُم.**

فَقُلتُ يا جبريلُ: مَن هؤلاء ؟

قال: الذينَ يَأكُلونَ لحومَ الناسِ وَيَقعُونَ فِى أعْرَاضِهِم» .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده[2]:

حدثنا شعبة عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى على قبرين فقال: **«إنَّهُمَا لَيُعَذَّبَان فِى غَيْرِ كَبير، أمَّا أحَدَهُمَا فَكَانَ يَأكُلُ لحومَ النَّاس، وَأمَّا الآخَرَ فَكَانَ صاحِبَ نميمةٍ، ثُمَّ دَعَا بجريدةٌ فَشَقَّهَا نِصْفَين فَوَضَعَ نِصْفَهَا عَلَى هَذَا القبرِ وَنِصْفَها على هَذَا القَبْرِ.**

وقالَ: عَسَى أن يُخفِّفَ عَنْهُمَا مَادَامَتَا رَطْبَتَين» .

وقد اختلف الناس فى هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين.

فقيل: كانا كافرين.

وقوله: وما يعذبان فى كبير يعنى بالإضافة إلى الكفر والشرك.

قالوا: ويدل عليه أن العذاب لم يرتفع عنهما وإنما خفف وأيضا فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط، وأيضا فإنهما لو كانا مؤمنين أشفع فيهما ودعا لهما النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرفع عنهما بشفاعته، وأيضا ففى بعض طرق الحديث أنهما كانا كافرين، وهذا التعذيب زيادة على تعذيبهما بكفرهما وخطاياهما، وهو دليل على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعًا، وهذا اختيار أبى الحكم بن برخان.

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: فى الغيبة (٤٨٧٨).

(٢) الحديث: عزاه المتقى الهندى فى الكنز (٥٩١/٣) إلى الطبرانى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

وقيل: كانا مسلمين لنفيه صلى الله عليه وآله وسلم التعذيب بسبب غير السببين المذكورين.

ولقوله: وما يعذبان فى كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الإطلاق ولا يلزم أن يشفع النبى صلى الله عليه وآله وسلم لكل مسلم يعذب فى قبره على جريمة من الجرائم، فقد أخبر عن صاحب الشملة الذى قتل فى الجهاد أن الشملة تشتعل عليه نارًا فى قبره، وكان مسلمًا مجاهدًا ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة.

وهى قوله: وكانا كافرين، ولعلها لو صحت وكلا فهى من قول بعض الرواة والله أعلم،وهذا اختيار أبى عبد الله القرطبى .

المسألة الثامنة
ما جوابنا لمنكري عذاب القبر؟

وأما المسألة الثامنة[1] وهي قول السائل: ما جوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته و ضيقه وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه ؟

قالوا: فإننا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميًا صمًا يضربون الموتى بمطارق من حديد، ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيران تتأجج، ولو كشفنا حالة في حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير، ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لوجدناه على حاله، وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه، ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص، وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه.

قال إخوانهم من أهل البدع و الضلال: وكل حديث يخالف مقتضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائله .

قالوا: و نحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه نارًا، ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان، ومدارج الرياح، كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها؟ وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه؟ وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار؟ وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه؟

ونحن نذكر أمورًا يعلم بها الجواب.

---

(١) على حسب ترتيب الإمام ابن قيم تكون هذه هي المسألة السابعة، ولكن بالتتبع تكون المسألة الثامنة، فأردنا إثبات الترتيب الخاص بالكتاب.

الأمر الأول:

أن يعلم: أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، لم يخبروا بما تستحيله العقول، وتقطع باستحالته، بل إخبارهم قسمان:

أحدهما: ما تشهد به العقول والفطن.

والثاني: ما لا تدركه العقول بمجردها، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب، ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً، وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون الخبر كذبًا عليهم، أو يكون ذلك العقل فاسدًا، وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح.

قال تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[سبأ: ٦].

وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾[الرعد:١٩].

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ**﴾[الرعد: ٣٦]. والنفوس لا تفرح بالمحال.

وقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾[يونس: ٥٧، ٥٨].

والمحال لا يشفى ولا يحصل به هدى ولا رحمة ولا يفرح به. فهذا أمر من لم يستقر فى قلبه خير ولم يثبت له على الإسلام قدم، وكان أحسن أحواله الحيرة والشك.

الأمر الثاني:

أن يفهم: عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده، وما قصده من

الهدى والبيان. وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام، بل هو أصل كل خطأ فى الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد فيتفق سوء الفهم فى بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع، فيا محنة الدين وأهله والله المستعان.

وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله، حتى صار الدين بأيدى أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام، والذى فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور، لا يلتفت إليه، ولا يرفع هؤلاء به رأسًا. ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها، فإنا لو ذكرناها لزادت على عشرة ألوف، حتى إنك لتمر على الكتاب من أوله إلى آخره فلا تجد صاحبه فهم عن رسول الله مراده، كما ينبغى فى موضع واحد، و هذا إنما يعرفه من عرف ما عند الناس وعرضه على ما جاء به الرسول، وأما من عكس الأمر بعرض ما جاء به الرسول على ما اعتقده وانتحله، وقلد فيه من أحسن به الظن فليس يجدى الكلام معه شيئًا، فدعه، وما اختار لنفسه ووله ما تولى، واحمد الذى عافاك مما ابتلاه به.

الأمر الثالث:

أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثًا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعًا لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا، فتألمت بألمها، التذت براحتها، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح فى نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة، والأبدان خفية فى قبورها

تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيما أو عذابا، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيمًا أو عذابًا، فأحط بهذا الموضع علمًا واعرفه كما ينبغى يزيل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج، وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا فى الدنيا من حال النائم، فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه يجرى على روحه أصلاً، والبدن تبع له، وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرًا مشاهدًا، فيرى النائم فى نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب فى جسمه، ويرى أنه قد أكل وشرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه، ويذهب عنه الجوع والظمأ، وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم من نومه ويضرب ويبطش، ويدافع كأنه يقظان، وهو نائم لا شعور له بشئ من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع، فهكذا فى البرزخ بل أعظم، فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا أصلاً، ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، مطابق للعقل، وأنه لامرية فيه، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتِىَ.

كما قيل:

وَ كَمْ مِنْ عائِبٍ قَولاً صَحِيحًا　　و آفَتُه مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين فى فراش واحد وهذا روحه فى النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه. وهذا روحه فى العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه. وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر، فأما البرزخ أعجب من ذلك.

الأمر الرابع:

أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيبًا، وحجبها عن إدراك المكلفين فى هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر و تجلس قريبًا منه ويشاهدهم عيانًا، ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط، إما من الجنة وإما من النار، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بإشارته وتارة بقلبه، حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة .

وقد سمع بعض المحتضرين يقول: أهلاً و سهلاً ومرحبًا بهذه الوجوه .

وأخبرنى شيخنا عن بعض المحتضرين - فلا أدرى أشاهده أو أخبره عنه -

أنه سُمِعَ و هو يقول: عليك السلام ها هنا فاجلس، وعليك السلام ها هنا فاجلس.

وقصة خير النساج رحمة الله مشهورة.

حيث قال عند الموت: اصبر عافاك الله، فإن ما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت، ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى.

ثم قال: امض لما أمرت به، ومات.

وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان فى يومه الذى مات فيه.

قال: أجلسونى فأجلسوه.

فقال: أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ثلاث مرات، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحد النظر.

فقالوا: إنك لتنظر نظرًا شديدًا يا أمير المؤمنين.

فقال: إنى لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض.

وقال مسلمة بن عبد الملك: لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده فى قبة، فأومأ إلينا أن اخرجوا، فخرجنا فقعدنا حول القبة وبقى عنده وصيف

فسمعناه يقرأ هذه الآيه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣] .

ما أنتم بإنس و لا جان، ثم خرج الوصيف فأومأ إلينا أن ادخلوا فدخلنا فإذا هو قبض.

وقال فضالة بن دينار: حضرت محمد بن واسع وقد سجى للموت، فجعل يقول: مرحبًا بملائكة ربى ولاحول ولا قوة إلا بالله، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها ثم شخص ببصره، فمات .

والآثار فى ذلك أكثر من أن تحصر وأبلغ، ويكفى من ذلك كله قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَ تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة: ٨٣-٨٥].

أى أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا، ولكنكم لا ترونهم، فهذا أول الأمر وهو غير مرئى لنا ولا مشاهد، وهو فى هذه الدار، ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها، والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه، ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه، ثم تصعد بين سماطين من الملائكة والحاضرون لا يرونهم. ثم تأتى الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله.

وتقول: قدمونى قدمونى أو إلى أين تذهبون بى ؟ ولا يسمع الناس ذلك. فإذا وضع فى لحده وسوى عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص، لم يمنع وصول الملائكة إليه، فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها، بل الجن لا يمنعها ذلك، بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير، واتساع القبر وانفساحه للروح بالذات والبدن تبعًا، فيكون البدن فى لحد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعًا لروحه، وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى فلا يرده حس ولا عقل ولا فطرة،

ولو قدر أن أحدًا نبش عن الميت فوجد أضلاعه كما هى لم تختلف لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها بعد عصرة فليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول.

ولقد أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثه أقبر فلما أفرغ منها اضطجع ليستريح فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلا فوقفا على أحد القبرين.

فقال أحدهما لصاحبه: أكتب فرسخًا فى فرسخ، ثم وقفا على الثاني.

فقال: اكتب ميلاً فى ميل.

ثم وقفا على الثالث.

فقال: اكتب فترًا فى فتر، ثم انتبه فجىء برجل غريب لا يؤبه له فدفن فى القبر الأول، ثم جىء برجل آخر فدفن فى القبر الثاني، ثم جىء بامرأة مترفة، من وجوه البلد حولها ناس كثير فدفنت فى القبر الضيق، الذى سمعه يقول: فترًا فى فتر.

والفتر: ما بين الإبهام والسبابة.

الأمر الخامس:

أن النار التى فى القبر، والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا، فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها، وإنما هى من نار الآخرة وخضرها وهى أشد من نار الدنيا، فلا يحس به أهل الدنيا فإن الله سبحانه يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التى عليه وتحته حتى يكون أعظم حرًا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا فى حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره، وذلك فى روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله من آيات قدرته فى هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علمًا إلا من وفقه الله وعصمه، فيفرش للكافر لوحان من نار فيشعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور، فإذا شاء الله سبحانه أن يطلع على ذلك بعض عبيده أطلعه وغيبه عن غيره، إذ لو اطلع العباد كلهم لزالت كلمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس.

كما فى الصحيحين[1] :

عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«لَوْلاَ أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَسْمَعَكُم مِن عَذَابِ القَبْرِ مَا أَسْمَعُ»** .

ولما كانت هذه الحكمة منفية فى حق البهائم، سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بلغته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب فى قبره.

وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان.

قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور، فإذا بقبر منها وهو جمرة من نار مثل كوز الزجاج، والميت فى وسطه، فجعلت أمسح عيني.

وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة.

وقلت: والله ما أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش، فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس قد توفى ذلك اليوم، فرؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانًا لمن شاء الله أن يريه ذلك.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور:

عن الشعبى أنه ذكر رجلاً قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم: مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة حتى يغيب فى الأرض، ثم يخرج فيفعل به ذلك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ذَلِكَ أَبُو جَهْل بن هِشَام يُعَذَّبُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»** .

وذكر من حديث حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سالم بن عبدالله عن أبيه قال: بينما أسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب إداوة، إذا مررت بمقبرة فإذا رجل خارج من قبره يلتهب نارًا وفى عنقه سلسلة يجرها.

---

(١) تقدم تخريجه.

فقال: يا عبد الله انضح، يا عبد الله انضح، فوالله ما أدرى أعرفنى باسمى أم كما تدعو الناس.

قال: فخرج آخر.

فقال: يا عبد الله لا تنضح يا عبدالله لا تنضح ثم اجتذب السلسلة فأعاده إلى قبره.

قال ابن أبى الدنيا:

وحدثنى أبي، ثنا موسى بن داود، ثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: بينما راكب يسير بين مكة والمدينة، إذ مر بمقبرة فإذا رجل خرج من قبر يلتهب نارًا مصفدًا فى الحديد.

فقال: يا عبد الله انضح يا عبد الله انضح.

قال: وخرج آخر يتلوه.

فقال: يا عبد الله لا تنضح، يا عبد الله لاتنضح.

قال: وغشى على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج.

قال: وأصبح قد ابيض شعره فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده.

وذكر من حديث سفيان، ثنا داود بن شابور، عن أبى قزعة.

قال: مررنا فى بعض المياه التى بيننا وبين البصرة فسمعنا نهيق حمار.

فقلنا لهم: ما هذا النهيق؟

قالوا: هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشئ فيقول لها نهقى نهيقك، فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة.

وذكر أيضًا: عن عمرو بن دينار قال كان الرجل من أهل المدينة وكانت له أخت فى ناحية المدينة، فاشتكت وكان يأتيها يعودها ثم ماتت فدفنها فلما رجع ذكر أنه نسى شيئًا فى القبر كان معه، فاستعان برجل من أصحابه.

قال: فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع.

فقال الرجل: تنح حتى أنظر على أى حال أختي، فرفع بعض ما على اللحد فإذا بالقبر مشتعل نارًا فرده و سوى القبر، فرجع إلى أمه.

فقال: ما كان حال أختي؟

فقالت: ما تسأل عنها وقد هلكت؟

فقال: لتخبريني.

فقالت: كانت تؤخر الصلاة ولا تصلي فيما أظن بوضوء، وتأتي أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهم وتخرج حديثهم.

وذكر عن حصين الأسدى قال: سمعت مرثد بن حوشب.

قال: كنت جالسًا عند يوسف بن عمر وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد.

فقال له يوسف: حدث مرثدًا بما رأيت؟

فقال: كنت شابا قد أتيت هذه الفواحش، فلما وقع الطاعون قلت أخرج إلى ثغر من هذه الثغور، ثم رأيت أن أحفر القبور، فإنى لليلة بين المغرب والعشاء قد حفرت قبرًا وأنا متكئ على تراب قبر آخر إذ جئ بجنازة رجل حتى دفن فى ذلك وسووا عليه، فأقبل طائران أبيضان من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، ثم أثاراه ثم تدلى أحدهما فى القبر والآخر على شفيره، فجئت حتى جلست على شفير القبر، وكنت رجلاً لا يملئ جوفى فى شيء.

قال: فسمعته يقول: ألست الزائر أصهارك فى ثوبين ممصرين تسحبهما كبرًا تمشى الخيلاء.

فقال: أنا أضعف من ذلك.

قال: فضربه ضربه امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهنًا، ثم عاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات، كل ذلك يقول ذلك، و يذكر أن القبر يفيض ماء ودهنًا.

قال: ثم رفع رأسه فنظر إلى.

فقال: انظر أين هو جالس بلسه الله.

قال: ثم ضرب جانب وجهى فسقطت فمكثت ليلتى حتى أصبحت، قال ثم أخذت أنظر إلى القبر فإذا هو على حاله.

فهذا الماء والدهن فى رأى العين وهو نار تأجج للميت.

كما أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم، عن الدجال: «**أنَّهُ يَأْتِى مَعَـهُ بمـاءٍ و نار، فالنَّارُ ماءٌ باردٌ و الماءُ نَارُ تَأَجَّج**»[1].

وذكر ابن أبى الدنيا:

أن رجلاً سأل أبا إسحاق الفزارى عن النباش هل له توبة؟

فقال: نعم، إن صحت نيته، وعلم الله منه الصدق.

فقال له الرجل: كنت أنبش القبور وكنت أجد قومًا وجوههم لغير القبلة فلم يكن عند الفزازى فى ذلك شئ فكتب إلى الأوزاعى يخبره بذلك.

فكتب إليه الأوزاعي: تقبل توبته إذا صحت نيته، وعلم الله الصدق من قلبه، وأما قوله إنه كان يجد وجوههم لغير القبلة فاولئك قوم ماتوا على غير السنة.

وقال ابن أبى الدنيا:

حدثنى عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسي.

أنه قيل لنباش قد تاب: ما أعجب ما رأيت؟

قال: نبشت رجلاً.

قال: فإذا هو مسمر بالمسامير فى سائر جسده ومسمار كبير فى رأسه، وآخر فى رجليه.

قال: وقيل لنباش آخر: ما أعجب ما رأيت؟

قال: رأيت جمجمة إنسان مصبوب فيها رصاص.

قال: وقيل لنباش آخر ما كان سبب توبتك؟

قال: عامة من كنت أنبش كنت أراه محول الوجه عن القبلة.

قلت: وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلاهى – وكان من خيار عباد الله وكان يتحرى الصدق –

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، بنحوه، كتاب: الفتن،باب: ذكر الدجال (٧١٣٠)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٤). من حديث حذيفة ﷺ.

قال: جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد، فباع مسامير صغار المسمار برأسين، فأخذها الحداد و جعل يحمى عليها فلا تلين معه حتى عجز عن ضربها فطلب البائع فوجده.

فقال: من أين لك هذه المسامير؟

فقال: لقيتها فلم يزل به حتى أخبره أنه وجد قبرًا مفتوحًا وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير.

قال: فعالجتها على أن أخرجها فلن أقدر، فأخذت حجرًا فكسرت عظامه وجمعتها.

قال: وأنا رأيت تلك المسامير.

قلت له: فكيف صفتها؟

قال: المسمار صغير برأسين.

وقال ابن أبى الدنيا:

وحدثنى أبى عن أبى الحريس عن أمه.

قالت: لما حفر أبو جعفر خندق الكوفة حول الناس موتاهم، فرأينا شابًا ممن حول عاضًا على يده .

وذكر عن سماك بن حرب قال: مر أبو الدراء بين القبور.

فقال: ما أسكن ظواهرك، وفى داخلك الدواهي.

وقال ثابت البناني: بينا أمشى فى المقابر: وإذا صوت خلفى وهو يقول: يا ثابت لا يغرنك سكوتها فكم من مغموم فيها، فالتفت فلم أر أحدًا.

ومر الحسن على مقبرة فقال: يا لهم من عسكر ما أسكنهم، وكم فيهم من مكروب.

وذكر ابن أبى الدنيا:

أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك: يا مسلمة من دفن أباك؟

قال: مولاى فلان.

قال: فمن دفن الوليد؟

قال: مولاى فلان.

قال: فأنا أحدثك ما حدثنى بـه، أنـه لمـا دفـن أبـاك والوليـد فوضعهمـا فـى قبورهما، وذهب ليحل العقد عنهما وجد وجوههمـا قـد حولـت فـى أقفيتهمـا، فانظر يا مسلمة إذا أنا مت فالتمس وجهي، فانظر هل نزل بى ما نزل بـالقوم أو هل عوفيت من ذلك؟.

قال: مسلمة فلما مات عمر وضعته فى قبره فلمست وجهه فإذا هو مكانه.

وذكر ابن أبى الدنيا:

عن بعض السلف قال: ماتت ابنة لى فأنزلتها القبر فذهبت أصلح اللبنة، فـإذا هى قد حولت عن القبلة، فاغتممت لذلك غمًا شديدًا، فرأيتها فى النوم

فقالت: يا أبت اغتممت لما رأيت فإن عامة من حولى محولين عن القبلة.

قال: كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر.

وقال عمرو بن ميمون: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول كنـت فيمـن دلـى الوليد بن عبد الملك فى قبره، فنظرت إلى ركبتيه قد جمعتا فى عنقه.

فقال ابنه: عاش أبى و رب الكعبة.

قلت: عوجل أبوك و رب الكعبة، فاتعظ بها عمر بعده.

وقال عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب لما استعمله على العراق: يا يزيد اتق الله، فإنى حين وضعت الوليد فى لحده فإذا هو يركض فى أكفانه.

وقال يزيد بن هارون: أخبرنا هشام بن حسان عن واصـل مولـى ابـن عيينـة، عن عمرو بن زهدم، عن عبد الحميد بن محمود.

قال: كنت جالسًا عند ابن عباس، فأتاه قوم.

فقالوا: إنا خرجنا حجاجًا ومعنا صاحب لنا إذ أتينا ذا الصفاح مات، فهيأنـاه ثم انطلقنا فحفرنا له و لحدنا له، فلما فرغنا من لحده، إذ نحن بأسـود قـد مـلأ اللحد، فحفرنا له آخر فإذا به.

فقال ابن عباس: ذاك الغل الذى يغل به، انطلقوا فادفنوه فى بعضهـا فوالـذى نفسى بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه، فانطلقا فوضعنـاه فـى بعضهـا فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا.

فقلنا لامرأته: ما كان يعمل زوجك؟

قالت: كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضـل مثلـه فيلقيه فيه.

وقال ابن أبى الدنيا:

حدثنى محمد بن الحسين قال: حدثنى أبو اسحاق صاحب الشاط.

قال: ذهبت إلى ميت أغسله، فلما كشفت الثـوب عـن وجهـه إذا بحيـه قـد تطوقت على حلقه، فذكر من غلظها.

قال: فخرجت فلم أغسله فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضى الله عنهم.

وذكر ابن أبى الدنيا:

عن سعيد بن خالد الأنصاري، عن رجل من أهل البصرة كان يحفر القبور.

قال: حفرت قبرًا ذات يوم ووضعت رأسى قريبًا منه فأتتنى امرأتان فى منامى.

فقالت إحداهما: يا عبدالله ناشدتك بالله إلا صرفـت عنـا هـذه المـرأة ولـم تجاورنا بها، فاستيقظت فزعًا فإذا بجنازة امرأة قد جئ بها.

فقلـت: القـبر وراءكـم فصرفتهـم عـن ذلـك القـبر، فلمـا كـان بـالليل إذ أنـا بالمرأتين فى منامي.

تقول إحداهما: جزاك الله عنا خيرًا، فلقد صرفت عنا شرًا طويلاً.

قلت: ما لصاحبتك لا تكلمنى كما تكلميننى أنت؟

قالت: إن هذه ماتت من غير وصية، وحق لمن مـات عـن غـير وصيـة أن لا يتكلم إلى يوم القيامة.

وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها ممـا لا يتسـع لهـا الكتـاب ممـا

أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عيانًا. وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجاءت عدة أسفار، ومن أراد الوقوف عليها فعليه (بكتاب المنامات) لابن أبى الدنيا (وكتاب البستان) للقيروانى وغيرهما من الكتب المتضمنة لذلك، وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه.

الأمر السادس:

أن الله سبحانه وتعالى يحدث فى هذه الدار ما هو أعجب من ذلك: فهذا جبريل كان ينزل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويتمثل له رجلاً، فيكلمه بكلام يسمعه، ومن إلى جنب النبى صلى الله عليه وآله وسلم، لا يراه ولا يسمعه، وكذلك غيره من الأنبياء، وأحيانًا يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين، وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم. وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم، والمسلمون معهم لا يرونهم و لا يسمعون كلامهم، والله قد حجب بنى آدم عن كثير مما يحدثه فى الأرض و هو بينهم، وقد كان جبريل يقرئ النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويدارسه القرآن والحاضرون لا يسمعونه، وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم، لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها، والعبد أضعف بصرًا وسمعًا من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر، وكثيرًا ممن أشهده الله ذلك صعق وغشى عليه ولم ينتفع بالعيش زمنًا، وبعضهم كشف قناع قلبه فمات، فكيف ينكر فى الحكمة الإلهية إسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عيانًا ؟ ثم إن العبد قادر على أن يزيل الزئبق والخردل من عين الميت وصدره بسرعة، فكيف يعجز عنه الملك وكيف لا يقدر عليه من هو على كل شئ قدير، وكيف تعجز قدرته عن إبقائه فى عينيه وعلى صدره لا يسقط عنه ؟ وهل قياس أمر البرزخ على ما يشاهده الناس فى الدنيا إلا محض الجهل والضلال وتكذيب أصدق الصادقين، وتعجيز رب العالمين؟ وذلك غاية الجهل والظلم، إذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ومائة ذراع وأكثر طولاً

وعرضًا وعمقًا، ويستر توسيعه عن الناس ويطلع عليه من يشاء فكيف يعجز رب العالمين أن يوسعه ما يشاء على من يشاء ويستر ذلك عن أعين بنى آدم، فيراه بنو آدم ضيقًا وهو أوسع شئ و أطيبه ريحًا وأعظمه إضاءة ونورًا وهم لا يرون ذلك.

وسر المسالة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة النار ليس من جنس المعهود فى هذا العالم، والله سبحانه إنما أشهد بنى آدم فى هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان سببًا لسعادتهم، فإذا كشف عنهم الغطاء صار عيانًا مشاهدًا فلو كان الميت بين الناس موضوعًا لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه، وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب فى النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك ألبتة، وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده، ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر، وقد جعلهما الله سبحانه وتعالى له كالهواء للطير ولا يلزم من حجبها للأجسام الكثيفة أن تتولج فيها حجبها للأرواح اللطيفة وهل هذا إلا من أفسد القياس، وبهذا وأمثاله كذبت الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم.

الأمر السابع:

أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق، ونحن لا نشعر بها، لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم، ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على شئ قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون فى تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل فى الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾**[الإسراء: ٤٤].

ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل ﴿وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤] فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[ص: ١٨]. والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[سبأ:١٠]. والدلالة لا تختص معيته وحده، وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى فإن هذا يكون لكل مصوت، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[الحج: ١٨].

والدلالة على الصانع لا تختلف بكثير من الناس، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[النور: ٤١].

فهذه صلاة و تسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون، وقد أخبر تعالى عن الحجارة بأن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته، وقد أخبر عن الأرض والسماء بأنهما يأذنان له وقولهما ذلك أى يستمعان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه، وأحسنا جوابه فقال لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١].

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس فى المسجد فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التى كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك. وقد أشهد الله سبحانه عباده فى هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى البدن قد فارقته الروح، فتكلم و مشى وأكل وشرب وتزوج وولد له كـ ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٣]. ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[البقرة: ٢٥٩].

وكقتيل بنى إسرائيل، أو كالذين قالوا لموسى لن نؤمن لـك حتـى نـرى اللـه جهرة فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف.

وكقصة إبراهيم فى الطيور الأربعة. فإذا أعاد الله الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة تقضى بها ما أمرها فيها، ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟ وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود؟ وبالله التوفيق.

الأمر الثامن:

أنه ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿**وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[المؤمنون: ١٠٠].

وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا و الآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه، وأنه روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق.

فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذى تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار و صار رمادًا، وذرى بعضه فى البحر وبعضه فى البر فى يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه.

ثم قال: قم فإذا هو قائم بين يدى الله.

فسأله: ما حملك على ما فعلت؟

فقال: خشيتك يا رب وأنت أعلم.

فما تلافاه أن رحمه.

فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التى صارت فى هذه الحال، حتى لو علق الميت على رءوس الأشجار فى مهاب الرياح لأصاب جسده

من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح فى أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا.

فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصى عليه منها شئ أراده، بل هى طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته.

الأمر التاسع:

فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزى فيهما الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالبعث الأول: مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول.

والبعث الثانى: يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها، ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار، وهو الحشر الثانى.

ولهذا فى الحديث الصحيح: **«وَتُؤْمِنُ بِالبَعْثِ الآخِرِ»** فإن البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين - وهما الصغرى والكبرى - فى سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة المطففين، وسورة الفجر وغيرها من السور.

وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها دارى جزاء المحسن والمسيء ولكن توفيه الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثانى فى دار القرار.

كما قال تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**[آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصى له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه.

هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس.

ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضى الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرى، وُفِىَ أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما، فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الاخرة ونعيمها وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فى غير موضع دلالة صريحة.

كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«فَيُفْتَحُ لَهُ بابٌ إِلَى الجَنةِ فَيَأْتِيهِ مِن رُوحِهَا ونَعِيمِهَا، وفِى الفَاجر فَيُفْتَحُ لَه بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيه مِنْ حَرِّهَا وسَمُومِهَا»**.

ومعلوم قطعًا أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب، كما تأخذ الروح حظها.

فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذى هو داخله، وهذان البابان يصل منهما إلى العبد فى هذه الدار أثر خفى محجوب بالشواغل والغواشى الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه، فوجود الشئ غير الإحساس به والتعبير عنه.

فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من هذين البابين أكمل.

فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام فى الدور الثلاث.

المسألة التاسعة
الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن

وهى قول السائل: ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن، مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

فالجواب من وجهين: مجمل ومفصل

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[الجمعة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب: ٣٤].

والكتاب: هو القرآن.

والحكمة: هى السنة باتفاق السلف.

وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله. هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم.

وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنِّى أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[1].

وأما الجواب المفصل: فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور فى القرآن فى غير موضع.

---

(١) جزء من حديث: أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: فى لزوم السنة (٤٦٠٤)، والإمام أحمد فى مسنده (١٣١/٤)، من حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ.

فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٥، ٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[الطور: ٤٥، ٤٧].

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب فى الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر: إن من مات منهم عذب فى البرزخ، ومن بقى منهم عذب فى الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبدالله ابن عباس على عذاب القبر، وفى الاحتجاج بها شئ؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر.

فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر، أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقى لهم من الأدنى يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمله.

وهذا نظير قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَيُفْتَحُ لَـهُ طَاقَـةٌ إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا**».

ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها، فإن الذى وصل إليه بعض ذلك وبقى له أكثره، والذى ذاقه أعداء الله فى الدنيا بعض العذاب الأدنى، وبقى لهم ما هو أعظم منه.

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُوم * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُون * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلاَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾[الواقعة: ٨٣-٩٦] فذكر ها هنا أحكام الأرواح عند الموت. وذكر فى أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر.

وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هى أهم وأولى بالذكر. وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام.

ومنها قوله تعالى: ﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر: ٢٧-٣٠].

وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك.

فقالت طائفة: يقال لها عند الموت. وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التى قد تجردت عن البدن وخرجت منه.

وقد فسر ذلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم، بقوله فى حديث البراء و غيره: «**فَيُقَالُ لَهَا اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ**» وسيأتى تمام تقرير هذا فى المسألة التى يذكر فيها مستقر الأرواح فى البرزخ إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾ مطابق لقوله، صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**» رواه مسلم. وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيرًا لما دل عليه القرآن. وبالله التوفيق.

المسألة العاشرة
لماذا يعذب أهل المعاصى فى القبر؟

فجوابها من وجهين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله و إضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت لأمره، واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا.

فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأما الجواب المفصل: فقد أخبر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجلين الذين رآهما يعذبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس، ويترك الآخر الاستبراء من البول، فهذا ترك الطهارة الواجبة وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقًا.

وفى هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب و بالزور و البهتان أعظم عذابًا، كما أن فى ترك الاستبراء من البول تنبيهًا على أن من ترك الصلاة التى الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابًا.

وفى حديث شعبة: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ».

فهذا مغتاب وذلك نمام.

وقد تقدم حديث ابن مسعود ﷺ: فى الذى ضرب سوطًا امتلأت القبر عليه به نارًا لكونه صلّى صلاة واحدة بغير طهور، ومر على مظلوم فلم ينصره.

وقد تقدم حديث سمرة فى صحيح البخارى: فى تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار، وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى البرزخ.

وتقدم حديث أبى هريرة ﷺ الذى فيه: ((رُضِخَ رُؤوسُ أَقْوَامٍ بِالصَّخْرِ لِتَثَاقُلِ رُؤوسِهِم عَنِ الصَّلاةِ، وَالذِينَ يَأْكُلُونَ المُنْتِنَ الخَبِيثَ لِزِنَاهُم، والذِينَ تُقْرَضُ شِفَاهُم بِمَقَارِيضَ مِنْ حَدِيدٍ لِقِيَامِهِم فِى الفِتَنِ بِالكَلامِ وَالخُطَبِ))، وتقدم حديث أبى سعيد.

وعقوبة ارباب تلك الجرائم:

فمنهم: من بطونهم أمثال البيوت وهم سابلة آل فرعون وهم أكلة الربا.

ومنهم: من تفتح أفواههم فيلقمون من أسافلهم، وهم أكلة أموال اليتامى.

ومنهم: المعلقات بثديهن وهن الزوانى.

ومنهم: من تقطع جنوبهم ويطعمون لحومهم وهم المغتابون.

ومنهم: من لهم أظافر من نحاس يخشمون وجوههم وصدورهم وهم الذين يغمزون أعراض الناس.

وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم، عن صاحب الشملة التى غلها من المغنم أنها تشتعل عليه نارًا فى قبره. هذا وله فيها حق فكيف من ظلم غيره مالا حق له فيه، فعذاب القبر من معاصى القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله.

فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموغل فى الفتنة، والداعى إلى البدعة، والقائل على الله و رسوله ما لا علم له به، والمجازف فى كلامه، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى، وآكل السحت من الرشوة و البرطيل و نحوهما، وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد، وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة، والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر، وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه، والمحلل والمحلل له، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه، ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله، والمفتى بخلاف ما شرعه الله، والمعين على الإثم والعدوان، وقاتل النفس التى حرم الله،

والملحد فى حرم الله، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنائحة والمستمع إليها، ونواحى جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم، والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج، والمطففون فى استيفاء ما لهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه، والجبارون والمتكبرون والمراءون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف ،والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين، فيسألوهم ويصدقوهم، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه، والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأسًا فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه، والذى يقرأ القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب وود أن المغنى لا يسكت، والذى يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برأس شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب، والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان البذىءالذى تركه الخلق إتقاء شره و فحشه، والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً، ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولا يحج مع قدرته على الحج،ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها، ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة، ولا يبالى مما حصل المال من حلال أو حرام، ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين، ولا يرائى للعالمين ويمنع الماعون، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون فى قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها، وصغيرها وكبيرها.

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب، ظواهرهـا بـالتراب والحجـارة المنقوشة مبنيات، وفى باطنها الدواهى والبليـات، تغلـى بالحسـرات كمـا تغلـى القدور بما فيها. ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها.

تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالاً.

ونادت يا عُمار الدنيا لقد عمرتم دارًا موشكة بكم زوالاً، و خربتم دارًا أنتـم مسرعون إليها انتقالاً. عمرتم بيوتًا لغيركم منافعها وسكانها، وخربتم بيوتًا ليـس لكم مساكن سواها. هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبيدر الزرع، وهـذه محل للعبر فهى إما روضة رياض من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

المسألة الحادية عشرة
كيف ينجو المرء من عذاب القبر؟

فجوابها أيضًا من وجهين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر، و من أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب فيها نفسه على ما خسره وربحه فى يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخير أجله، حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع من هذه التوبة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله و استعمال السنن التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك، ولا قوة إلا بالله.

أما الجواب المفصل: فنذكر أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ينجى من عذاب القبر.

فمنها: ما رواه مسلم فى صحيحه[1]:

عن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِه، وَإِنْ مَاتَ أُجْرِىَ عَلَيهِ عَمَلُه الذِى يَعمَلُه وَأُجْرِىَ عَلَيهِ رزقُه وَأَمِنَ الفَتّانَ»** .

وفى جامع الترمذي[2]:

من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«كُلُّ مَيّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِه إلاَّ الذِى مَاتَ مُرَابِطًا فِى سَبِيلِ اللّهِ، فإنّه يُنَمَّى لَهُ عَمَلُه إِلَى يَوْمِ القِيَامة وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ».**

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط فى سبيل الله (١٩١٣).
(٢) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء فى فضل من مات مرابطًا (١٦٢١).

وفى سنن النسائى[1]**:**

عن رشدين بن سعد عن رجل من أصحاب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِه فِتْنَةٍ**».

وعن المقدام بن معديكرب قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِه، وَيُرَى مَقْعَدَه فِي الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العَينِ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِه**»[2]. رواه ابن ماجة و الترمزى وهذا لفظة.

وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس ﷺ قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خباءة على قبر و هو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: يا رسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها.

فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**هِيَ المَانِعَةُ المُنْجِيَةُ، تُنجِيهِ مِنْ عَذَابِ القَبرِ**»[3].

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

---

(١) الحديث: أخرجه النسائى، كتاب: الجنائز، باب: الشهيد (٢٠٥٣).

(٢) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: فضائل الجهاد، باب: فى ثواب الشهيد (١٦٦٣)، وابن ماجه، كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة فى سبيل الله(٢٧٩٩).

(٣) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل سورة الملك (٢٨٩٠).

وروينا في مسند عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟

قال الرجل: بلى.

قال: اقرأ تبارك الذى بيده الملك و هو على كل شئ قدير، احفظها و علمها أهلك وولدك و صبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه، وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَوَدَدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي**»[1].

قال أبو عمرو ابن عبد البر: وصح عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**إِنَّ ثَلاثِينَ آيةً شَفَعَتْ فِي صَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ، تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ**»[2].

وفى سنن ابن ماجة[3]:

من حديث أبى هريرة ﷺ: «**مَنْ مَاتَ مبطونًا مَاتَ شَهِيدًا، وَوُقِيَ فِتْنَةَ القَبْرِ وَغدى وَرِيحَ عَلَيهِ برزْق مِنْ الجَنَّةِ**».

وفى سنن النسائى[4]:

عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد الله بن يشكر يقول: كنت جالسًا مع سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكر ا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ**».

---

(١) الحديث: أخرجه الحاكم فى المستدرك (١/٧٦٧)، من حديث ابن عباس بنحوه.

(٢) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: فضائل القرآن، (٢٨٩١).من حديث أبى هريرة ﷺ.

(٣) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فى من مات مريضًا (١٦١٥). بلفظ: «من مات مريضًا....» الحديث.

(٤) الحديث: أخرجه النسائى، كتاب: الجنائز، باب: من قتله بطنه (٢٠٥٥)، والترمذى، كتاب: الجنائز (١٠٦٤)، باب: ما جاء فى الشهداء من هم والإمام أحمد فى مسنده (٤/٢٦٢).

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده:

حدثنا شعبة. حدثنى أحمد بن جامع ابن شداد قال: حدثنى أبى فذكره وزاد فقال الآخر: بلى

وفى الترمذى[1]:

من حديث ربيعة بن سيف عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَومَ الجُمُعَةِ أَوْ لَيلَةَ الجُمْعَةِ إلاَّ وَقَاهُ اللّهُ فِتْنَةَ القَبرِ**».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب و ليس إسناده بمتصل. ربيعة بن سيف إنما يروى عن أبى عبد الرحمن المختلي، عن عبدالله بن عمرو. و لا يعرف لربيعة بن سيف سماع من عبد الله بن عمرو. انتهى.

وقد روى الترمذى الحكيم:

من حديث ربيعة بن سيف هذا، عن عياض بن عقبة الفهرى، عن عبد الله بن عمرو، وقد رواه أبو نعيم الحافظ عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعًا، ولفظه: «**مَنْ مَاتَ لَيلَةَ الجُمْعَةِ أَوْ يَوْمَ الجُمْعَةِ أُجيرَ مِنَ عَـذَابِ القَبرِ، وَجَاءَ يَوْمُ القِيَامَةِ وَعَلَيهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ**». تفرد به عمر بن موسى الوجيهي، وهو مدنى ضعيف.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :«**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**».

معناه والله أعلم: قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه فلم يفر، فلو كان منافقًا لما صبر لبارقة السيف على رأسه، فدل على أن إيمانه هو الذى حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له ، وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله ، وإظهار دينه وإعزاز كلمته، فهذا قد أظهر صدق ما فى ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان فى قبره.

قال أبو عبد الله القرطبى: إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجرًا أن لا يفتن ، لأنه مقدم ذكره فى التنزيل على الشهداء ، وقد صح

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيض مات يوم الجمعة (١٠٧٤).

فى المرابط الذى هو دون الشهيد أنه لا يفتن ، فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه والشهيد ؟ والأحاديث الصحيحة ترد هذا القول وتبين أن الصدّيق يسأل فى قبره كما يسأل غيره .

و هذا عمر بن الخطاب ﷺ رأس الصديقين، وقد قال للنبى ﷺ، لما أخبره عن سؤال الملك فى قبره.

فقال: وأنا على مثل حالتى هذه؟

فقال: **((نعم))**. وذكر الحديث .

وقد اختلف فى الأنبياء هل يسألون فى قبورهم على قولين، وهما وجهان فى مذهب أحمد وغيره، ولا يلزم من هذه الخاصية التى اختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق فى حكمها، و إن كان أعلى منه.

فخواص الشهداء قد تنتفى عمن هو أفضل منهم و إن كان أعلى منهم درجة.

وأما حديث ابن ماجه: ((مَنْ مَاتَ مَرِيضًا مَاتَ شَهِيدًا وَوُقِيَ مِنْ فِتْنَةِ القَبرِ))، فمن أفراد ابن ماجه وفى أفراده غرائب ومنكرات.

ومثل هذا الحديث مما يتوقف فيه ولا يشهد به على رسول الله ﷺ، فإن صح فهو مقيد بالحديث الآخر، وهو الذى يقتله بطنه.

فإن صح عنه أنه قال: **((المَبْطُونُ شَهِيدٌ))**، فيحمل هذا المطلق على ذلك المقيد، والله أعلم .

وقد جاء فيما ينجى من عذاب القبر: حديث فيه الشفاء، رواه أبو موسى المدينى وبين علته فى كتابه الترغيب والترهيب وجعله شرحًا له، رواه من حديث الفرج بن فضاله، ثنا هلال أبو جبلة، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة.

قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن فى صفة بالمدينة، فقام علينا فقال: **((إنِّى رَأَيتُ البَارحَة عَجَباً، رَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِى أَتَاهُ مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فَجَاءَه بِرُّهُ بِوَالِدَيهِ فَرَدَّ مَلَكُ المَوْتِ عَنهُ.**

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ بُسِطَ عَلَيهِ عَذَابُ القَبْرِ فَجَاءَه وُضُوءهُ فاسْتَنْقَذَه مِنْ ذَلِكَ.

وَرَأيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتي قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِين فَجَاءه ذكر اللّه فطرد الشياطين عنه.

وَرَأيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يلهث قَدْ احْتَوشَتْهُ مَلائِكَةُ العَذَابِ فَجَاءته صَلاته فاستنقذته من أيديهم.

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يلهث عَطَشًا كُلَّمَا دَنَا مِنْ حَوْضٍ مُنِعَ وَطُرِدَ، فَجَاءه صِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَأَسْقَاهُ وَأَرْوَاه. وَرَأيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي وَرَأَيْتُ النَّبِيِّين جُلُوساً حِلَقاً حِلَقاً، كُلَّمَا دَنَا إِلى حَلَقَةٍ طُرِدَ وَمُنِعَ، فَجَاءه غُسله مِنَ الجَنَابَةِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِي.

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي مِنْ بَينِ يَدَيهِ ظُلْمَةٌ وَمِنْ خَلْفِهِ ظُلْمَةٌ. وَعَنْ يَمِينِهِ ظُلْمَةٌ، وَعَنْ يَسَارِه ظُلْمَةٌ وَمِنْ فَوقِه ظُلْمَةٌ، وَهُو مُتَحَير فِيه فَجَاءه حَجَّةُ وَعُمْرَتُه فاسْتَخْرَجَاه مِنَ الظُّلْمةِ وَأَدْخَلاهُ فِي النُّورِ.

وَرَأَيْتُ رجلاً مِنْ أُمَّتِي يَتَقِي وَهَجَ النَّارِ وَشَرَرَهَا فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ سِتْرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ وَظِلاً على رأسه.

وَرَأَيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يُكَلِّمُ المُؤْمِنِينَ وَلاَ يُكَلِمُونَهُ فَجَاءَتْهُ صِلَتُهُ بِرَحِمِهِ فَقَالَتْ: يَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّهُ كَانَ وَصُولاً لِرَحِمِه فَكَلِّمُوهُ فَكَلَّمَهُ المُؤْمِنُون وَصَافَحُوهُ وَصَافَحَهُمْ.

وَرَأَيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوشَتْه الزَّبَانِيَةُ فَجَاءَهُ أَمْرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِ عَنِ المُنْكَرِ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ بَينَ أَيْدِيهم وَأَدْخَلَهُ فِي مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ.

وَرَأَيتُ رَجُلاً مِنَ أُمَّتِي جَاثِياً عَلَى رُكْبَتَيهِ وَبَيْنَهُ وَبَينَ اللّه حِجَابٌ فَجَاءَهُ حُسْنِ خُلُقِهِ فَأَخَذَهُ بِيَده فَأَدْخِلَهُ عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ.

وَرَأَيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ ذَهَبَتْ صَحِيفَتُهُ مِنْ قِبَلِ شِمَالِه فَجَاءَهُ خَوْفُهُ مِنْ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَأَخذَ صَحِيفَتَهُ فَوَضَعَها فِي يَمِينِه .

وَرَأَيت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي خَفَّ مِيزَانُهُ فَجَاءَهُ أَفْرَاطُهُ فَثَقَّلُوا مِيزَانَه .

وَرَأَيتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِماً عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّم فَجَاءَهُ رَجَاؤُهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَضَى.

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ هَوَى فِي النَّارِ فَجَاءَتْه دَمْعَتُهُ الَّتِي بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ ذَلِكَ.

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِمًا عَلَى الصِّرَاطِ، يَرْعَدُ كَمَا تَرْعَدُ السَّعْفَةُ فِي رِيحٍ عَاصِفٍ فَجَاءَهُ حُسْنَ ظَنِّهِ بِاللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَسَكَنَ رَوْعُهُ وَمَضَى.

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يَزْحَفُ عَلَى الصِّرَاطِ يَحْبُو أَحْيَانًا وَيَتَعَلَّقُ أَحْيَانًا فَجَاءَتْهُ صَلاتُه عَلَيَّ فَأَقَامَتْهُ عَلَى قَدَمَيهِ وَأَنْقَذَتْهُ.

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي انْتَهَى إِلَى أَبْوَابِ الجَنَّة فَغُلِقَتْ الأَبْوابُ دُونَهُ فَجَاءَتْهُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه فَفُتِحَتْ لَهُ الأَبْوَابُ وَأَدْخَلَتْهُ الجَنَّةَ».

قال الحافظ أبو موسى: هذا حديث حسن جدًا، رواه عن سعيد بن المسيب، وعمر بن ذر، وعلى بن زيد جدعان، نحو هذا الحديث مما قيل فيه أن رؤيا الأنبياء وحي على ظاهرها لا كنحو ما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**رَأَيتُ كَأَنَّ سَيْفِي انْقَطَعَ فَأَوَّلْتُهُ كَذَا وَكَذَا. وَرَأَيْتُ بَقَرًا تُنْحَرُ. وَرَأَيتُ كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةُ بنُ رافِعٍ**».

وقد روى في رؤياه الطويلة من حديث سمرة في الصحيح، ومن حديث على وأبى أمامة، وروايات هؤلاء الثلاثة قريب بعضها من بعض، مشتملة على ذكر عقوبات جماعة من المعذبين في البرزخ، فأما في هذه الرواية فذكر العقوبة وأتبعها بما ينجي صاحبها من العمل .

وراوى هذا الحديث عن ابن المسيب هلال أبو جبلة، مدني، لا يعرف بغير هذا الحديث، ذكره ابن أبى حاتم عن أبيه، هكذا ذكره الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله أبو جبل، بلا هاء وحكياه عن مسلم، ورواه عن الفرج بن فضالة، وهو وسط في الرواية ليس بالقوى ولا المتروك، ورواه عنه بشر بن الوليد الفقيه المعروف بأبى الخطيب، وكان حسن المذهب جميل الطريقة وسمعت شيخ الإسلام يعظم أمر هذا الحديث، وقال: أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث.

المسألة الثانية عشرة
هل سؤال القبر للمسلم والكافر والمنافق؟

فقال أبو عمر ابن عبد البر فى كتاب التمهيد:

والآثار تدل على أن الفتنة فى القبر لا تكون إلا للمؤمن أو المنافق، من كان منسوبًا إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة.

وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه و دينه و نبيه، و إنما يسأل عن هذا أهل الإسلام، فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة: تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر و المسلم.

قال الله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾[ابراهيم: ٢٧] .

وقد ثبت فى الصحيح: أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأل: من ربك، وما دينك، ومن نبيك ؟

وفى الصحيحين[(١)]:

عن أنس بن مالك ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم** ». وذكر الحديث .

زاد البخارى:

«**وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟**

فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِى كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ.

فَيُقَالُ: لاَ دَرِيت وَلاَ تَليت وَيُضْربُ بمطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ يَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْن». هكذا فى البخاري. وأما المنافق والكافر بالواو.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق نعالهم (١٣٣٨)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٠).

وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الذى رواه ابن ماجه، والإمام أحمد:

كنا في جنازة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَإِذَا الإِنْسَانُ دُفِنَ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ جَاءَهُ مَلَكٌ وَفِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ فَأَقْعَدَهُ.

فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا.

قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُه.

فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابُ النَّارِ فَيَقُولُ هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ كَفَرْتَ بِرَبِكَ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُ.

فَيَقُولُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟

فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي.

فَيُقَالُ: لاَ دَرِيت ولا اهْتَدَيت، ثُم يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّة فَيَقُولُ لَهُ هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِكَ، فَأَمَّا إِذَا كَفرت فإِنَّ اللَّه أَبْدَلَكَ بِهِ هَذَا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ ثُم يَقْمَعُهُ المَلَكُ بِالمِطْرَاقِ قَمْعَةً يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ إِلاَّ الثَّقَلَين».

فقال بعض الصحابة: يارسول الله ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم:٢٧] .

وفى حديث البراء بن عازب الطويل: «وَ أَمَّا الكَافِرُ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَ عَلَيهِ المَلاَئِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُمُ مُسُوحٍ».

وذكر الحديث إلى أن قال: «تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فِي قَبْرِهِ» وذكر الحديث.

وفى لفظ:

«فَإِذَا كَانَ كَافِرًا جَاءَهُ مَلَكُ المَوتِ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ».

فذكر الحديث إلى قوله: «مَا هَذِهِ الرُّوحِ الخَبِيثَةُ؟

فَيَقُولُون: فُلان بأَسْوَأ أَسْمائه.

فَإِذَا انْتَهَى بهِ إِلَى السماءِ الدُّنيَا أُغْلِقَتْ دُونَهُ.

قال: فَيُرْمَى به مِنَ السَّمَاء ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ باللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج: ٣١].

قال: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانتهَارِ، فيُجلسانه وَيَنْتَهِرانِهِ،

فيقولان: مَنْ رَبُّك؟

فيقول: هاه لا أَدْرِي.

فيقولان: لاَ دَرِيتَ.

فيقولان: مَا هَذَا النَّبِي الَّذِي بُعِثَ فِيكم؟

فيقول: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُون ذَلِك لا أَدْرِي.

فيقولان له: لا دَرِيتَ، وذلك قوله تعالى ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[ابراهيم:٢٧]».

وذكر الحديث واسم الفاجر في عرف القرآن و السنة يتناول الكافر قطعًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[الأنفطار:١٣،١٤] وقوله تعالى ﴿كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[المطففين:٧] .

وفي لفظ آخر:

في حديث البراء: «وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَ المَلائِكَةِ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ شِدَادٌ غِضَابٌ مَعَهُم ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ وَسَرَابِيلَ مِنْ قَطران، فَيَحْتَوِشُونَهُ فَتُنْزَعَ رُوحُهُ كَمَا يُنْزَعُ السُّفُودِ الكَثِير الشُّعَبِ مِنَ الصُوفِ الْمبتلِ، فَإِذَا خَرَجَتْ لَعنَه كُلُّ مَلَكٍ بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَكُلَّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ».

وذكر الحديث إلى أن قال: «**إنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِم إذَا وَلُّوا مُدْبِرينَ.**

فَيُقَالُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّك وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟

فيقول: لاَ أدْري.

فَيُقَالُ: لاَ دريتَ».

وذكر الحديث رواه حماد بن سلمة، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، وعن زاذان عن البراء.

وفى حديث عيسى بن المسيب، عن عدى بن ثابت عن البراء: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فى جنازة رجل من الأنصار. وذكر الحديث إلى أن قال: «**وَإنَّ الكَافِرَ إذَا كَانَ فِي دُبُرٍ مِنَ الدُّنْيَا، وقُبُلٍ مِنَ الآخِرةِ، وَحَضَرَهُ المَوتُ، نَزَلَتْ عَلَيه مَلائِكَةٌ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ نَارٍ وَحُنُوطٍ مِنْ نَارٍ**».

فذكر الحديث إلى أن قال: «**فَتَرَدُّ رُوحُه إلَى مَضْجعِهِ، فَيَأْتِيهِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٍ يُثِيرَانِ الأَرْضَ بأَنْيَابِهِمَا وَيَفْحَصَانِ الأَرْضَ بِأَشْعَارِهِمَا، أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ القَاصِفِ وَأَبْصَارُهمَا كَالبَرْقِ الخَاطِفِ.**

فَيُجْلِسَانه ثُم يَقُولان: يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ؟

فيقول: لا أدري، فينادى من جانب القبر لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها ما بين الخافقين لم يُقِلوها، وَيُضيقُ عَلَيهِ قَبرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ» .

وذكر الحديث. ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى النضر هاشم القاسم، حدثنا عيسى بن المسيب فذكره .

وفى حديث محمد بن سلمة، عن خصيف عن مجاهد ، عن البراء.

قال: كنا فى جنازة رجل من الأنصار، ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكر الحديث.

إلى أن قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَ إذَا وُضِعَ الكَافِرُ أَتَاهُ مُنْكِرٌ وَنَكِيرُ فَيُجْلِسَانَهُ فَيَقُولاَن لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فيقُولَ: لاَ أَدْرِى، فَيَقُولاَن لَهُ: لا دريت**» الحديث وقد تقدم .

وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب.

قال فيه: وأما الكافر بالجزم

وبعضهم قال: وأما الفاجر.

وبعضهم قال: وأما المنافق والمرتاب.

وهذه اللفظة من شك بعض الرواة، وهكذا فى الحديث لا أدرى أى ذلك قال: وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك، ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده على أنه لا تناقض بين الروايتين ، فإن المنافق يسأل كما يسأل الكافر و المؤمن ، فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين، وهم الكفار والمنافقون .

وقد جمع أبو سعيد الخدرى فى حديثه الذى رواه أبو عامر العقدى ، ثنا عباد بن راشد عن داود بن أبى هند، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد،

قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جنازة فذكر الحديث.

وقال: وإن كان كافرًا أو منافقًا يقول له ما تقول فى هذا الرجل؟

فيقول: لا أدري، وهذا صريح فى أن السؤال للكافر والمنافق.

وقول أبى عمر رحمه الله: وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه.

فيقال له: ليس كذلك بل هو من جمله المسئولين وأولى بالسؤال من غيره وقد أخبر الله فى كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص : ٦٥].

وقال تعالى:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الحجر:٩٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف:٦].

فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون فى قبورهم؟ فليس لما ذكره أبو عمر؛ رحمه الله؛ وجه .

المسألة الثالثة عشرة
هل سؤال منكر ونكير مختص بهذه الأمة؟

وأما المسألة الثالثة عشرة وهى: أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها؟

فهذا موضع قد تكلم فيه الناس.

فقال أبو عبد الله الترمذى: إنما سؤال الميت فى هذه الأمة خاصة ، لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة، فإذا أبوا كفت الرسل و اعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب، فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بالرحمة إمامًا للخلق.

كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾**[الأنبياء : ١٠٧].

أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل فى دين الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان فى قلبه فأمهلوا، فمن ها هنا ظهر أمر النفاق، وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين فى ستر، فلما ماتوا قيض الله لهم فتّانَى القبر، ليستخرج سرهم بالسؤال، وليميز الله الخبيث من الطيب، فـ **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾** [ابراهيم : ٢٧] .

وخالف فى ذلك آخرون منهم عبد الحق الإشبيلى والقرطبى

وقالوا: السؤال لهذه الأمة ولغيرها، وتوقف فى ذلك آخرون منهم أبو عمر ابن عبد العزيز بن عبد البر.

فقال: فى حديث زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبورِهَا»**(١).

وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك، فهذا الأمر لا يقطع عليه. و قد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبورِهَا»**.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه (٢٨٦٧)، والإمام أحمد فى مسنده (٣/٣).

وبقوله: «**أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُم تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُم**»[1].وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة.

قالوا: ويدل عليه قول الملكين له: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيقول المؤمن: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقوله في الحديث الآخر «**إِنَّكُم بِي تُمْتَحَنُون وَعَنِّي تُسْأَلُون**»[2].

وقال آخرون: ولا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم، فإن قوله: «**إن هذه الأمة**» إما أن يراد به أمة الناس.

كما قال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾[الأنعام : ٣٨] .

وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة.

وفي الحديث: «**لَوِلاَ أَنَّ الكِلاَبَ أمةٌ مِنَ الأمَمِ لأمَرْتُ بِقَتْلِها**»[3] رواه ابن ماجه.

وفيه أيضًا حديث النبي الذي قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله. وإن كان المراد به أمته صلى الله عليه وآله وسلم، الذي بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم؛ بل قد يكون ذكرهم إخبارًا بأنهم مسئولون في قبورهم، وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم «**أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُم تُفْتَنُون فِي قُبورِكُمْ**». وكذلك إخباره عن قول الملكين: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ هو إخبار لأمته بما تمتحن به في قبورها، والظاهر والله أعلم أن كل نبي مع أمته كذلك وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة. والله وسبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس (٨٦). من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) الحديث: أخرجه أحمد (١٣٩/٦، ١٤٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: الصيد، باب: النهي عن اقتناء الكلب إلا كلب صيد أو حرث أو ماشية (٣٢٠٥)، من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.

المسألة الرابعة عشرة
هل الأطفال يمتحنون فى قبورهم؟

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهى أن الأطفال هل يمتحنون فى قبورهم .

اختلف الناس فى ذلك على قولين: هما وجهان لأصحاب أحمد .

وحجة من قال إنهم يسألون أنه يشرع الصلاة عليهم و الدعاء لهم وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر .

كما ذكر مالك في موطئه عن أبى هريرة ﷺ: أنَّه صلى على جَنَازة صَبى فَسمع من دعائه: «**اللَّهُمَّ قِهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ**»[1].

واحتجوا بما رواه على بن معبد عن عائشة رضى الله عنها، أنه مر عليها بجنازة صبى صغير فبكت.

فقيل: لها ما يبكيك يا أم المؤمنين؟

فقالت: هذا الصبى بكيت له شفقة من ضمة القبر .

واحتجوا بما رواه هناد بن السرى: ثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة ﷺ قال: إن كان ليصلى على النفوس ما إن عمل خطيئة قط.

فيقول: اللهم أجره من عذاب القبر.

قالوا: والله سبحانه وتعالى يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه.

قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة، التى فيها أنهم يمتحنون فى الآخرة.

وحكاه الأشعرى عن أهل السنة والحديث: فإذا امتحنوا فى الآخرة لم يمتنع امتحانهم فى القبور.

قال الآخرون: السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل، فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا؟

---

(١) الأثر: أخرجه مالك فى الموطأ (١/٢٨٨).

فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فأما الطفل الذى لا تمييز له بوجه ما.

فكيف يقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ ولو رد إليه عقله فى القبر، فإنه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به، ولا فائدة من هذا السؤال، وهذا بخلاف امتحانهم فى الآخرة، فإن الله سبحانه يرسل إليهم رسولاً ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم، فمن أطاعه منهم نجا، ومن عصاه أدخله النار، فذلك امتحان بأمر يأمرهم به ويفعلونه ذلك الوقت إنه سؤال عن أمر مضى لهم من طاعة أو عصيان، كسؤال الملكين فى القبر .

وأما حديث أبى هريرة ﷺ فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعًا، فإن الله لا يعذب أحدًا بلا ذنب عمله، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذى يحصل للميت بسبب غيره، و إن لم يكن عقوبة على عمل عمله.

ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيهِ**»[1].

أى يتألم بذلك ويتوجع منه لأنه يعاقب بذنب الحى ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾[الأنعام:١٦٤] .

وهذا كقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ**»[2].

فالعذاب أعم من العقوبة .

ولا ريب أن فى القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسرى أثره إلى الطفل، فيتألم به فيشرع للمصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب. والله أعلم .

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز، باب: قول النبى ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته» (١٢٨٦)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٢٧).من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: العمرة، باب: السفر قطعة من العذاب (١٨٠٤)،ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: السفر قطعة من العذاب (١٩٢٧)، من حديث أبى هريرة ﷺ.

المسألة الخامسة عشرة
هل عـذاب القبـر دائـم؟

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي قوله: هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟

فجوابها أنه نوعان: نوع دائم. سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم قالوا: ﴿**يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا**﴾[يس:٥٢] ويدل على دوامه.

قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ [غافر:٤٦].

ويدل عليه ما تقدم في حديث سمرة، الذي رواه البخاري في رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه: «**فَهُوَ يُفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وفي حديث ابن عباس في قصة الجريدتين، لعله يخفف عنهما ما لم تيبسا . فجعل التخفيف مقيداً بمدة رطوبتها فقط. وفي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة : «**ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرْضَخُ رُءُوسُهُم بِالصَّخْرِ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ، لا يُفْتَرُ عَنْهُم مِنْ ذَلِكَ شَئٌ**». وقد تقدم .

وفي الصحيح:

في قصة الذي لبس بردين وجعل يمشي فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر : «**ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**». رواه الإمام أحمد في بعض طرقه: «**ثُمَّ يُخْرَقُ لَهُ خُرقًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ غَمِّهَا ودخَانِها إِلَى يَوْمَ القِيَامَةِ**».

النوع الثاني: إلى مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه كما يعذب في النار مدة، ثم يزول عنه العذاب. وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم، وهذا كما يشفع الشافع في المعذب في الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته، ولكن هذه الشفاعة

قد لا تكون بذلك بإذن المشفوع عنده، والله سبحانه وتعالى لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه، فهو الذى يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له، ولا تغتر بغير هذا، فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه.

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة : ٢٥٥].

﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنْ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨].

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[يونس :٣] .

﴿الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ : ٢٣] .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الزمر:٤٤] .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا:

حدثنى محمد بن موسى الصائغ، ثنا عبد الله بن نافع.

قال: مات رجل من أهل المدينة، فرآه رجل كأنه من أهل النار، فاغتم لذلك ثم إنه بعد سابعة أو ثامنة رآه كأنه من أهل الجنة.

فقال: ألم تكن قلت إنك من أهل النار؟

قال: قد كان ذلك إلا أنه دفن معنا رجل من الصالحين فشفع فى أربعين من جيرانه، فكنت أنا منهم .

قال ابن أبى الدنيا:

وحدثنا أحمد بن يحيى قال: حدثنى بعض أصحابنا.

قال: مات أخى فرأيته فى النوم.

فقلت: ما كان حالك حين وضعت فى قبرك؟

قال: أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيًا دعا لى لرأيت أنه سيضربنى به.

وقال عمرو بن جرير: إذا دعا العبد لأخيه الميت أتاه بها ملك إلى قبره.

فقال: يا صاحب القبر الغريب، هدية من أخ عليك شفيق .

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعة فى منامي، وكنت كثير الدعاء لها.

فقالت لى: يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير.

قلت: وكيف ذلك؟

قالت: هكذا دعاء المؤمنين الأحياء، إذا دعوا للموتى استجيب لهم وجعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير، ثم أتى بها الذى دعى له من الموتى.

فقيل: هذه هدية فلان إليك .

قال ابن أبى الدنيا:

وحدثنى أبو عبد بن مجير، قال: حدثنى بعض أصحابنا.

قال: رأيت أخًا لى فى النوم بعد موته.

فقلت: أيصل إليكم دعاء الأحياء ؟

قال: أى والله يترفرف مثل النور ثم نلبسه .

وسيأتى إن شاء الله تعالى تمام لهذه فى جواب السؤال عن انتفاع الأموات بما تهديه إليهم الأحياء .

المسألة السادسة عشرة
أين مستقر الأرواح؟

وأما المسألة السادسة عشرة وهى: أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟

هل هى فى السماء أم فى الأرض؟

وهل هى فى الجنة والنار أم لا؟

وهل تودع فى أجساد غير أجسادها التى كانت عليها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة؟

فهذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيه، وهى إنما تتلقى من السمع فقط، واختلف فى ذلك .

فقال قائلون: أرواح المؤمنين عند الله شهداء كانوا أم غير شهداء، إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم، وهذا مذهب أبى هريرة وعبدالله بن عمر رضى الله عنهم .

وقالت طائفة: هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقالت طائفة: الأرواح على أفنية قبورها .

وقال مالك: بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت .

وقال الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله: أرواح الكفار فى النار، وأرواح المؤمنين فى الجنة.

وقال أبو عبدالله بن منده: وقال طائفة من الصحابة والتابعين: أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك.

قال: وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببئر هوت بئر بحضرموت.

وقال صفوان بن عمرو: سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان: هل لأنفس المؤمنين مجتمع؟ التى يقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[الأنبياء: ١٠٥].

قال: هى الأرض التى يجتمع اليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث.

وقالوا: هى الأرض التى يورثها الله المؤمنين فى الدنيا .

وقال كعب: أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت خد إبليس .

وقالت طائفة: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكفار ببئر برهوت .

وقال سلمان الفارسى: أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار فى سجين، وفى لفظ عنه: نسمة المؤمنين تذهب فى الارض حيث شاءت .

وقالت طائفة: أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله .

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن حزم: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

قال: والذى نقول به فى مستقر الأرواح هو ما قاله الله عز وجل ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم، لا نتعداه، فهو البرهان الواضح، وهو أن الله عز وجل قال: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**[الأعراف:١٧٢] وقال تعالى **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾**[الأعراف:١١] فصح أن الله تعالى خلق الأرواح جملة، وكذلك أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: **«أَنَّ الأَرْوَاحَ جُنُودٌ مُجَنَّدةٌ، فَمَا تَعارَفَ مِنْهَا ائْتَلَف، وَمَا تَنَاكَر مِنْهَا اخْتَلَف»**[١] راوه مسلم .

وأخذ الله عهدها وشهادتها له بالربوبية وهى مخلوقة مصورة عاقلة، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وقبل أن يدخله فى الأجساد -والأجساد يومئذ تراب وماء- ثم أقرها حيث شاء، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى.

إلى أن قال: فصح أن الأرواح أجساد حاملة لأعراضها من التعارف

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجندة (٣٣٣٦)، من حديث عائشة رضى الله عنها، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنها.

والتناكر، وأنها عارفة مميزة فيبلوهم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ليلة أسرى به، عند سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل الشقاوة عن يساره، وذلك عند منقطع العناصر، ويعجل أرواح الانبياء والشهداء إلى الجنة .

وقال: وقد ذكر محمد بن نصر المروزى، عن اسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذى قلنا بعينه.

قال: وعلى هذا أجمع أهل العلم. قال ابن حزم -وهو قول جميع أهل الإسلام- قال: وهذا هو قول الله تعالى: **﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ﴾**[الواقعة ٨-١٤]

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[الواقعه ٨٨-٨٩] الى آخره .

فلا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى الأجساد، ثم برجوعها إلى البرزخ، فتقوم الساعة ويعيد الله عز وجل الأرواح إلى أجسادها ثانية، وهى الحياة الثانية ويحاسب الخلق: فريق فى الجنة وفريق فى السعير مخلدين أبدًا، انتهى .

وقال أبو عمر ابن عبد البر: أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم، ونحن نذكر كلامه وما احتج به، ونبين ما فيه .

وقال ابن المبارك عن ابن جريج، فيما قرىء عليه من مجاهد: ليس هى فى الجنة، ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها .

وذكر معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد ، أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين

فقال: بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتى ربها فى كل يوم تسلم عليه.

وقال ابو عمر ابن عبد البر في شرح حديث ابن عمر: «**إنَّ أَحَدَكُم إذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مقْعَدُهُ بالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجنَّةِ، وَإنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالَ لَهُ: هَذَا مقْعَدَكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[1].

قال: وقد استدل به من ذهب إلى الأرواح على أفنية القبور وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك . والله أعلم .

قال: لأن الأحاديث بذلك أحسن مجيئًا وأثبت نقلاً من غيرها.

والمعنى عندى أنها قد تكون على أفنية قبورها، لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور.

كما قال مالك رحمه الله: إنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت.

قال: وعن مجاهد أنه قال: الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك. والله أعلم .

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض، وهذا من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن. كحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن، كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته، وهذا قول مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين، كما سنذكر ذلك إن شاء الله .

والمقصود: أن عند هذه الفرقة المبطلة أن مستقر الأرواح بعد الموت العدم المحض.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أرواح أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التى اكتسبتها فى حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح، فتصير النفس السبعية إلى أبدان السباع، والكلبية إلى أبدان الكلاب،

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى (١٣٧٩)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٦٦).

والبهيمية إلى أبدان البهائم، والدنية والسفلية إلى أبدان الحشرات، وهذا قول الماسخة منكرى المعاد، وهو قول خارج عن قول أهل الإسلام كلهم، فهذا ما تلخص لى من جمع أقوال الناس فى مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعًا فى كتاب واحد، غير هذا ألبتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال، وما لكل قول وما عليه، وما هو الصواب من ذلك الذى دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التى من الله بها، وهو مرجو الإعانة والتوفيق .

فأما من قال هى فى الجنة :

فاحتج بقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾[الواقعة:٨٨] قال: وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجهما من البدن بالموت.

وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: مقربين وأخبر أنها فى جنة النعيم وأصحاب يمين وحكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب، ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلا من حميم وتصلية جحيم.

قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعا .

وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة فذكر حالها بعد الموت، وبعد البعث واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر:٢٧-٣٠].

وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: أن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك.

ولا ينافى ذلك قول من قال: إن هذا يقال لها فى الآخرة فإنه يقال لها عند الموت، وعند البعث، وهذه من البشرى التى قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[فصلت:٣٠].

وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون فى القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت .

وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب: أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشرى بروح وريحان، وهذا من ريحان الجنة .

واحتجوا بما رواه مالك فى الموطأ[1] عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك، كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**إنَّمَا نِسمةُ المُؤْمِنُ طائر تعَلق فِى شَجَرِ الجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَه اللَّهُ إِلَى حياة يَومَ البَعْثِ**».

قال أبو عمرو فى رواية مالك هذه: بيان سماع الزهرى لهذا الحديث من عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، وكذلك رواه يونس عن الزهرى.

قال: سمعت عبد الرحمن بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه. وكذلك رواه الأوزاعى عن الزهرى حدثنى عبد الرحمن بن كعب. وقد أُعل محمد بن يحيى الذهلى هذا الحديث بأن شعيب بن أبى حمزة ومحمد بن أخى الزهرى، وصالح بن كيسان، رووه عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جده كعب، فيكون منقطعًا .

وقال صالح بن كيسان: عن ابن شهاب عن عبد الرحمن أنه بلغه أن كعب ابن مالك كان يحدث.

قال الذهلى: وهذا المحفوظ عندنا وهو الذى يشبهه حديث صالح وشعيب، وابن أخى الزهرى، وخالفه فى هذا غيره من الحفاظ، فحكموا لمالك والأوزاعى.

قال أبو عمرو: فاتفق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعى والحارث بن فضيل على رواية هذا الحديث عن الزهرى عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، وصححه الترمذى وغيره .

قال أبو عمرو: ولا وجه عندى لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ولا دليل عليه،

---

(١) الحديث: أخرجه الإمام مالك: فى الموطأ (١/٢٤٠).

واتفاق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعى ومحمد بـن إسـحاق أولـى بـالصواب، والنفس إلى قولهم وروايتهم أسكن، وهم من الحفظ والإتقـان بحيـث لا يقـاس بهم من خالفهم فى هذا الحديث. انتهى.

وقد قال محمد الذهلى: سمعت على بن المدينى، ولد كعب خمسة: عبد الله، وعبيد الله، ومعبد، وعبد الرحمن، ومحمد.

وقال الذهلى: فسمع الزهرى من عبد الله بن كعب وكان قائد أبيه حين عمـى، وسمـع مـن عبد الرحمـن بن عبـد اللـه بـن كعـب، وروى عـن بشـير بـن عبد الرحمن بن كعب ولا أراه سمع منه. انتهى .

فالحديث إن كان لعبد الرحمن عن أبيـه كعـب كمـا قـال مـالك ومـن معـه فظاهر، وإن كان لعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن جده كما قـال شـعيب ومن معه فنهايته أن يكون مرسلاً من هذا الطريق، وموصولاً من الأخرى والذين وصلـوه ليسـوا بـدون الذيـن أرسـلوه قـدرًا ولا عـددًا، فـالحديث مـن صحـاح الأحاديث وإنما لم يخرجه صاحبا الصحيح لهذه العلل، والله أعلم .

قال أبو عمرو: وأما قوله: نسمة المؤمن، فالنسمة ها هنا الروح بعينـه وإنمـا قيل للروح نسمة والله أعلم. يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فـى الحديث نفسه: **«حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوم يَبعثُهُ»**.

وقيل: النسمة الروح والنفس والبدن، وأصل هذه اللفظة أعنى النسمة الإنسان بعينه وإنما قيل للروح نسمة والله أعلم. لأن حيـاة الإنسـان بروحـه، وإذا فارقـه عدم أو صار كالمعدوم، والدليل على أن النسمة إنسان قوله صلى الله عليه وآلـه وسلم: **«مَن أعتق نسمة مؤمنة»**[1].

وقول على ﷺ: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة[2].

---

(١) الحديث: أخرجه الطبـرانى فى الكبيـر (١/١٠٩)، وعزاه السيوطـى فى الدر لابن سعـــد وابـن أبى شيبة عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[البلد:١١] كلهم من حديث على ﷺ.

(٢) الأثر: أخرجه البخارى، كتاب: الجهـاد والسير، بـاب: فكـاك الأسير (٣٠٤٧)، ومسـلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلى رضى الله عنهم من الإيمان (٧٨).

وقال الشاعر:

بأَعْظَمَ مِنْكَ تُقًى فِي الحِسَابِ ... إذَا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الغُبَارَا

يعنى إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة .

وقال الخليل بن أحمد: النسمة الإنسان.

قال: والنسمة الروح.

والنسيم: هبوب الريح.

وقوله: تعلق فى شجر الجنة: تروى بفتح اللام، وهو الأكثر، وتروى بضم اللام والمعنى واحد، وهو الأكل والرعى، يقول: تأكل من ثمار الجنة وتسرح بين أشجارها والعلوقة والعلوق الأكل والرعى، تقول العرب: ما ذاق اليوم علوقًا أى طعامًا .

قال الربيع بن زياد يصف الخيل:

ومجنبات مَا يَذُقْنَ عَلُوقَةً ... يَمصَعْنَ بالمهراتِ وَالأمْهَارِ[1]

وقال الأعشى:

وفلاةٍ كَأنَّها ظَهْرُ تُرْسٍ ... لَيْسَ فِيهَا إلاَّ الرجيعُ علاقُ

قلت: ومنه قول عائشة: والنساء إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم (إنما يأكلن العلقة من الطعام)، وأصل اللفظة من التعلق وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء.

قال: واختلف العلماء فى معنى هذا الحديث.

فقال قائلون منهم: أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة.

---

(١) يصمع: يعدو ويسرع، والأمهار، مفردها مهرة، وهى: ولد الفرس. والمراد: مقدمات وسابقات لغيرها، رغم أنه لا يذقن طعامًا يقويهن على السير والجرى، ويعدين عدوًا شديدًا سابقات لأولاد الفرس، لما عرف عنهم من القوة والشدة. انظر: القاموس المحيط، ولسان العرب، مادتى [مصع، مهر].

قال: واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخص فيه شهيدًا من غير شهيد .

واحتجوا أيضًا بما روى عن أبى هريرة: أن أرواح الأبرار فى عليين ، وأرواح الفجار فى سجين .

وعن عبد الله بن عمر ، ومثل ذلك قال أبو عمر، وهذا قول يعارضه من السنة ما لا يدفع فى صحة نقله وهو قوله: «**إِذَا مَاتَ أَحَدُكُم عُرِضَ عَلَيهِ مُقْعَدُهُ بالغدَاةِ وَالعَشِّى إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجنةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يُقَالُ له: هَذَا مقعدك حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إليهِ يَومَ القيامةِ**»[1].

وقال آخرون: إنما معنى هذا الحديث فى الشهداء دون غيرهم، لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك .

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[آل عمران:١٦٩، ١٧٠].

وأما الآثار فذكر حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ، من طريق بقى بن مخلد مرفوعًا: «**الشُّهَدَاءُ يَغْدُونَ وَيروحُونَ، ثم يَكُونُ مَأْوَاهُم إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بالعَرشِ، فيقُولُ لهُم الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هلْ تَعْلَمُونَ كَرَامَةً أَفْضَل مِن كَرَامَةٍ أَكرمتمُوهَا؟ فَيَقُولُون: لا. غَيْرَ أَنَّا وَدَدنَا أنك أعدتَ أرواحنا فِي أَجْسَادِنا حتَّى نُقَاتِلَ مَرةً أخرَى، فَنُقْتَلُ فِي سبيلكَ**» رواه عن هناد، عن إسماعيل بن المختار، عن عطية عنه .

ثم ساق حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لمَّا أُصِيبَ إِخوانُكُم يَعْنِى يومَ أحدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهَم فِى أَجْوافِ طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنهَارَ الجَنَّةِ وَتَأْكلُ مِنْ ثمرِهَا وَتَأوِى إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُدَلاَّةٍ فِى ظِلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِم وَمَشْرَبِهِم ومقيلهِم**

---

(١) سبق تخريجه.

قَالُوا: مَنْ يُبْلِغُ إِخْوَانَنَا أَننا أَحْيَاءُ فِي الجَنَّة نُرْزقُ لِئَلاَّ يَنْكَلُوا عَـنْ الحـربِ وَلاَ يَزْهَدُوا فِي الجِهَاد. فَقَال اللّـه عَـزَّ وَجَـلَّ: أنـا أُبْلِغهُـمْ عنكـم»[1]، فـأنزل الله تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[آل عمران : ١٦٩]، والحديث فى مسند أحمد وسنن أبى داود .

ثم ذكر حديث الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: سـألنا عبـد الله بن مسعود ﷺ عن هذه الآية: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِيـنَ قُتِلُـوا فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ .

فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك.

فقال: أرواحهم فى جوف طير خضر تسرح فى الجنة فى أيهـا شـاءت ، ثـم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربك إطلاعة.

فقال: هل تشتهون شيئًا؟

قالوا: وأى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا.

قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسـادنا حتى نقتـل فـى سـبيلك مـرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا، والحديث فى صحيح مسلم .

قلت: وفى صحيح البخـارى[2]:

عن أنس، أن أم الربيـع بنت البراء -وهى أم حارثة ابن سراقة - أتت النبى- صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالت: يا نبى الله، ألا تحدثنى عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سـهم غرب- فـإن كان فى الجنـة صبرت، وإن كان فى غيـــر ذلـك اجتهـدت عليـه فى البكاء.

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجهاد والسير، باب: من أتاه سهم غرب فقتله (٢٩٠٨).

قال: «يَا أمَّ حَارِثَةِ إنَّهَا جِنَانٌ، وَإن ابنَكِ أصَابَ الفِرْدَوسَ الأعْلَى».

ثم ساق من طريق بقى بن مخلد، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، ثنا ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبى يزيد، سمع ابـن عبـاس يقـول: أرواح الشـهداء تجـول فـى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة .

ثم ذكر عن معمر، عن قتادة قال: بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة .

ومن طريق أبى عاصم النبيل، عن ثور بن يزيد، عـن خـالد بـن معـدان، عـن عبد الله بن عمرو: أرواح الشهداء فى طير كالزرازير، يتعـارفون ويرزقـون مـن ثمر الجنة .

قال أبو عمر: هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم، وبعضهـا فى صور طير، وبعضها: فى أجواف طير وبعضها: كطير خضر.

قال: والذى يشبه عندى - والله أعلم - أن يكون القول من قـال: كطـير أو صور طير لمطابقته لحديثنا المذكور - يريد حديث كعب بن مـالك - وقولـه: فيه نسمة المؤمن كطائر ولم يقل فى جوف طائر .

قال: وروى عيسى بن يونس حديث ابن مسعود، عن الأعمش، عن عبد اللـه بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله: كطير خضر .

قلت: والذى فى صحيح مسلم: فى أجواف طير خضر .

قال أبو عمر: فعلى هذا التأويل كأنه صلى الله عليه وآله وسـلم قـال: «إنَّمَا نسمةُ المُؤْمنِ من الشهداءِ طائرٌ يعلقُ فِى شجَرِ الجنةِ».

قلت: لا تنافى بين قوله صلى الله عليه وآلـه وسـلم: «نِسْمةُ المُؤْمِـنَ طـائرٌ يُعَلقُ فِى شَجَرِ الجنَّةِ» وبين قولـه: «إنَّ أحَدَكُم إذَا مَـاتَ عُـرِضَ عَلَيْـهِ مَقْعَـدَهُ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ إنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الجَنة، فَمِنْ أهْلِ الجنـة، وإنْ كَـانَ مِـنْ أهْـلِ النَّارِ فَمِنْ أهْلِ النَّارِ» وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد .

يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد فى جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال: **«نسمة المؤمن طير»** فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: **«فى جوف طير»** ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير، فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضا، ويدل على أنه حق من عند الله، وهذا الجمع أحسن من جمع أبى عمر وترجيحه رواية أرواحهم، كطير خضر، بل الروايتان حق وصواب، فهى كطير خضر، وفى أجواف طير خضر .

وأما قول مجاهد:

ليس هى فى الجنة، ولكن يأكلون ثمارها ويجدون ريحها، فقد يحتج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«الشُّهَدَاءُ عَلَى بارق نَهْر بباب الجنةِ فِى قُبَّةٍ خَضْرَاء يَخْرُجُ عَلَيْهِم رِزْقُهُم مِن الجنَّةِ بكرةً وَعَشِيَّةً»**[1]. وهذا لا ينافى كونهم فى الجنة، فإن ذلك النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم من الجنة؛ فهم فى الجنة، وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها، فمجاهد نفى الدخول الكامل من كل وجه والتعبير يقصر عن الإحاطة بتمييز هذا من هذا وأكمل العبارة وأدلها على المراد عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم عبارة أصحابه، وكلما علوت رأيت الشفاء والهدى والنور، وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعاوى والقول بلا علم .

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عبدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور.

قالت: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألناه عن هذه الأرواح، فوصفها صفة أبكى أهل البيت.

---

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٦٦).

وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ اليَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. وَيُزَوَجُ اثنتين وَسبعينَ مِنَ الحُورِ العينِ. وَيُشَفَّعُ فِي سبعينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقاربِهِ» .

فلما كان هذا يختص بالشهيد قال: إن للشهيد، ولم يقل إن للمؤمن .

وكذلك قوله فى حديث قيس الجذامى: «**يعطى الشهيد ست خصال**» وكذلك سائر الأحاديث والنصوص إلى علق فيها الجزاء بالشهادة، وأما ما علق فيه الجزاء بالإيمان، فإنه يتناول كل مؤمن شهيدا أو غير شهيد .

وأما النصوص والآثار التى ذكرت فى رزق الشهداء وكون أرواحهم فى الجنة،فكلها حق، وهى التى لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة، ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس، فيقال لهؤلاء: ما تقولون فى أرواح الصديقين هل هى فى الجنة أم لا ؟ فإن قالوا: إنها فى الجنة، ولا يسوغ لهم غير هذا القول، فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك .

وإن قالوا: ليست فى الجنة، لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كأبى بكر الصديق، وأبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وأبى الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباهم ﷺ ليست فى الجنة وأرواح شهداء زماننا فى الجنة. وهذا معلوم البطلان ضرورة.

فإن قيل: فإذا كان هذا حكم لا يختص بالشهداء، فما الموجب لتخصيصهم بالذكر فى هذه النصوص ؟

قلت: التنبيه على فضل الشهادة وعلو درجتها، وأن هذا مضمون لأهلها ولابد وأن لهم منه أوفر نصيب . فنصيبهم من هذا النعيم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فراشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم فله نعيم يختص به ولا يشاركه فيه من هو دونه ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر، فإنهم بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم فى البرزخ أبدانا خيرًا منها تكون فيها إلى

يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد فى جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال: **«نسمة المؤمن طير»** فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: **«فى جوف طير»** ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير، فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضا، ويدل على أنه حق من عند الله، وهذا الجمع أحسن من جمع أبى عمر وترجيحه رواية أرواحهم، كطير خضر، بل الروايتان حق وصواب، فهى كطير خضر، وفى أجواف طير خضر .

وأما قول مجاهد:

ليس هى فى الجنة، ولكن يأكلون ثمارها ويجدون ريحها، فقد يحتج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«الشُّهَدَاءُ عَلَى بارقِ نَهْرٍ ببابِ الجنةِ فِى قُبَّةٍ خَضْرَاء يَخْرجُ عَلَيْهِم رِزْقُهُم مِن الجنَّةِ بكرةً وَعَشِيَّة»**[1]. وهذا لا ينافى كونهم فى الجنة، فإن ذلك النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم من الجنة؛ فهم فى الجنة، وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها، فمجاهد نفى الدخول الكامل من كل وجه والتعبير يقصر عن الإحاطة بتمييز هذا من هذا وأكمل العبارة وأدلها على المراد عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم عبارة أصحابه، وكلما علوت رأيت الشفاء والهدى والنور، وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعاوى والقول بلا علم .

قال أبو عبد الله بن منده، وروى موسى بن عبدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور.

قالت: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألناه عن هذه الأرواح، فوصفها صفة أبكى أهل البيت.

---

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٦٦/١).

فقال: «**إنَّ أرواحَ المؤمِنينَ فِي حَواصِلَ طيرٍ خُضْرٍ تَرْعَى فِي الجنةِ، وتَأكلُ مِنْ ثِمَارِهَا وتَشْرَبُ مِنْ مَائها، وتَأْوِي إلي قَنَادِيلَ مِن ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وَعَدْتَنا وإن أرواح الكفار فِي حَوَاصِلَ طيرٍ سودٍ تأكلُ مِنَ النَّارِ وتَشْرَبُ من النار وتأوِى إلى جحر فى النار. يقولون: ربَّنا لا تَلْحَقْ بِنَا إخْوَانَنَا ولا تُؤْتِنَا مَا وَعَدْتَنا**» .

وقال الطبراني: حدثنا أبو زرعة الدمشقى، ثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية ابن صالح، عن ضمرة بن حبيب، قال: سئل النبىصلى الله عليه وآله وسلم، عن أرواح المؤمنين، فقال: «**فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت**».

قالوا: يا رسول الله وأرواح الكفار ؟

قال: «**محبوسة فى سجين**» رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبد الله ابن صالح، ورواه أبو المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب.

وذكر أبو عبد الله بن منده من حديث غنجار عن الثورى عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَرْوَاحُ المُؤْمِنينَ فِي طيرٍ خضرٍ كالزرازيرَ تَأْكلُ من ثمرِ الجنةِ**».

ورواه غيره موقوفا، وذكر يزيد الرقاشى عن أنس وأبو عبد الله الشامى، عن تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم:«**إذَا عَرَجَ مَلَكُ المَوتِ بروحِ الميتِ المُؤمنِ إلى السَّماء اسْتَقبَلَهُ جبرائيلُ فِي سَبعينَ ألفًا من المَلائِكةِ، كلٌّ منهم يَأْتِيهِ ببشارةٍ من السَّمَاء سوَى بشارةِ صاحبِهِ، فإِذَا انْتَهَى به إلى العَرْشِ خرَّ ساجدًا فيقول اللَّهُ عزَّ وجَلَّ لملكُ الموْتِ انطلقْ بروحِ عبْدِى فضعْهُ فِى سدرٍ مخضودٍ وَطلحٍ منضودٍ، وظلٍ ممدودٍ، وَماءٍ مَسكُوبٍ**» رواه بكر بن خنيس ، عن ضرار بن عمرو ، عن يزيد وأبى عبد الله .

وأما قول من قال:

الأرواح على أفنية قبورها .

فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبدًا، فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة ، قد ذكرنا بعضها، وسنذكر منها ما لم نذكره- إن شاء الله - وإن -أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتا، أو لها إشراف على قبورها وهى فى مقرها فهذا حق، ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور .

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر قال فى كتابه فى شرح حديث ابن عمر: **«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى»** وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور ، وهو أصح ما ذهب إليه فى أحاديث من طريق الأثر. ألا ترى أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة ، وكذلك أحاديث السلام على القبور ؟

قلت: يريد الأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هذا حديث البراء بن عازب الذى تقدم وفيه **«هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»** .

ومثل حديث أنس : **«أن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم»** .

وفيه: **«يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن فى قبره سبعين ذراعا ويضيق على الكافر»** .

ومثل حديث جابر: **«إنَّ هَذِهِ الأمةُ تُبْتَلَى فِى قُبُورِهَا، فَإِذَا دَخَلَ المُؤْمِنُ قَبْرَهُ وَتَولَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَتَاهُ مَلَكٌ»** .

والحديث: **«وَأَنَّه يَرَى مِقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّة فَيَقُول: دَعُونِى أُبَشِّرُ أَهْلِى، فَيُقَال له: اسْكُن فَهَذَا مِقْعَدُكَ أَبَدا»**.

ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التى تقدمت، ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفتهم بزيارة الأحياء لهم، وقد تقدم ذكر ذلك كله، وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التى لا مدفع لها، وقد تقدم ذكرها، وكل ما ذكره من الأدلة فهو يتناول الأرواح التى هى فى الجنة بالنص، وفى الرفيق الأعلى، وقد بينا أن عرض مقعد الميت عليه من الجنة أو النار لا يدل على أن الروح فى القبر، ولا على فنائه دائمًا من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده، فإن للروح شأنًا آخر تكون فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى،

وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع، حيث يعتقد أن الروح من جنس من يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكانًا لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض؛ بل الروح تكون فوق السماوات في أعلى عليين، وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلم، وهي في مكانها هناك وروح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في الرفيق الأعلى دائمًا ، ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه ، وتسمع كلامه ، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وموسى قائمًا يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة أو السابعة، وإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها في السماء .

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدي العرش ، ثم ترد إلى جسده في أيسر زمان، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السماوات السبع، وتقف بين يدي الله فتسجد له ويقضي فيها قضاءه، ويريها الملك ما أعد الله لها في الجنة، ثم تهبط فتشهد غلسه وحمله ودفنه، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب: **«أَنَّ النَفْسَ يُصْعَدُ بِهَا حَتَّى تُوقَفَ بَينَ يَدِي اللَّهِ فَيَقُولُ تعالى: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عليِّين، ثُمَّ أعيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فيعادُ إلى القَبْرِ»**. وذلك مقدار تجهيزه وتكفينه، فقد صرح به حديث ابن عباس حيث قال: **«فَيَهْبِطُونَ عَلَى قَدْرِ فَرَاغِهِم مِنْ غُسْلِه وَأَكْفَانِه، فَيَدْخُلُونَ ذَلِكَ الرُّوحِ بَينَ جَسَدِهِ وَأَكفَانِهِ»** .

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده، من حديث عيسى بن عبدالرحمن، ثنا ابن شهاب، ثنا ابن عامر بن سعد، عن إسماعيل بن طلحة بن عبيد الله، عن أبيه.

قال: أردت مالي بالغابة فأدركني الليل، فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام فسمعت. قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها ، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكرت ذلك له فقال: **«ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ أَلَم تَعْلَمْ أَنَّ الله قَبَضَ أَرْوَاحَهُم فِي قَنَادِيلَ من زَبَرْجَدَ وياقوتٍ، ثُم عَلَّقَهَا وَسَطَ الجنةِ،**

فَإِذَا كَانَ اللَّيلُ رُدَّت إِلَيهم أرواحُهُم، فَلا يزالُ. كذلكَ حَتّى إِذَا طَلَعَ الفَجْرُ رُدَّتَ أرواحُهُم إِلَى مَكَانِهِم الذى كَانَتْ بِهِ» .

ففى هذا الحديث بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى، ثم انتقالها من الثرى الى مكانها.

ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة: إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت، وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد أمر يعلمه عامة الناس ولا يشكون فيه. والله أعلم .

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست فى الجنة وأنها على أفنية القبور، فهذا سيد ولد آدم الذى روحه فى أعلى عليين مع الرفيق الأعلى، صلى الله عليه وسلم، يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه، وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء فى الجنة، ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أن نسلم عليهم، وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد، وقد ثبت أن أرواحهم فى الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم ولا يضيق عطنك عن كون الروح فى الملأ الأعلى. تسرح فى الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها . وتدنو حتى ترد عليه السلام . وللروح شأن آخر غير شأن البدن ، وهذا جبريل ، صلوات الله وسلامه عليه رآه النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وله ستمائة جناح ، منها جناحان قد سد بهما ما بين المشرق والمغرب، وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم، يضع ركبتيه بين ركبتيه، ويديه على فخديه، وما أظنك يتسع بطانك أنه كان حينئذ فى الملأ الأعلى فوق السموات حيث مستقره، وقد دنا من النبى صلى الله عليه وآله وسلم، هذا الدنو فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفته ، ومن لم يتسع بطانه لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهى إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه لا يكون فوقه شيء ألبتة. بل هو العالى على كل شيء

وعلوه من لوازم ذاته. وكذلك دنوه عشية عرفه من أهل الموقف، كذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره. كذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدها وبسطها وهيأها لما يراد منها . وكذلك مجيئه اليها قبل يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد . كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«فَأَصْبَحَ رَبُّكَ يَطُوفُ فِى الأَرْضِ وَقَدْ خَلَتْ عَلَيهِ البِلاَدُ، هَذا وَهو فَوقَ سَمَاوَاتِه عَلَى عَرْشِه»**[1].

ومما ينبغي، أن يعلم: أن ما ذكرناه من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر .

فللروح العظيمة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترى أحكام الأرواح فى الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت، بحسب تفارق الأرواح فى كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها، فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله، ما ليس للروح المهينة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهى محبوسة فى بدنها فكيف إذا تجردت وفارقته واجتمعت فيها قواها، وكانت فى أصل شأنها روحًا علية زكية كبيرة ذات همة عالية؟ فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر، وفعل آخر .

وقد تواترت الرؤيا من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك، وكم قد رؤى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه أبو بكر وعمر فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة، مع كثرة عددهم وعُددهم وضعف المؤمنين وقلتهم، ومن العجب أن أرواح المؤمنين المحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها، فتتسالم وتتعارف فيعرف بعضها بعضًا. كأنه جليسه وعشيره، فإذا رآه ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته .

---

(١) الحديث: أخرجه عبد الله بن أحمد، فى زوائد المسند (١٣/٤، ١٤).

قال عبد الله بن عمرو[1]: إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط، ورفعه بعضهم إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال عكرمة ومجاهد: إذا نام الإنسان فإن له سببًا يجرى فيه الروح وأصله فى الجسد فيبلغ حيث شاء الله ما دام ذاهبًا، فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان، وكان بمنزلة شعاع الشمس الذى هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس.

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال: إن الروح يمتد من منخر الإنسان، ومركبه وأصله فى بدنه، فلو خرج الروح بالكلية لمات، كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة، ألا ترى أن مركب النار فى الفتيلة وضوؤها وشعاعها يملأ البيت، فكذلك الروح تمتد من منخر الأنسان فى منامه حتى السماء وتجول فى البلدان، وتلتقى مع أرواح الموتى، فإذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه، وكان المرئى فى اليقظة عاقلًا ذكيًا صدوقًا، لا يلتفت فى يقظته إلى شىء من الباطل، رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه عز وجل على حسب خلقه، وإن كان خفيفًا نزقا يحب الباطل والنظر اليه فإذا نام وأراه الله أمرًا من خير أو شر، رجعت روحه إليه فحيث ما رأى شيئًا من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما يقف فى يقظته.

فكذلك لا يؤدى إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل، فلا يمكن معبر أن يعبر له، وقد خلط الحق بالباطل، وهذا من أحسن الكلام، وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها .

وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شىء له، ثم يمر بباطل ولهو من غناء أو شبهة أو زور أو غيره فيصغى إليه، ويفتح له قلبه، حتى يتأدى إليه، فيتخبط عليه، ذلك الذى سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل، فهكذا شأن الأرواح عند النوم .

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد (٢/٢٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا.

وأما بعد المفارقة فإنها تعذب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التي كانت حظها حال اتصالها بالبدن، وينضاف إلى ذلك عذابها بتلك الإرادات والشهوات التي حيل بينها وبينها، وينضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التي اشتركت معه فيها، وهذه هي المعيشة الضنك في البرزخ والزاد الذي تزود به إليه والروح الزكية العلوية المحقة التي لا تحب الباطل ولا تألفه، بضد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التي تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الإرادات والهمم الزكية، وينشئ الله سبحانه لها من أعمالها نعيما ينعمها به في البرزخ، فتصير لها روضة من رياض الجنة، ولتلك حفرة من حفر النار.

وأما قول من قال: أرواح المؤمنين عند الله تعالى ولم يزد على ذلك فإنه تأدب مع لفظ القرآن.

حيث يقول الله عز وجل: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[آل عمران: ١٦٩].

وقد احتج أرباب هذا القول بحجج .

منها: ما رواه محمد بن إسحاق الصنعاني[1].

ثنا يحيي بن أبي بكير، ثنا محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ الميتَ إذا خَرجَتْ نَفسُهُ يُعرَجُ بهَا إلَى السماء، حَتَّى يُنْتَهَى بها إلى السَماء التِي فِيهَا عَزَّ وَجَلَّ، وَإذَا كَانَ الرَجلُ السوءُ يُعرَجُ بها إلَى السمَاء فَإنَّهُ لا يُفتَحُ لَهَا أبوابُ السماء، فَتُرْسَلُ مِن السَّماءفَتَصيرُ إلَى القَبْرِ**» وهذا إسناد لا تسأل عن صحته، وهو في مسند أحمد وغيره .

وقال أبو داود الطيالسي: ثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي وائل عن أبي موسى الأشعري.

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد (٢/٣٦٤).

قال: تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك، فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه، فتتلقاه الملائكة من دون السماء.

فيقولون: ما هذا؟

فيقولون: هذا فلان ابن فلان، كان يعمل كيت وكيت لمحاسن عمله.

فيقولون: مرحبا بكم وبه، فيقبضونها منهم فيصعد بها من الباب الذى كان يصعد منه عمله، فتشرق فى السموات ولها برهان كبرهان الشمس، حتى ينتهى إلى العرش .

وأما الكافر، فإذا قبض انطلق بروحه.

فيقولون: ما هذا؟

فيقولون: هذا فلان ابن فلان، كان يعمل كيت وكيت لمساوئ عمله.

فيقولون: لا مرحبا لامرحبا ردوه، فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى .

وقال المكى بن إبراهيم: عن داود بن يزيد الأودى قال: أراه عن عامر الشعبى، عن حذيفة بن اليمان أنه قال: الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل، تنتظر موعدها حتى ينفخ فيها .

وذكر سفيانابن عيينة: عن منصور بن صفية، عن أمه دخل ابن عمر المسجد بعد مقتل ابن الزبير وهو مصلوب، فأتى أسماء يعزيها.

فقال لها: عليك بتقوى الله والصبر، فإن هذه الجثث ليست بشىء، وإنما الأرواح عند الله.

فقالت: وما يمنعنى من الصبر وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

وذكر جرير: عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسا إلى كعب والربيع بن خثيم، وخالد بن عرعرة فى أناس.

فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم .

قال: فأوسع له، فجلس.

فقال: يا كعب كل ما فى القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرونى عنهن: ما سجين، وما عليين، وما سدرة المنتهى، وما قول الله لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم : ٥٧] .

قال: وأما عليون: فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين.

وأما سجين: فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار فيها تحت خد إبليس .

وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فأوحى إليه أنى رافع لك كل يوم مثل أعمال بنى آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت، فيؤخره حتى يزداد عملا، فحمله بين جناحيه، فعرج به حتى إذا كان فى السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه فى حاجته.

فقال: وأين هو؟

قال: هو ذا بين جناحين.

قال: فالعجب أنى أمرت أن أقبض روحه فى السماء الرابعة فقبض روحه .

وأما سدرة المنتهى: فإنها سدرة على رءوس حملة العرش ينتهى إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، فلذلك سميت سدرة المنتهى.

قال ابن منده: ورواه وهب بن جرير، عن أبيه، ورواه يعقوب القمى عن شمر، ورواه خالد بن عبد الله عن العوام بن حوشب، عن القاسم بن عوف، عن الربيع بن خثيم، قال: كنا جلوسا عند كعب فذكره .

وذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال:

إذا قبض روح العبد المؤمن عرج إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، حتى ينتهى به إلى سدرة المنتهى .

قلت للضحاك: لم سميت سدرة المنتهى؟

قال: لأنه ينتهى إليها كل شىء من أمر الله عز وجل لا يعدوها .

فيقول: ربى عبدك فلان وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب.

وذلك قوله تعـالى: ﴿كَـلا إِنَّ كِتَـابَ الأَبْـرَارِ لَفِي عِلِّيِّـينَ * وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين : ١٨-٢١] .

هذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فـإن الجنـة سـدرة المنتهـى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق.

وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبـى صلـى اللـه عليـه وآله وسلم أنها تسرح في الجنة حيث شاءت .

وأما قول من قال: إن أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت.

فقال أبو محمد ابن حزم: هذا من قول الرافضة، وليس كما قال؛ بل قد قاله جماعة من أهل السنة .

قال أبو عبد الله ابن منـده: وروى عـن جماعـة مـن الصحابـة والتـابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية.

ثم قال: أخبرنا محمد بن يونس، ثنا أحمد بن عاصم، ثنـا أبـو داود سـليمان ابن داود، ثنا همام، حدثني قتادة، حدثني رجـل عن سعيــد بـن السـيب، عـن عبد الله بـن عمـرو أنـه قـال: إن أرواح المؤمنيـن تجتمـع بالجابيـة، وإن أرواح الكفار تجتمع في سنجة بحضرموت، يقال لها: برهوت.

ثم ساق من طريق حماد بن سـلمة، عـن عبدالجليـل بـن عطيـةعن شـهر بـن حوشب: أن كعبًا رأى عبد الله بن عمرو وقد تكاب الناس عليه يسألونه.

فقال له رجل: سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفار.

فسأله، فقال: أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت .

قال ابن منده: ورواه أبو داود وغيره عن عبد الجليل.

ثم ساق من حديث سفيان عن فرات القزاز عن أبي الطفيل، عن علي.

قـال: خـير بـئر فـي الأرض زمـزم، وشـر بـئر فـي الأرض برهـوت بـئر فــي حضرموت، وخـير واد فـي الأرض وادي مكـة، والـوادي الـذي أهبـط فيـه آدم بالهند منه طيبكم، وشر واد فـي الأرض الأحقـاف، وهـو فـي حضرمـوت تـرده أرواح الكفار.

قال ابن منده: وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن عباس، عن على، قال: أبغض بقعة فى الأرض واد بحضرموت يقال له: برهوت، فيه أرواح الكفار، وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قيح، تأوى إليه الهوام.

ثم ساق من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضي: ثنا على بن عبدالله، ثنا سفيان، ثنا أبان بن تغلب، قال: قال رجل رأيت فيه - يعنى وادى برهوت- فكأنما حشرت فيه أصوات الناس، وهم يقولون: يا دومه يا دومه.

قال أبان: فحدثنا رجل من أهل الكتاب أن دومه هو الملك الذى على أرواح الكفار.

وقال سفيان: وسألنا الحضرميين .

فقالوا: لا يستطيع أحد يبيت فيه الليل .

فهذا جملة ما علمته فى هذا القول، فإن أراد عبد الله بن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه، وأنها تجمع فى مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه، فهذا قريب، وإن أراد نفس الجابية دون سائر الأرض، فهذا لا يعلم إلا بالتوقيف، ولعله مما تلقاه عن بعض أهل الكتاب.

وأما قول من قال: إنها تتجمع فى الأرض التى قال الله فيها: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[الأنبياء : ١٠٥].

فهذا إن كان قاله تفسيرا للآية، فليس هو تفسيرا لها.

وقد اختلف الناس فى الأرض المذكورة هنا.

فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هى أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وعن ابن عباس قول آخر: أنها الدنيا التى فتحها الله على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا القول هو الصحيح ونظيره قوله فى سورة النور: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾**[النور : ٥٥] .

وفى الصحيح[1]:

عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**زُوِيَتْ لِى الأَرْضُ مَشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِى مَا زُوِىَ لِى مِنْهَا**» رواه أحمد ومسلم .

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس، وهى من الأرض التى أورثها الله عباده الصالحين، وليست الآية مختصة بها .

وأما قول من قال: إن أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة، فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف.

ويدل عليه قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**»[2].

وقد تقدم حديث أبى هريرة: «**إِنَّ الميتَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُه عُرِجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يُنْتَهى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الَتِى فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**» .

وتقدم قول أبى موسى: إنها تصعد حتى تنتهى إلى العرش .

وقول حذيفة: إنها موقوفة عند عبدالرحمن:

وقول عبد الله بن عمر: إن هذه الأرواح عند الله . وتقدم قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ أَرْوَاحَ الشُهَدَاء تَأْوِى إِلَى قَنَادِيلَ تَحتَ العَرْش**» .

وتقدم حديث البراء بن عازب: «**إِنَّهَا تَصْعَدُ مِنْ سَمَاءِ إِلَى سَمَاء، وَيُشَيِّعُهَا مِنْ كُلِّ سَمَاءِ مُقَرَّبُوهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ**» .

وفى لفظ: «**إِلَى السَّمَاءِ التِى فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ**». ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك، بل يصعد بها إلى هنالك للعرض على ربها فيقضى فيها أمره، ويكتب كتابه من أهل عليين أو أهل سجين، ثم تعود إلى القبر للمسألة، ثم ترجع إلى مقرها التى أودعت فيه، فأرواح المؤمنين فى عليين بحسب منازلهم، وأرواح الكفار فى سجين بحسب منازلهم.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الفتن، باب: هلاك هذه الأمة (٧١٨٧) عن ثوبان.

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: المغازى، باب: آخر ما تكلم به النبى ﷺ (٤٤٦٣)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: عائشة رضى الله عنها (٢٤٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها.

وأمَّا قول من قال: إن أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم .

فلا دليل على هذا القول من كتاب الله ولا سنة يجب التسليم لها، ولا قول صاحب يوثق به، وليس بصحيح، فإن تلك البئر لا تسع أرواح المؤمنين جمعيهم وهو مخالف لما ثبتت به السنة الصريحة، من أن نسمة المرء من طائر يعلق في شجر الجنة .

وبالجملة: فهذا من أبطل الأقوال وأفسدها، وهو أفسد من قول قال إنها بالجابية، فإن ذلك مكان متسع فضاء بخلاف البئر الضيقة .

وأما قول من قال: إن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت.

فهذا مروى عن سلمان الفارسي، والبرزخ هو الحاجز بين شيئين .

وكأن سلمان أراد بها في أرض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك، تذهب حيث شاءت، وهذا قول قوى، فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة؛ بل هي في برزخ بينهما.

فأرواح المؤمنين في برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم، وأرواح الكفار في برزخ ضيق فيه الغم والعذاب.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٠] فالبرزخ هنا ما بين الدنيا والآخرة، وأصله الحاجز بين الشيئين .

وأما قول من قال: إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن يساره.

فلعمر الله، لقد قال قولا يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الإسراء: فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رآهم كذلك .

ولكن لا يدل ذلك على تعادلهم في اليمين والشمال، بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلو والسعة، وهؤلاء عن يساره في السفل والسجن .

وقد قال أبو محمد ابن حزم: إن ذلك البرزخ الذى رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند السماء الدنيا.

قال: وذلك عند منقطع العناصر.

قال: وهذا يدل على أنها عنده تحت السماء حيث تنقطع العناصر، وهي الماء والتراب، النار، والهواء، وهو دائمًا يشنع على من قال قولا لا دليل عليه، فأى دليل له على هذا القول من كتاب وسنة؟

وسيأتى إشباع الكلام على قوله، إذا انتهينا إليه إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فإذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وآدم في السماء الدنيا، وقد ثبت أن أرواح الشهداء في ظل العرش، والعرش فوق السماء السابعة، فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبى صلى الله عليه وآله وسلم هناك فى السماء الدنيا؟

فالجواب: من وجوه:

أحدها: أنه لايمتنع كونه عن يمينه فى جهة العلو كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره فى جهة السفل.

الثاني: أنه غير ممتنع أن تعرض على النبى صلى الله عليه وآله وسلم في السماء الدنيا، وإن كان مستقرها فوق ذلك.

الثالث: أنه لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جمعيا هناك.

بل قال: فإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، ومعلوم قطعًا أن روح إبراهيم وموسى فوق ذلك في السماء السادسة والسابعة، وكذلك الرفيق الأعلى[1] أرواحهم فوق ذلك، وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم، كما أن أرواح الأشقياء بعضها أسفل من بعض بحسب منازلهم. والله أعلم.

---

(١) الرفيق الأعلى: اختلف العلماء معنى الرفيق الأعلى فمنهم من قال: المكان الذى تحصل المرافقة فيه مع جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام. ومنهم من قال: الجنة، ومنهم من قال: مجمع الأنبياء. والظاهر والله أعلم أنه المعنى الأول، انظر: فتح البارى [٧/٧٤٤].

وأما قول أبي محمد ابن حزم[1]: إن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

فهذا بناء منه على مذهبه الذى اختاره، وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذا فيه قولان للناس وجمهورهم . على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد.

والذين قالوا: إنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع، إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح.

كما احتج به أبو محمد ابن حزم من قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾[الأعراف : ١٧٢].

وبقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا**﴾[الأعراف : ١١] .

قال: فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهى الأنفس.

وكذلك أخبر عليه السلام: «**أن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلَفَ، وَمَا تَنَاكر منهَا اختلف**» أخرجه مسلم.

قال: وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها، وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها فى الأجساد، والأجساد يؤمئذ تراب.

وقال: لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة -ثم التى توجب التعقيب والمهلة- ثم أقرها سبحانه تعالى، حيث شاء، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت.

وسنذكر ما فى هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هى مخلوقة مع الأبدان أم قبلها؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت.

---

(١) أبو محمد ابن حزم: هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى. أحد أفذاذ العلماء الذين أخرجتهم الأندلس، وهو الذى نشر بها مذهب أهل الظاهر. وكان رحمه الله تعالى حمَّال فنون لكنه جرئ الجنان حاد اللسان ما أوقع مما أوقع الوحشة بينه وبين المعاصرين له من أهل العلم. صنف الكثير. توفى رحمه الله تعالى سنة (٤٥٦هـ). انظر: نفح الطيب (٣٦٤/١)، ووفيات الأعيان (٣٤٠/١).

وقوله: إنها تستقر فى البرزخ الذى كانت فيه قبل خلق الأجساد، مبنى على الاعتقاد الذى اعتقدوه، **وقوله:** إن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن يساره حق أخبر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله: إن ذلك عند منقطع العناصر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا يشبه أقوال أهل الإسلام.

والأحاديث الصحيحة تدل أن الأرواح فوق العناصر فى الجنة عند الله، وأدلة القرآن تدل على ذلك.

وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء فى الجنة، ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم، فكيف تكون روح أبى بكر الصديق، أبى عبد الله بن مسعود، وأبى الدرداء، وحذيفة بن اليمان، وأشباههم ﷺ، عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا الفلك الأدنى وتحت السماء الدنيا، وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السماوات .

وأما قوله: قد ذكر محمد بن نصر المروزى، عن إسحاق بن راهويه، وأنه ذكر هذا الذى قلناه .

قال: وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام .

قلت: محمد بن نصر المروزى ذكر فى كتاب الرد على ابن قتيبة فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾[الأعراف: ١٧٢] .

الآثار التى ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم أخذ الميثاق عليهم وردهم فى صلبه، وأنه أخرجهم مثل الذر، وأنه سبحانه قسمهم إلى شقى وسعيد، وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر .

ثم قال إسحاق: أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد، واستنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟

قالوا: بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل . هذا نص كلامه .

وهو كما ترى لا يدل على أن مستقر الأرواح ما ذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه؛ بل ولا يدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد؛ بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حينئذ فخاطبها ثم ردها إلى صلب آدم، وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله، إذ ليس الغرض في جواب هذه المسألة الكلام في الأرواح هل هي مخلوقة قبل الأجساد أم لا ؟

حتى لو سلم لأبي محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر، ولا أن ذلك الموضع كان مستقرها أو لا .

وأما قول من قال: مستقرها العدم المحض .

فهذا قول من قال: إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة . وهذا قول ابن الباقلاني ومن تبعه .

كذلك قال أبو الهذيل العلاّف: النفس عرض من الأعراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلاني.

ثم قال: هي عرض كسائر أعراض الجسم وهؤلاء عندهم أن الجسم إذا مات عدمت روحه كما تقدم وسائر أعراضه المشروطة بالحياة.

ومن يقول منهم: أن العرض لا يبقى زمانين كما يقوله أكثر الأشعرية.

فمن قولهم: إن روح الإنسان الآن هي غير روحه قبل، وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا أبدا، فيبدل له ألف روح فأكثر في مقدار ساعة من الزمان فما دونها، فإذا مات فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السماوات، ولا تنعم ولا تعذب، وإنما ينعم ويعذب الجسد إذا شاء الله تنعيمه وتعذيبه رد إليه الحياة في وقت يريد نعيمه وعذابه، وإلا فلا روح هناك قائمة بنفسها ألبتة .

وقال بعض أرباب هذا القول: ترد الحياة إلى عجب الذنب، فهو الذي يعذب وينعم وحسب .

وهذا قول يـرده الكتـاب والسـنة وإجمـاع الصحابـة وأدلـة العقـول والفطـن والفطرة، وهو قول من لم يعرف روحه فضلاً عن روح غيره.

وقـد خـاطب اللـه سبحانه النفـس بـالرجوع والدخـول والخـروج، ودلـت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تصعد وتـنزل وتقبـض وتمسـك وترسـل وتستفتح لها أبواب السماء وتسـجد وتتكلـم، وأنهـا تخـرج تسـيل كمـا تسـيل القطرة من فيّ السقاء، وتكفن وتحنط فى أكفان الجنة والنار.

وأن ملك الموت يأخذهـا بيـده ثـم تتناولهـا الملائكـة مـن يـده، ويشـم لهـا كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة، وتشيع من سماء إلى سـماء، ثـم تعـالى إلـى الأرض مع الملائكة، وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهى خارجة .

ودل على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتـى تبلـغ الحلقـوم فـى حركتهـا، وجميع ما ذكرنا من الأدلة الدالـة علـى تلاقـى الأرواح وتعارفهـا، وأنهـا أجنـاد مجندة إلى غير ذلك، تبطل هذا القول .

وقد شاهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشماله، وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«أنَّ نسمةَ المُؤمنِ طـائر يُعَلَـقُ فِى شَجرِ الجَنةِ»**.

«وَأَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِى حَوَاصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ»

وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدوًا وعشـيًا. ولمـا أورد ذلك على ابن الباقلانى لج فى الجواب.

قال: يخرج على هذا أحد وجهين: إما بأن يوضع عرض من الحيـاة فـى أول من أجزاء الجسم.

وإما أن يخلق لتلك الحياة والنعيم والعذاب جسد آخر .

وهذا قول فى غاية الفساد من وجوه كثـيرة. وأى قـول أفسـد مـن قـول مـن يجعل روح الإنسان عرضا من الأعراض تتبدل كل ساعة ألوفا من المرات، فـإذا فارقه لهذا العرض، لم يكن بعد المفارقـة روح تنعـم ولا تعـذب ولا تصعـد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل، فهذا قول مخالف للعقل ونصوص الكتـاب والسـنة والفطرة، وهو قول من لم يعرف نفسه .

وسيأتى ذكر الوجوه الدالة على بطلان هذا القول فى موضعه من هذا الجواب -إن شاء الله - وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة، ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام.

وأما قول من قال: إن مستقرها بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان .

فهذا القول فيه حق وباطل .

فأما الحق: فما أخبر الصادق المصدوق، صلى الله عليه وسلم، عن أرواح الشهداء أنها فى حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هى لها كالأوكار للطائر وقد صرح بذلك فى قوله: **«جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُم فِى أَجْوَافِ طَيرِ خُضْرٍ»**.

يحتمل أن يكون هذا الطائر مركبا للروح وكالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء.

ويحتمل أن يكون الروح فى صورة طائر، وهذا اختيار أبى محمد بن حزم، وأبى عمر بن عبد البر، وقد تقدم كلام أبى عمر و الكلام عليه.

وأما ابن حزم فإنه قال: معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«نسْمَةُ المؤمنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ» وهو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل، وإنما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم، أن نسمة المؤمن طائر يعلق، بمعنى أنها تطير فى الجنة لا أنها تمسخ فى صورة الطير.

قال: فإن قيل: إن النسمة مؤنثة.

قلنا: صح عن عربى فصيح أنه قال: أتتك كتابى فاستخففت بها، فقيل له : أتؤنث الكتاب؟

قال: أو ليس صحيفة، وكذلك النسمة تذكر كذلك.

قال: وأما الزيادة فيها أنها فى حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التي تأوى إليها، والحديثان معا حديث واحد، وهذا الذى قاله في غاية الفساد لفظا ومعنى فإن حديث: **«نسْمَةُ المؤمنِ طائرٌ يُعَلَّقُ فِى شَجَرِ خُضْرِ»**.

غير حديث: «**أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِى حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ**» والذى ذكره محتمل فى الحديث الأول، وأما الحديث الثانى فلا يحتمله بوجه، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم، أخبر أن أرواحهم فى حواصل طير. وفى لفظ «**فى أجواف طير خضر**» وفى لفظ «**بيض**» وأن تلك الطير تسرح فى الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها، ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش هى لها كالأوكار للطائر.

وقوله: إن حواصل تلك الطير هى صفة القناديل التى تأوى اليها خطأ قطعًا؛ بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير.

فهاهنا ثلاثة أمور صرح بها الحديث: أرواح، وطير هى فى أجوافها، وقناديل هى مأوى لتلك الطير.

والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح، والطير تسرح وتذهب وتجىء والأرواح فى أجوافها.

فإن قيل: يحتمل أن تجعل نفسها فى صورة طير، لا أنها تركب فى بدن طير، كما قال تعالى: ﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾[الانفطار : ٨] .

ويدل عليه قوله فى اللفظ الآخر: «**أَرْوَاحُهُم كَطَيْرٍ خُضْرٍ**» كذلك رواه ابن أبى شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله.

قال أبو عمرو: والذى يشبه عندى والله أعلم، أن يكون القول قول من قال: كطير أو صورة طير لمطابقته لحديثنا المذكور، يعنى حديث كعب بن مالك فى نسمة المؤمن.

فالجواب: أن هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين، والذى رواه مسلم فى الصحيح من حديث الأعمش عن مسروق فلم يختلف حديثهما أنها فى أجواف طير خضر.

وأما حديث ابن عباس فقال عثمان بن أبى شيبة:

ثنا عبد الله بن إدريس، عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ -يَعْنِى يَومُ أُحُد- جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُدلاةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ، نُرْزَقُ لِئَلا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، وَلايَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**»[آل عمران:١٦٩].

وأما حديث كعب بن مالك فهو فى السنن الأربعة ومسند أحمد ولفظه للترمذى: أن صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة**». قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

ولا محذور فى هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصًا من كتاب ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التى مزقوها لله أبدانًا خيرًا منها تكون مركبًا لأرواحهم ليحصل بها كمال تنعمهم، فإذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التى كانت فيها فى الدنيا.

فإن قيل: فهذا هو القول بالتناسخ وحلول الأرواح فى أبدان غير أبدانها التى كانت فيها.

قيل: هذا المعنى الذى دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ، ولا يبطله تسمية المسمى له تناسخًا.

كما أن إثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل، وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيبًا وتجسيمًا.

وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من إثبات أفعاله: وكلامه بمشيئته.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث.

وكما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه، ومباينته لهم. واستوائه على عرشه، وعروج الملائكة والروح إليه ونزولها من عنده، وصعود الكلم الطيب إليه، وعروج رسوله إليه ودنوه منه حتى سار قاب قوسين أو أدنى، وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حيزا أو جهة أو تجسيما.

قال الإمام أحمد: لا تزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين، فإن هذا شأن أهل البدع يلقبون أهل السنة وأقوالهم بالألقاب التى ينفرون منها الجهال ويسمونها حشوًا وتركيبًا وتجسيمًا، ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزًا أو جهة؛ ليتوصلوا بذلك إلى نفى علوه على خلقه واستوائه على عرشه.

كما تسمى الرافضة موالاة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كلهم، ومحبتهم والدعاء لهم نصبا.

وكما تسمى القدرية المجوسية إثبات القدر جبرًا. فليس الشأن فى الألقاب وإنما الشأن فى الحقائق.

والمقصود: أن تسمية ما دلت عليه السنة الصريحة من جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تناسخا لا يبطل هذا المعنى.

وإنما التناسخ الباطل ما تقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد: أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التى تناسبها وتشاكلها، فإذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان الحيوانات فتنعم فيها أو تعذب ثم تفارقها، وتحل فى أبدان أخر تناسب أعمالها وأخلاقها.

وهكذا أبدًا فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لا معاد لها عندهم غير ذلك.

فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وهو كفر بالله واليوم الآخر.

وهذه الطائفة يقولون: إن مستقر الأرواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التى تناسبها، وهو أبطل قول وأخبثه.

ويليه قول من قال: إن الأرواح تعدم جملة بالموت، ولا تبقى هناك روح تنعم ولا تعذب؛ بل النعيم والعذاب يقع على أجزاء الجسد أو على جزء منه إما عجب أو غيره، فيخلق الله فيه الألم واللذة. إما بواسطة رد الحياة إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أو بدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم، فهؤلاء عندهم لا عذاب في البرزخ إلا على الأجساد.

ومقابلهم من يقول: إن الروح لا تعاد إلى الجسد بوجه، ولا تتصل به، والعذاب والنعيم على الروح فقط، والسنة الصريحة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء، وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين.

فإن قيل: فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح ومأخذهم، فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقده؟

قيل: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت.

فمنها: أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جمعيهم؛ بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش: أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فقال: يا رسول الله، مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «**الجنةُ، فلما ولى قال: إلا الدَّيْنَ سَارَني به جبريلُ آنِفًا**»[1].

ومنهم: من يكون محبوسًا على باب الجنة كما في الحديث الآخر: «**رأيتُ صاحِبَكُم محبُوسًا على بَابِ الجَنَّةِ**».

ومنهم: من يكون محبوسًا في قبره، كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد. **فقال الناس:** هنيئا له الجنة.

---

(١) الحديث: أخرجه النسائي، كتاب: الجهاد (٣١٥٥). والإمام أحمد في مسنده (٤/٣٥٠).

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ التي غَلَّهَا لتشتعلُ نارًا فِي قَبْرِهِ**»[1].

ومنهم: من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس: «**الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»[2].

وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء.

ومنهم: من يكون محبوسًا في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحًا سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية، كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب إليه؛ بل هي أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك، كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها، فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ، ويوم المعاد، كما تقدم في الحديث. ويجعل روحه -يعني المؤمن- مع النسيم الطيب، أي الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك.

ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه، وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد؛ بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض. وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل إعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضًا، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضًا، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأنا غير شأن البدن،

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، (٤٢٣٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان (١١٥).
(٢) الحديث: أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٦٦).

وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيـه، وهـي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعودًا وهبوطًا، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسـة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولـذة ونعيم وألـم أعظـم ممـا كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبـس والألـم والعـذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطـلاق. ومـا أشبه حالهـا فـي هـذا البدن بحال الولد في بطن أمه، وحالها بعـد المفارقـة بحالـه بعـد خروجـه مـن البطن إلى هذه الدار، فلهذه الأنفس أربع كل دار أعظم من التي قبلها.

الدار الأولى: في بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

والدار الثانية: هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة: دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسـبها إليهـا كنسبة هذه الدار إلى الدار الأولى.

والدار الرابعة: دار القرار، وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدهـا، والله ينقلها في هذه الدور طبقًا بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليـق بها سواها ، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لهـا إليهـا ، ولهـا فـي كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى - فتبارك الله فاطرها ومنشؤها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها، الذي فاوت بينهـا فـي درجـات سـعادتها وشـقاوتها كمـا فـاوت بينهـا فـي مراتـب علومهـا وأعمالهـا وقواهـا وأخلاقها، فمن عرفها كما ينبغي شـهد أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمـر كلـه، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صـدق أنبيائه ورسـله، وأن الـذي جـاءوا بـه هـو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر، وما خالفه فهو الباطل. وبالله التوفيق .

المسألة السابعة عشرة

انتفاع أرواح الموتى بشىء من سعى الأحياء

وأما المسألة السابعة عشرة وهى: هل تنتفع أرواح الموتى بشىء من سعى الأحياء أم لا؟

فالجواب: أنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.

أحدهما: ما تسبب إليه الميت فى حياته .

والثانى: دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع ما الذى يصل من ثوابه: هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟

فعند الجمهور: يصل ثواب العمل نفسه وعند الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق، واختلفوا فى العبادة البدنية، كالصوم، والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر.

فمذهب الأمام أحمد وجمهور السلف وصولها وهو قول بعض أصحاب أبى حنيفة، نص على هذا الأمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال.

قال: قيل لأبى عبد الله الرجل يعمل الشىء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟

قال: أرجو.

وقال: الميت يصل إليه كل شىء من صدقة أو غيرها.

وقال أيضًا: اقرأ آية الكرسى ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقل اللهم إن فضله لأهل المقابر.

والمشهور من مذهب الشافعى ومالك أن ذلك لا يصل.

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شىء ألبتة لا دعاء ولا غيره، فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه فى حياته.

ما رواه مسلم فى صحيحه[1]:

من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه، فإنه هو الذى تسبب إليها.

وفى سنن ابن ماجه[2]:

من حديث أبى هريرة قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **إنما يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ**».

وفى صحيح مسلم أيضًا[3]:

من حديث جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ سَنَّ فى الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غير أَنْ يُنْقَصُ مِنْ أجُورِهِم شىءٌ، ومَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَةً سَيِّئَةً كان عليهِ وِزْرَهَا ووِزْرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَير أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِم شىءٌ**».

وهذا المعنى روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، من عدة وجوه صحاح وحسان .

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الوصية (١٦٣١).

(٢) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: المقدمة (٢٤٢).

(٣) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة (١٠١٧).

وفى المسند عن حذيفة[١]:

قال: سأل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمسك القوم ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم. فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ سنَّ خَيْرًا فاستُنَّ بِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمَنْ أجور من تَبِعَهُ غَيرَ مُنْتَقِص مِنْ أجُورِهِم شيئًا، وَمَنْ سَنَّ شرًا فَاستُنَّ بِهِ كَانَ عليه وِزْرُهُ وَمن أَوْزارِ مَنْ تَبِعَهُ غَيرَ مُنْتَقِص من أَوْزَارِهِم شيئًا»** .

وقد دل على هذا قوله ، صلى الله عليه وسلم: **«لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلمًا إلاَّ كَانَ على ابنِ آدمَ الأولَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأنَّه أوْلَ من سنَّ القَتْلُ»**[٢].

فإذا كان هذا فى العذاب والعقاب ، ففى الفضل والثواب أولى وأحرى.

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه:

القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع. أما القرآن فقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾**[الحشر : ١٠].

فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد يمكن أن يقال إنما انتفعوا باستغفارهم لأنهم سنوا لهم الإيمان بسبقهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين فى حصوله لهم، ولكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة.

وفى السنن[٣]:

من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذَا صَلَّيتُم على الميتِ فأخْلِصُوا لهُ الدُّعَاءَ»**.

---

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد فى سننه (٢/٥٢٠).

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] (٦٨٦٧)، ومسلم، كتاب: القسامة، باب: بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٣) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز (٣١٩٩)، وابن ماجه، كتاب: ما جاء فى الجنائز (١٤٩٧).

وفى صحيح مسلم[1]:

من حديث عوف بن مالك، قال صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «**اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ وارْحَمْهُ وَعافِهِ واعْفُ عَنْهُ، وأكْرِم نُزُلَهُ وأوْسِع مُدْخَلَهُ؛ وَاغْسِلْهُ بالماءِ والثَّلجِ البَرَد، وَنَقِّهِ مِن الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنَس، وَأَبْدِلْهُ دارًا خيرًا من دَارِه، وأهلاً خيرًا من أهْلِه، وزوجًا خيرًا من زَوْجِه، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ من عذَابِ القَبْرِ وعذابِ النَّارِ**» .

وفى السنن[2]:

عن واثلة بن الأسقع، قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: «**اللَّهُمَ إنَّ فلانَ ابْنَ فلان فِي ذِمَّتِكَ، وحَبْلَ جِوَارِكَ، فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ وَعَذَاب النَّارِ وَأنْتَ أهلُ الوفَاءِ والحقِّ، فاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيم**».

وهذا كثير فى الأحاديث؛ بل هو المقصود بالصلاة على الميت، وكذلك الدعاء له بعد الدفن .

وفى السنن[3]:

من حديث عثمان بن عفان ﷺ، قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذا فُرِغَ من دفن الميت، وقف عليه فقال: «**اسْتَغْفِرُوا لأخيكُم واسْألُوا لَهُ التَثْبِيتَ فَإنَّهُ الآنَ يُسْألُ**». وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم .

كما فى الصحيح :

من حديث بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السلامُ عليْكُم أهْلَ الدِّيَار من المُؤْمِنينَ والمسْلِمِينَ، وَإنَّا إن شَاءَ اللَّهُ بِكُم لاحِقُون، نَسْألُ اللَّه لَنَا وَلَكُم العَافِيَةَ**»[4].

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز (٩٦٣).
(٢) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز (٣٢٠٢).
(٣) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز (٣٢٢١).
(٤) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز (٩٧٥).

وفى صحيح مسلم[1]:

أن عائشة رضى الله عنها سألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم، كيف نقول إذا استغفرت لأهل القبور ، قال: «**قُولِى السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِن المُؤْمِنِينَ والمسْلِمينَ؛ وَيَرْحَمُ اللَّهُ المُسْتَقدِمِين مِنا والمسْتَأْخِرِينَ، وإنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بكُم للاحِقُونَ**» .

وفى صحيحه عنها[2]:

أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع، فقال: «**السلامُ عَلَيْكُم دَارَ قَومٍ مُؤْمِنِينَ وَأَتَاكُم ما تُوعَدُون غداً مُؤَجَّلُون، وَإنَّا إنْ شَاءَ اللَّهِ بِكُم لاحِقُون، اللَّهُم اغفِر لأهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَد**».

ودعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم، للأموات فعلا وتعليما ، ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصرًا بعد عصر أكثر من أن يذكر وأشهر من أن ينكر، وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد فى الجنة فيقول : أنى لى هذا ؟ فيقال: بدعاء ولدك لك .

وأما وصول ثواب الصدقة:

ففى الصحيحين[3]:

عن عائشة رضى الله عنها: أن رجلاً أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله إن أمى افتلتت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال : «**نعم**» .

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز (٩٧٤).

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز (٩٧٤).

(٣) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز (١٣٨٨)، ومسلم، كتاب: الزكاة (١٠٠٤).

وفى صحيح البخارى[1]:

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أن سعد بن عبادة، توفيت أمه وهو غائب عنها، فأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: «**نعم**». قال فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها.

وفى صحيح مسلم[2]:

عن أبى هريرة ﷺ: أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم: إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال: «**نعم**» .

وفى السنن ومسند أحمد:

عن سعد بن عبادة أنه قال: يا رسول الله ، إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟

قال: «**الماء**» .فحفر بئرًا وقال: هذه لأم سعد .

وعن عبد الله بن عمرو، أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين، وأن عمرًا سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم، عن ذلك، فقال: «**أَمَّا أَبُوكَ فَلَو أَقَرَّ بِالتَّوحيدِ فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ**»[3].

وأما وصول ثواب الصوم:

ففى الصحيحين[4]:

عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيه صِيَامُ صَامَ عَنْهُ وليُّه**» .

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الوصايا (٢٧٥٦).
(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الوصية (١٦٣٠).
(٣) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الوصايا (٢٨٨٣)، والإمام أحمد فى مسنده (١٨٢/٢).
(٤) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الصوم، (١٩٥٢)، ومسلم، كتاب: الصيام (١١٤٧).

وفى الصحيحين أيضا[1]:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله إن أمى ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ قال: **«نَعَمَ، فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى»** .

وفى رواية: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: **«أَفَرَأَيْتِ لو كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتُهُ أَكَانَ يُؤَدِى ذَلِكَ عَنْهَا؟»** قالت: نعم. قال: **«فَصُومِى عَنْ أُمِّكِ»**[2]. وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقًا.

وعن بريدة ﷺ قال: بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أتته امرأة فقالت : إنى تصدقت على أمى بجارية وأنها ماتت.

فقال: «وجب أجرك وردها عليك الميراث».

فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟

قال: «صُومِى عَنْهَا».

قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟

قال: «حُجِّى عَنْهَا»[3].

وفى لفظ: «صَوْمُ شَهْرَين».

وعن ابن عباس رضى عنهما: أن امرأة ركبت البحر، فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرًا، فأنجاها الله فلم تصوم حتى ماتت، فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكرت ذلك فقال: **«صومى عنها»**[4].

وكذلك روى عنه، صلى الله عليه وسلم، وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الصوم، (١٩٥٣)، ومسلم، كتاب: الصيام (١١٤٨).

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الصيام (١١٤٨).

(٣) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الصيام (١١٤٩)، والترمذى، كتاب: الزكاة (٦٦٧)، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

(٤) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان والنذور (٣٣٠٨)، والإمام أحمد فى مسنده (١/٣٣٨).

ففى السنن[1]:

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامُ شَهْرٍ فَلْيُطْعِمُ عَنْهُ لِكُلِّ يوم مسكينًا»**.

قال الترمذى: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه ، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفًا .

وفى سنن أبى داود[2]:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: **«إذا مَرِضَ الرَّجلُ فِى رمضانَ ولَم يَصُم أَطْعِم عَنْهُ، وَلَمْ يَكُن عَنْهُ قَضَاءٌ، وإن نَذَرَ قَضَى عَنْهُ وَلِيُّه»**.

وأما وصول ثواب الحج:

ففى صحيح البخارى[3]:

عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟

قال: «حُجِّى عَنها، أَرَأَيْتِ لَو كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيتِه؟ فَأَقْضُوا دَيْنَ اللّهِ فاللّهُ أَحَقُّ بالقَضَاءِ». وقد تقدم حديث بريدة ، وفيه أن أمى لم تحج أقط أفأحج عنها؟

قال: «حُجِّى عنها».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن امرأة سنان بن سلمة الجهنى سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزى أن تحج عنها؟

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: الصوم (٧١٧)، وابن ماجه، كتاب: الصيام (١٧٥٧).

(٢) الحديث: أخرجه، أبو داود، كتاب: الصوم (٢٤٠١).

(٣) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الحج، باب: الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة (١٨٥٢).

قال: «نَعَم، لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّهَا دَيْنٌ فَقَضَتْهُ عَنْهَا أَلَم يَكُن يجزىءُ عنها؟»[1].

وروى أيضًا عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن امرأة سألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم، عن ابنها مات ولم يحج، قال: **«حُجِّى عن ابْنِكِ»** .

وروى أيضًا عنه قال: قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: **«أَرَأَيْتَ لو كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قاضِيه؟»**. قال: نعم. قال: **«فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ»**[2].

وأجمع المسلمون: على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبى أو من غير تركته، وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما قال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«الآنَ بَرَدَتْ عَلَيهِ جَلْدَتُه»**[3].

وأجمعوا: على أن الحى إذا كان له فى ذمة الميت حق من الحقوق فأحله منه أنه ينفعه ويبرأ منه، كما يسقط من ذمة الحى، فإذا سقط من ذمة الحى بالنص والإجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ولم يرض به رده فسقوطه من ذمة الميت بالإبراء حيث لا يتمكن من أدائه أولى وأحرى، وإذا انتفع بالإبراء والإسقاط، فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء ولا فرق بينهما، فإن ثواب العمل حق المهدى الواهب، فإذا جعله للميت انتقل إليه ، كما أن ما على الميت من الحقوق من الدين وغيره وهو محض حق الحى فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته، فكلاهما حق للحى. فأى نص أو قياس أو قاعدة من قواعد الشرع يوجب وصول أحدهما ويمنع وصول الآخر ؟

وهذه النصوص متظاهرة على وصول ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحى عنه، وهذا محض القياس فإن الثواب حق للعامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله فى حياته، وإبرائه له منه بعد موته وقد

(١) الحديث: أخرجه النسائى، كتاب: مناسك الحج، باب: الحج عن الميت الذى لم يحج (٢٦٣٣).
(٢) الحديث: أخرجه النسائى، كتاب: مناسك الحج، باب: تشبيه قضاء الحج بقضاء الدين (٢٦٣٩).
(٣) الحديث: أخرجه، الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٠).من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بوصول ثواب الصوم الذى هو مجرد ترك ونية تقوم بالقلب لا يطلع عليه إلا الله ، وليس بعمل الجوارح، وعلى وصول ثواب القراءة عمل باللسان تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأولى ، ويوضحه أن الصوم نية محضة وكف النفس عن المفطرات، وقد أوصل الله ثوابه إلى الميت ، فكيف بالقراءة التى هى عمل ونية؟ بل لا تفتقر إلى النية ، فوصول ثواب الصوم إلى الميت فيه تنبيه على وصول سائر الأعمال .

والعبادات قسمان؛ مالية وبدنية:

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة على وصول ثواب سائر العبادات المالية، ونبه بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب العبادات البدنية . وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية . فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار وبالله التوفيق .

قال المانعون فى الوصول: قال الله تعالى :﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإنسَانِ إلا مَا سَعَى**﴾[النجم: ٣٩]. وقال :﴿**وَلا تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[يس :٥٤]. وقال: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾[البقرة : ٢٨٦].

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**إذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلَهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أو وَلَدٌ صالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ**»[١] .

فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه فى الحياة، وما لم يكن قد تسبب إليه فهو منقطع عنه، وأيضًا فحديث أبى هريرة ﷺ المتقدم وهو قوله: «**إنَّ مما يَلْحَقُ الميتَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسنَاتِهِ بَعْدَ مَوتِهِ عِلمًا نَشَرهُ**» الحديث. يدل على أنه ينتفع بما كان قد تسبب فيه .

وكذلك حديث أنس يرفعه: «**سَبْعٌ يَجْرِى عَلَى العَبْدِ أَجْرُهُنَّ وهُو فى قَبْرِهِ بعد مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّم عِلْمًا، أو أكْرَى نَهْرًا، أو حَفَرَ بئرًا، أو غَرَسَ نَخلاً، أو بَنَىَ مسجدًا، أو وَرَّثَ مصْحَفًا، أو تَرَكَ وَلَدًا صَالِحًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بعد مَوْتِهِ**». وهذا يدل على أن ما عدا ذلك لا يحصل له منه ثواب، وإلا لم يكن للحصر معنى .

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الوصيه (١٦٣١)، بلفظ «إذا مات الإنسان».

قالوا: والإهداء حوالة، والحوالة إنما تكون بحق لازم، والأعمال لا توجب الثواب، وإنما هو مجرد تفضل الله وإحسانه، فكيف يحيل العبد على مجرد الفضل الذى لا يجب على الله؛ بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته، وهو نظير حوالة الفقير على من يرجو أن يتصدق عليه. ومثل هذا لا يصح إهداؤه وهبته كصلة ترجى من ملك لا لتحقق حصولها .

قالوا: وأيضا فالإيثار بأسباب الثواب مكروه، وهو الإيثار بالقرب فكيف الإيثار بنفس الثواب الذى هو غاية، فإذا كره الإيثار بالوسيلة، فالغاية أولى وأحرى. وكذلك كره الإمام أحمد التأخر عن الصف الأول ، وإيثار الغير به لما فيه من الزغبة عن سبب الثواب .

قال أحمد من رواية حنبل: وقد سئل عن الرجل يتأخر عن الصف الأول ويقدم أباه فى موضعه.

قال: ما يعجبنى ، هو يقدر أن يبر أباه بغير هذا .

قالوا: وأيضا لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ نقل الثواب والإهداء إلى الحى وأيضًا لو ساغ ذلك لهذا نصف الثواب وربعه وقيراط منه، وأيضا لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه، وقد قلتم إنه لابد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت، وإلا لم يصل إليه، فإذا ساغ له نقل الثواب، فأى فرق بين أن ينوى قبل الفعل أو بعده .

وأيضا لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات على الحى، كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التى تتطوع بها .

قالوا: وإن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل، فإن المقصود منها عين المكلف العامل المأمور المنهى، فلا يبدل المكلف الممتحن بغيره ولا ينوب غيره عنه فى ذلك، إذ المقصود طاعته هو نفسه وعبوديته، ولو كان ينتفع بإهداء غيره له من غير عمل منه لكان أكرم الأكرمين أولى بذلك، وقد حكم سبحانه أنه لا ينتفع إلا بسعيه وهذه سنته تعالى فى خلقه وقضاؤه، كما هى سنته فى أمره وشرعه، فإن المريض لا ينوب عنه غيره فى شرب الدواء، والجائع والظمآن والعارى لا ينوب عنه غيره فى الأكل والشرب واللباس .

قالوا: ولو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه.

قالوا: ولهذا لا يقبل الله إسلام أحد ولا صلاته عن صلاته، فإذا كان رأس العبادات لا يصح إهداء ثوابه فكيف فروعها؟

قالوا: وأما الدعاء فهو سؤال ورغبة إلى الله أن الله يتفضل على الميت ويسامحه ويعفو عنه، وهذا إهداء ثواب عمل الحي إليه .

وقال المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة ، كالصدقة والحج.

العبادات نوعان:

نوع لا تدخله النيابة بحال، كالإسلام والصلاة وقراءة القرآن والصيام. فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينقل عنه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره .

ونوع تدخله النيابة كرد الودائع وأداء الديون وإخراج االصدقة والحج ، فهذا يصل ثوابه إلى الميت ، لأنه يقبل النيابة ويفعله العبد في حياته ، فبعد موته بالطريق الأولى والأحرى .

قالوا: أما حديث **«مَنْ مَاتَ وعليه صِيَامَ، صَامَ عَنْهُ وَلِيُّه»**.

فجوابه من وجوه:

أحدها: ما قاله مالك في موطئه، قال: لا يصوم أحد عن أحد، قال: وهو أمر مجمع عليه لا خلاف فيه .

والثاني: أن ابن عباس رضى الله عنهما هو الذى روى حديث الصوم عن الميت، وقد روى عنه النسائى.

أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، ثنا يزيد بن زريع، وثنا حجاج الأحول، ثنا أيوب بن موسى، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«لا يُصَلِّى أحدٌ عن أحدٍ»**.

الثالث: أنه حديث اختلف في إسناده ، هكذا قال صاحب المفهم فى شرح مسلم.

الرابع: أنه معارض بنص القرآن كما تقدم من قوله تعالى: **﴿وَأَنْ لَيْسَ للإنسَانِ إلا مَا سَعَى﴾**[النجم : ٣٩].

الخامس: أنه معارض بما رواه النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: **«لا يُصلّى أحَدٌ عن أحدٍ، وَلا يَصُومُ أحَدٌ عن أحدٍ، وَلَكِنْ يُطْعَمُ عَنْهُ مَكَانَ كلّ يوم مدًا من حنطة»**.

السادس: أنه معارض بحديث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن نافع، عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ مَاتَ وعليهِ صَومُ رمضانَ يُطْعَمُ عَنْهُ»**[1].

السابع: أنه معارض بالقياس الجلى على الصلاة والإسلام والتوبة ، فإن أحدًا لا يفعلها عن أحد .

قال الشافعى؛ فيما تكلم به على خبر ابن عباس: لم يسم ابن عباس ما كان نذر أم سعى، فاحتمل أن يكون نذر حج، أو عمرة، أو صدقة، فأمره بقضائه عنها، فأما من نذر صلاة أو صيامًا ثم مات فإنه يكفر عنه فى الصوم ولا يصام عنه ولا يصلى عنه ولا يكفر عنه فى الصلاة. ثم قال فإن قيل: أفروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أحدًا أن يصوم عن أحد؟ قيل: نعم.

روى ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

فإن قيل: فلم لا تأخذ به ؟

قيل: حديث الزهرى، عن عبيد الله، عن ابن عباس رضى الله عنهما: عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، نذرا. ولم يسمه مع حفظ الزهرى وطول مجالسة عبيد الله لابن عباس، فلما جاء غيره عن رجل عن ابن عباس يعنى ما فى حديث عبيد الله أشبه أن لا يكون محفوظًا.

فإن قيل: فتعرف الرجل الذى جاء بهذا الحديث يغلط عن ابن عباس ؟

قيل: نعم، روى أصحاب ابن عباس عن ابن عباس أنه قال لابن الزبير: إن الزبير حل من متعة الحج فروى هذا عن ابن عباس أنها متعة النساء. وهذا غلط فاحش، فهذا الجواب عن فعل الصوم .

وأما فعل الحج فإنما يصل منه ثواب الإنفاق، وأما أفعال المناسك فهى كأفعال الصلاة إنما تقع عن فاعلها .

---

(١) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: الصوم (١٧٤٧)، بلفظ: «من مات وعليه صيام شهر».

قال أصحاب الوصول: ليس فى شىء مما ذكرتم ما يعارض أدلة الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة ومقتضى قواعد الشرع ، ونحن نجيب عن كل ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف. وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى**﴾[النجم : ٣٩]. فقد اختلف طرق الناس من المراد بالآية .

فقالت طائفة: المراد بالإنسان هاهنا الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى، وما سعى له بالأدلة التى ذكرناها .

قالوا: وغاية ما فى هذا التخصص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضعيف جدًا ، ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده ، بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذى قبله.

وهو قوله تعالى: ﴿**أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[النجم : ٣٨]. والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح فى إرادة العموم.

لقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى**﴾[النجم:٤٠،٤١]. وهذا يعم الشر والخير قطعا ، ويتناول البر والفجر والمؤمن والكافر.

كقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه**﴾[الزلزلة : ٧، ٨].

وكقوله فى الحديث الإلهى: «**يا عِبَادِي إنمَّا هِي أَعْمَالُكُم أُحْصيهَا لكُم ثمَّ أُوفيكُم إيَّاهَا، فمَنْ وَجَدَ خيرًا فَليحْمَدُ اللَّهَ ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلا نَفْسُه**».

وهو كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾[الانشقاق:٦]. ولا تغتر بقول كثير من المفسرين فى لفظ الإنسان فى القرآن، الإنسان هاهنا أبو جهل، والإنسان هاهنا عقبة بن أبى معيط والإنسان هاهنا الوليد بن المغيرة، فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى:﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾[العصر: ٢].

و﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[العاديات: ٦].

و﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[المعارج: ١٩].

و﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[العلق: ٦،٧].

و﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤].

و﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[الأحزاب: ٧٢].

فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنّته عليه، من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات، وما به من نعمة فمن الله وحده، فهو الذى حبب إلى عبده الإيمان وزينه فى قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان . وهو الذى كتب فى قلبه الإيمان . وهو الذى يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه . وهو الذى يصرف عنهم السوء والفحشاء . وكان يرتجز بين يدى النبى ﷺ .

واللـه لـولا اللـه مـا اهتدينـا ولا تصدقنـا ولا صلينـا

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[يونس: ١٠٠].

وقال تعالى:﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[المدثر: ٥٦].

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير: ٢٩].

فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة بجميع ما فى العالم من ذوات وأفعال وأحوال.

وقالت طائفة: الآية إخبار بشرع من قبلنا، وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سعى له، وهذا أيضا أضعف من الأول أو من جنسه، فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبارًا مقررًا له محتجًا به لا إخبارًا مبطلاً له، وهذا قال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾[النجم: ٣٦].فلو كان هذا باطلا فى هذه الشريعة لم يخبر به إخبارًا مقررًا له نحتج به .

وقالت طائفة: اللام بمعنى على، أى وليس على الإنسان إلا ما سعى، وهذا أبطل من القولين الأولين، فإنه قلب موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه،

ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة. وأما نحو ﴿وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ﴾[غافر: ٥٢]. فهى على بابها أى نصيبهم وحظهم، وأما أن العرب تعرف فى لغاتها: لى درهم بمعنى على درهم فكلا.

وقالت طائفة: فى الكلام حذف تقديره: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى أو سعى له، وهذا أيضا من النمط الأول، فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه، وقول على الله وكتابه بلا علم .

وقالت طائفة أخرى: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الطور: ٢١]. وهذا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما، وهذا ضعيف أيضًا ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضى الله عنهما ولا غيره أنها منسوخة، والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع، فإن الأبناء تبعوا الآباء فى الآخرة كما كانوا تبعًا فى الدنيا، وهذه التبعية هى من كرامة الآباء وثوابهم الذى نالوه بسعيهم، وأما كون الأبناء لحقوا بهم فى الدرجة بلا سعى منهم فهذا ليس هو لهم، وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم فى الجنة، وتفضل على الأبناء بشىء لم يكن لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذين ينشئهم للجنة بغير أعمال، والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه .

فقوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[النجم: ٣٨].

وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾[النجم: ٣٩]. آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بها .

فالأولى: تقتضى أنه لا يعاقب بجرم غيره .

والثانية: تقتضى أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا ـ والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب .

فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥]. فحكم سبحانه لعبده بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة .

أحدها: أن هدى العبد بالإيمان والعمل الصالح لا لغيره .

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره .

الثالث: أن أحدًا لا يؤاخذ بجريرة غيره .

والرابع: أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله .

فتأمل من في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة، وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته .

وقالت طائفة أخرى: المراد بالإنسان هاهنا الحي دون الميت، وهذا أيضا من النمط الأول في الفساد، وهذا كله من سوء التصرف في اللفظ العام. وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه في دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها، وما يتبادر إلى الذهن منها، وهو تصرف فاسد يبطله قطعا السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه، وسبب هذا التصرف السيىء أن صاحبه يعتقد قولا، ثم يرده كلما دل على خلافه بأي طريق اتفقت له، فالأدلة المخالفة لما عنده من باب الصائل لا يبالي بأي شيء دفعه، وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض ؛ بل يصدق بعضها بعضًا .

وقالت طائفة أخرى -وهو جواب أبي الوفاء ابن عقيل- قال: الجواب الجيد عندي أن يقال: الإنسان بسعيه وحسن عشرته مكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد ونكح الأزواج، وأسدى الخير وتودد إلى الناس، فترحموا عليه وأهدوا له العبادات: وكان ذلك أثر سعيه، كما قال، صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ**»[1].

(١) الحديث: أخرجه النسائي، كتاب: البيوع (٤٤٥١)، وابن ماجه، كتاب: التجارات (٢١٣٧).

ويدل عليه قوله فى الحديث الآخر: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له»**[1].

ومن هنا قال الشافعي: إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سببًا لوجوب الحج عليه كأنه فى ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبى، وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم فى الحياة مع عمله، فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الأعمال التى يشتركون فيها، كالصلاة فى جماعة، فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفا لمشاركة غيره له فى الصلاة، بعمل غيره كان سببًا لزيادة أجره، كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر.

بل قد قيل: إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين، وكذلك اشتراكهم فى الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ يَشِدُّ بَعْضُهُ بعضًا»**[2] وشبك بين أصابعه..

ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا، فدخول المسلم مع جملة المسلمين فى عقد الإسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم .

وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش، ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم، وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين، كنوح وإبراهيم

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١). من حديث أبى هريرة ﷺ.

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الصلاة، باب: تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره (٤٨١)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥). من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ.

ومحمد صلى الله عليه وسلم، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه، فكأنه من سعيه يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سببًا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذى يوصل إليه ذلك، وقد دل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم، لعمرو بن العاص: **«إنَّ أبَاكَ لو كَانَ أقَرَّ بالتوحيدِ نَفَعَهُ ذَلِكَ»** يعنى العتق، الذى فعل عنه بعد موته، فلو أتى بالسبب لكان قد سعى فى عمل يوصل إليه ثواب العتق، وهذه طريقة لطيفة حسنة جدا .

وقالت طائفة أخرى: القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره، وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه . وأما سعى غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى. وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

وكذلك قوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾[البقرة: ٢٨٦].

وقوله: ﴿**وَلا تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[يس: ٥٤].

على أن هذه الآية أصرح فى الدلالة على أن سياقها إنما ينفى عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجريرته.

فإن الله سبحانه قال: ﴿**فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[يس: ٥٤].

فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه فى سيئاته أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره. ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء، فإن انتفاعه بما يهدى إليه ليس جزاء على عمله، وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه، وتفضل بها عليه من غير سعى منه؛ بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء.

وأما استدلالكم بقوله، صلى الله عليه وسلم: «إذا مات العبد انقطع عمله»:

فاستدلال ساقط، فإنه، صلى الله عليه وسلم، لم يقل انقطع انتفاعه، وإنما أخبر عن انقطاع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له فقد وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو، والمنقطع شيء والواصل إليه شيء آخر، وكذلك الحديث الآخر وهو قوله[1]: «**إنَّ مما يلحقُ الميتَ مِنْ حسناتِهِ وعَمَلِهِ**» . فلا ينفي أن يلحقه غير ذلك من عمل غيره وحسناته .

وأما قولكم الإهداء حوالة:

والحوالة إنما تكون بحق لازم فهذه حوالة المخلوق على المخلوق، وأما حوالة المخلوق على الخالق، فأمر آخر لا يصح قياسها على حوالة العبيد بعضهم على بعض، وهل هذا إلا من أبطل القياس وأفسده، والذى يبطله إجماع الأمة على انتفاعه بأداء دينه وما عليه من الحقوق وإبراء المستحق لذمته والصدقة والحج عنه بالنص الذى لا سبيل إلى رده ودفعه، وكذلك الصوم، وهذه الأقيسة الفاسدة لا تعارض نصوص الشرع وقواعده .

وأما قولكم الإيثار بسبب الثواب مكروه:

وهي مسألة الإيثار بالقرب، فكيف الإيثار بنفس الثواب الذى هو الغاية ؟

فقد أجيب عنه بأجوبة:

أحدها: أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد الحى فيكون قد آثر بالقربة غير أهلها وهذا قد آمن بالموت. فإن قيل: والمهدى إليه أيضًا لا يكون مات على الإسلام باطنا فلا ينتفع بما يهدى إليه، وهذا سؤال فى غاية البطلان، فإن الإهداء له من جنس الصلاة عليه والاستغفار له والدعاء له، فإن كان أهلا وإلا انتفع به الداعى وحده .

---

(١) الحديث: أخرجه ابن ماجه، كتاب: السنة، باب: ثواب معلم الناس الخير (٢٤٢). من حديث أبي هريرة ﷺ.

الجواب الثانى: أن الإيثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها، فلو ساغ الإيثار بها لأفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر بخلاف إهداء ثوابها، فإن العامل يحرص عليها ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم، فبينهما فرق ظاهر .

الجواب الثالث: أن الله سبحانه يحب المبادرة والمسارعة إلى خدمته والتنافس فيها، فإن ذلك أبلغ فى العبودية، فإن الملوك تحب المسارعة والمنافسة فى طاعتها وخدمتها، فالإيثار مناف لمقصود العبودية، فإن الله سبحانه أمر عبده بهذه القربة إما إيجابًا وإما استحبابًا، فإذا آثر بها ترك ما أمره وولاه غيره، بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقربة ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم.

وقد قال تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[الحديد: ٢١] .

وقال: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[البقرة: ١٤٨] .

ومعلوم أن الإيثار بها ينافى الاستباق إليها والمسارعة، وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضا بالقرب ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها .

قال عمر: والله ما سابقنى أبو بكر إلى خير إلا سبقنى إليه.

حتى قال: والله لا أسابقك إلى خير أبدا.

وقد قال تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[المطففين: ٢٦].

يقال: نافست فى الشىء منافسة ونفاسا إذا رغبت فيه على وجه المباراة، ومن هذا قولهم: شىء نفيس، أى هو أهل أن يتنافس فيه، ويرغب فيه، وهذا أنفس مالى أى أحبه إلى، وأنفسنى فلان فى كذا: أى أرغبنى فيه وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه .

وأما قولكم: لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحي :
فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه قد ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم.

قال القاضي: وكلام أحمد لا يقتضي التخصيص بالميت.

فأنه قال: يفعل الخير، ويجعل نصفه لأبيه وأمه ولم يفرق، واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال: هذا فيما بعد، وهو تلاعب بالشرع وتصرف فى أمانة الله وإسجال على الله سبحانه بثواب على عمل يفعله إلى غيره، وبعد الموت قد جعل لنا طريقًا إلى إيصال النفع، كالاستغفار والصلاة على الميت . ثم أورد على نفسه سؤالا وهو: فإن قيل: أليس قضاء الدين وتحمل الكل حال الحياة كقضائه بعد الموت، فقد استوى ضمان الحياة وضمان الموت فى أنهما يزيلان المطالبة عنه، فإذا وصل قضاء الديون بعد الموت وحال الحياة فاجعلوا ثواب الإهداء واصلاً حال الحياة وبعد الموت؟

وأجاب عنه: بأنه لو صح هذا وجب أن تكون الذنوب تكفر عن الحى بتوبة غيره عنه، ويندفع عنه مأثم الآخرة بعمل غيره واستغفارهم .

قلت: وهذا لا يلزم ؛ بل طرد ذلك انتفاع الحى بدعاء غيره له واستغفاره له وتصدقه عنه وقضاء ديونه، وهذا حق، وقد أذن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى أداء فريضة الحج عن الحى المعضوب والعاجز وهما حيان .

وقد أجاب غيره من الأصحاب: بأن حال الحياة لا تثق بسلامة العاقبة خوفًا أن يرتد المهدى له فلا ينتفع بما يهدى إليه .

قال ابن عقيل: وهذا عذر باطل بإهداء الحي، فإنه لا يؤمن أن يرتد ويموت فيحبط عمله كله ومن جملته ثواب ما أهدى إلى الميت .

قلت: هذا لا يلزمهم وموارد النص والإجماع تبطله وترده فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أذن فى الحج والصوم عن الميت، وأجمع الناس على براءة ذمته من الدين إذا قضاه عنه الحى، ومع وجود ما ذكر من الاحتمال .

والجواب: أن يقال: ما أهداه من أعمال البر إلى الميت فقد صار ملكًا له، فلا يبطل برده فاعله بعد خروجه عن ملكه كتصرفاته التى تصرفها قبل الردة من عتق وكفارة، بل لو حج عن معضوب ثم ارتد بعد ذلك لم يلزم المعضوب أن يقيم غيره يحج عنه، فأنه لا يؤمن فى الثانى والثالث ذلك. على أن الفرق بين الحى والميت أن الحى ليس بمحتاج كحاجة الميت، إذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره، فعليه اكتساب الثواب بنفسه وسعيه بخلاف الميت .

وأيضًا فإنه يقضى إلى اتكال بعض الأحياء على بعض، وهذه كبيرة، فإن أرباب الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه واستأجروا من يفعل ذلك عنهم، فتصير الطاعات معاوضات، وذلك يفضى إلى إسقاط العبادات والنوافل ويصير ما يتقرب به إلى الله يتقرب به إلى الآدميين، فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لواحد منهما .

ونحن نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة ونحبطها بأخذ الأجر عليها كالقضاء والفتيا وتعليم العلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها، فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجهه، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والأكساب الدنوية، وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض، فلذلك جازت فى الحياة وبعد الموت .

وأما قولكم: لو ساغ ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت:

فالجواب من وجهين:

أحدهما: منع اللازمة، فإنكم لم تذكروا عليها دليلاً إلا بمجرد الدعوى.

الثانى: التزام ذلك، والقول به نص عليه الإمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال. ووجه هذا أن الثواب ملك له، فله أن يهديه جميعه، وله أن يهدى بعضه. يوضحه أنه لو أهداه إلى أربعة مثلا يحصل لكل منهم ربعه، فإذا أهدى الربع وأبقى لنفسه الباقى جاز كما لو أهداه إلى غيره.

وأما قولكم: لو ساغ ذلك لساغ إهداءه بعد أن يعمله لنفسه، وقد قلتم إنه لابد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت وإلا لم يصل:

فالجواب: أن هذه المسالة غير منصوصة عن أحمد، ولا هذا الشرط فى الكلام المتقدمين من أصحابه، وإنما ذكره المتأخرون كالقاضى وأتباعه .

قال ابن عقيل: إذا فعل طاعة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأهداها بإن جعل ثوابها للميت المسلم، فإنه يصل إليه ذلك وينفعه بشرط أن يتقدم نية الهدية على الطاعة أو تقارنها.

وقال أبو عبد الله بن حمدان فى رعايته: ومن تطوع بقربة من صدقة وصلاة وصيام وحج وعمرة وقراءة وعتق، وغير ذلك من عبادة بدنية تدخلها النيابة أو عبادة مالية، وجعل جميع ثوابها أو بعضه لميت مسلم حتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ودعا له أو استغفر له، أو قضى ما عليه من حق شرعى، أو واجب تدخله النيابة نفعه ذلك ووصل إليه أجره، وقيل: إن نواه حال فعله أو قبله وصل إليه وإلا فلا .

وسر المسألة أن أوان شرط حصول الثواب أن يقع لمن أهدى له أولا، ويجوز أن يقع للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره . فمن شرط أن ينوى قبل الفعل أو الفراغ منه وصوله، قال: لو لم ينوه وقع الثواب للعامل فلا يقبل انتقاله عنه إلى غيره، فإن الثواب يترتب على العمل ترتب الأثر على مؤثره، ولهذا لو أعتق عبداً عن نفسه كان ولاؤه له، فلو نقل ولاءه إلى غيره بعد العتق لم ينتقل بخلاف ما لو أعتقه عن الغير فإن ولاءه يكون للمعتق عنه .

وكذلك لو أدى دينًا عن نفسه ثم أراد بعد الأداء أن يجعله عن غيره لم يكن له ذلك، وكذلك لو حج أو صام أو صلى لنفسه، ثم بعد ذلك أراد أن يجعل ذلك عن غيره لم يملك ذلك، ويؤيد هذا أن الذين سألوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم، عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده وإنما سألوه يفعلونه عن الميت؟ كما قال سعد أينفعها أن أتصدق عنها، ولم يقل: أن أهدى لها ثواب ما تصدقت به عن نفسى .

وكذلك قول المرأة أفأحج عنها ؟ وقول الرجل الآخر: أفأحج عن أبى ؟

فأجابهم بالإذن فى الفعل عن الميت لا بإهداء ثواب ما عملوه لأنفسهم إلى موتاهم، فهذا لا يعرف أنه، صلى الله عليه وسلم، سئل عنه قط ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله.

وقال: اللهم اجعل لفلان ثواب عملى المتقدم أو ثواب ما عملته لنفسى، فهذا سر الاشتراطات وهو أفقه . ومن لم يشترط ذلك يقول الثواب للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى غيره كان بمنزلة ما يهديه إليه من ماله .

وأما قولكم: لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التى تجب على الحى:

فالجواب: أن هذا الإلزام محال على أصل من شرط فى الوصول نية الفعل عن الميت، فإن الواجب لا يصح أن يفعله عن الغير، فإن هذا واجب على الفاعل يجب عليه أن ينوى به القرابة إلى الله، وأما من لم يشترط نية الفعل عن الغير فهل يسوغ عنده أن يجعل للميت ثواب فرض من فروضه؟ فيه وجهان.

قال أبو عبد الله بن حمدان: وقيل: إن جعل له ثواب فرض من صلاة أو صوم أو غيرهما جاز، وأجزأ فاعله .

قلت: وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم من فرض ونفل للمسلمين وقالوا نلقى الله بالفقر والإفلاس المجرد، والشريعة لا تمنع من ذلك، فالأجر ملك العامل فإن شاء أن يجعله لغيره فلا حجر عليه فى ذلك، والله أعلم.

وأما قولكم: إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البذل، إذا المقصود منها عين المكلف العامل إلى آخره :

فالجواب عنه: أن ذلك لا يمنع إذن الشارع للمسلم أن ينفع أخاه بشىء من عمله؛ بل هذا من تمام إحسان الرب ورحمته لعباده، ومن كمال هذه الشريعة التى شرعها لهم التى مبناها على العدل والإحسان والتعارف، والرب تعالى أقام ملائكته وحملة عرشه يدعون لعباده المؤمنين ويسغفرون لهم، ويسألونه لهم أن يقيهم السيئات، وأمر خاتم رسله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ويقيمهم يوم

القيامة مقامًا محمودا ليشفع فى العصاة من أتباعه وأهل سنته، وقد أمره تعالى أن يصلى على أصحابه فى حياتهم وبعد مماتهم، وكان يقوم على قبورهم فيدعو لهم - وقد استقرت الشريعة على أن المأثم الذى على الجميع بترك فروض الكفايات يسقط إذا فعله من يحصل المقصود بفعله ولو واحد، وأسقط سبحانه الارتهان وحرارة الجلود فى القبر بضمان الحى دين الميت وأدائه عنه، وإن كان ذلك الوجوب امتحانًا فى حق المكلف، وأذن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى الحج والصيام عن الميت، وإن كان الوجوب امتحانًا فى حقه، وأسقط عن المأموم سجود السهو بصحة صلاة الإمام وخلوها من السهو وقراءة الفاتحة بتحمل الإمام لها، فهو يتحمل عن المأموم سهوه وقراءته وسترته.

فقراءة الإمام وسترته قراءة لمن خلفه وسترة له، وهل الإحسان إلى المكلف بإهداء الثواب إليه إلا تأس بإحسان الرب تعالى ؟ والله يحب المحسنين .

والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله، وإذ كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذقة لبن وكسرة خبز. فكيف من ينفعهم فى حال ضعفهم وفقرهم وانقطاع أعمالهم وحاجتهم إلى شىء يهدى إليهم أحوج ما كانوا إليه؟ فأحب الخلق إلى الله من ينفع عياله فى هذه الحال، ولهذا جاء أثر عن بعض السلف أنه من قال كل يوم سبعين مرة: رب اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، حصل له من الأجر بعدد كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ولا نستبعد هذا فإنه إذا استغفر لإخوانه فقد أحسن إليهم، والله لا يضيع أجر المحسنين .

وأما قولكم: إن نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه: فهذه الشبهة تورد على صورتين:

صورة تلازم: يدعى فيها اللزوم بين الأمرين، ثم يبين انتفاء اللازم فينتفى ملزومه وصورتها هكذا لو نفعه الغير عنه لنفعه إسلامه وتوبته عنه، ولكن لا ينفعه ذلك فلا ينفعه عمل الغير.

والصورة الثانية: أن يقال: لا ينتفع بإسلام الغير وتوبته عنه فلا ينتفع بصلاته وصيامه وقراءته عنه . ومعلوم أن هذا التلازم والإقران باطل قطعًا .

أما أولاً: فلأنه قياس مصادم بما تظاهرت به النصوص واجتمعت عليه الأمة .

وأما ثانيًا: فلأنه جمع بين ما فرق الله فإن الله سبحانه فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته وحجته وعتقه عنه، فالقياس المسوى بينهما من جنس قياس الذين قاسوا الميتة على المذكى والربا على البيع .

وأما ثالثًا: فإن الله سبحانه جعل الإسلام سببًا لنفع المسلمين بعضهم بعضًا في الحياة وبعد الموت، فإذا لم يأت بسبب انتفاعه بعمل المسلمين لم يحصل له ذلك النفع، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لعمرو: **«إن إباك لو كان أقر بالتوحيد فصمت أو تصدقت عنه نفعه ذلك»**[1].

وهذا كما جعل سبحانه الإسلام سببًا لانتفاع العبد مما عمل من خير، فإذا فاته هذا السبب لم ينفعه خير عمله. ولم يقبل منه، كما جعل الإخلاص والمتابعة سببًا لقبول الأعمال، فإذا فقد لم تقبل الأعمال، وكما جعل الوضوء وسائر شروط الصلاة سببًا لصحتها، فإذا فقدت فقدت الصحة، وهذا شأن سائر الأسباب مع مسبباتها الشرعية والعقلية والحسية، فمن سوى بين حالين وجود السبب وعدمه فهو مبطل .

ونظير هذا الهوس أن يقال . لو قبلت الشفاعة في العصاة لقبلت في المشركين ولو خرج أهل الكبائر من الموحدين من النار لخرج الكفار منها، وأمثال ذلك: من الأقيسة التي هي من نجاسات معد أصحابها ورجيع أفواههم .

وبالجملة: فالأولى بأهل العلم الإعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهذيانات لولا أنهم قد سودوا بها صحف الأعمال، والصحف التي بين الناس .

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٨٢). من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

وأما قولكم العبادات نوعان: نوع: تدخله النيابة فيصل ثواب إهدائه إلى الميت، ونوع: لا تدخله فلا يصل ثوابه:

فهذا هو نفس المذهب والدعوى فكيف تحتجون به، ومن أين لكم هذا الفرق؟ فأى كتاب أو سنة أم أى اعتبار دل عليه حتى يجب المصير إليه ؟

وقد شرع النبى صلى الله عليه وآله وسلم، الصوم عن الميت، مع أن الصوم لا تدخله النيابة، وشرع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض فى أداء فرض الكفاية فإذا فعله واحد ناب عن الباقين فى فعله، وسقط عنهم المأثم، وشرع لقيم الطفل الذى لا يعقل أن ينوب عنه فى الإحرام، وأفعال المناسك، وحكم له بالأجر بفعل نائبه .

وقد قال أبو حنيفة رحمه الله: يحرم الرفقة عن المغمى عليه فجعلوا إحرام رفقته بمنزلة إحرامه، وجعل الشارع إسلام الأبوين بمنزلة إسلام أطفالهما، وكذلك إسلام السابى والمالك على القول المنصوص، فقد رأيت كيف عدت هذه الشريعة الكاملة أفعال البر من فاعلها إلى غيرهم، فكيف يليق بها أن تحجر على العبد أن ينفع والديه ورحمه وإخوانه من المسلمين فى أعظم أوقات حاجاتهم بشيء من الخير والبر يفعله ويجعل ثوابه لهم، وكيف يتحجر العبد واسعًا أو يحجر على مَنْ يحجر الشارع في ثواب عمله أن يصرف منه ما شاء إلى من شاء من المسلمين، والذى أوصل ثواب الحج والصدقة والعتق هو بعينه الذى يوصل ثواب الصيام والصلاة والقراءة والاعتكاف، وهو إسلام المهدى إليه وتبرع المهدى وإحسانه وعدم حجر الشارع عليه فى الإحسان؛ بل ندبه إلى الإحسان بكل طريق .

وقد تواطأت رؤيا المؤمنين وتواترت أعظم تواتر على إخبار الأموات لهم بوصول ما يهدونه إليهم من قراءة وصلاة وصدقة وحج وغيره، ولو ذكرنا من حكى لنا من أهل عصرنا وما بلغنا من ذلك لطال جدًا وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها فى العشر الأواخر»**. فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم :**«تواطؤ رؤيا المؤمنين»** وهذا كما يعتبر تواطؤ روايتهم لما شاهدوه فهم لا يكذبون فى روايتهم ولا فى رؤياهم إذا تواطأت .

وأما رد حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو قوله: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» بتلك الوجوه التى ذكرتموها:

فنحن ننتصر لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه، وأما الباطل فيكفينا بطلانه من معارضته للحديث الصحيح الصريح الذى لا تغمز قناته ولا سبيل إلى مقابلته إلا بالسمع والطاعة والإذعان والقبول، وليس لنا بعده الخيرة بل الخيرة وكل الخيرة فى التسليم له والقول به ولو خالفه مَنْ بين المشرق والمغرب .

فأما قولكم نرده بقول مالك فى موطئه: لا يصوم أحد عن أحد . فمنازعوكم يقولون بل نرد قول مالك هذا بقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فأى الفريقين أحق بالصواب وأحسن ردًا ؟

وأما قوله: وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه . فمالك رحمه الله لم يحكِ إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها، وإنما حكى قول أهل المدينة فيما بلغه ولم يبلغه خلاف بينهم، وعدم اطلاعه رحمه الله على الخلاف فى ذلك لا يكون مسقطًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ بل لو أجمع عليه أهل المدينة كلهم لكان الأخذ بحديث المعصوم أولى من الأخذ بقول أهل المدينة، الذين لم تضمن لنا العصمة فى قولهم دون الأمة، ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها، بل قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا**﴾[النساء :٥٩].

وإن كان مالك وأهل المدينة قد قالوا: لايصوم أحد عن أحد، فقد روى الحكم بن عتيبة، وسلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير ،عن ابن عباس أنه أفتى فى قضاء رمضان يطعم عنه، وفى النذر يصام عنه .

وهذا مذهب الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث، وهو قول أبى عبيد، وقال أبو ثور: يصام عنه النذر وغيره، وقال الحسن بن صالح فى النذر: يصوم عنه وليه.

وأما قولكم: ابن عباس هو راوى حديث الصوم عن الميت، وقد قال: لايصوم أحد عن أحد :

فغاية هذا أن يكون الصحابى قد أفتى بخلاف ما رواه، وهذا لايقدح فى روايته، فإن روايته معصومة وفتواه غير معصومة، ويجوز أن يكون قد نسى الحديث أو تأوله أو اعتقد له معارضا راجحًا فى ظنه، أو لغير ذلك من الأسباب، على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث، فإنه أفتى فى رمضان بأنه لا يصوم أحد عن أحد، وأفتى فى النذر بأنه يصام عنه .

وليس هذا بمخالف لروايته؛ بل حمل الحديث على النذر.

ثم إن حديث: **«مَنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»**، هو ثابت من رواية عائشة رضى الله عنها، فهب أن ابن عباس خالفه، فكان ماذا ؟ فخلاف ابن عباس لا يقدح فى رواية أم المؤمنين بل رد قول ابن عباس براوية عائشة رضى الله عنها أولى من رد روايتها بقوله، وأيضًا فابن عباس رضى الله عنهما قد اختلف عنه فى ذلك، وعنه روايتان فليس إسقاط الحديث للرواية المخالفة له عنه أولى من إسقاطها بالرواية الأخرى بالحديث .

وأما قولكم: إنه حديث اختلف فى إسناده:

فَكَلامُ مُجَازِفٍ لايقبل قوله، فالحديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبا الصحيح ولم يختلف فى إسناده.

قال ابن عبد البر: ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: **«مَنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»**. وصححه الإمام أحمد وذهب إليه وعلق الشافعى القول به على صحته.

فقال: وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى الصوم عن الميت شيء ، فإن كان ثابتًا صيم عنه كما يحج عنه ، وقد ثبت بلا شك فهو مذهب الشافعى ، وكذلك قال غير واحد من أئمة الصحابة .

قال البيهقى بعد حكايته: هذا اللفظ عن الشافعى قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس ، وفى رواية أكثرهم أن امرأة سألت فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد.

وفي رواية بعضهم: صومي عن أمك .

وسيأتي تقرير ذلك عند الجواب عن كلامه رحمه الله .

وقولكم: إنه معارض بنص القرآن وهو قوله ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى**﴾ [النجم :٣٩] إساءة أدب في اللفظ وخطأ عظيم في المعنى، وقد أعاذ الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن تعارض سنته لنصوص القرآن، بل تعاضدها وتؤيدها والله ما يصنع التعصب ونصر التقليد. وقد تقدم من الكلام على الآية ما فيه كفاية، وبيَّنا أنها لاتعارض بينها وبين سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بوجه، وإنما يُظَنُ التعارض من سوء الفهم . وهذه طريقة وخيمة ذميمة وهي رد السنن الثابتة بما يفهم من ظاهر القرآن والعلم كل العلم تنزيل السنن على القرآن فإنها مشتقة منه ومأخوذة عمن جاء به ، وهي بيان له لاأنها مناقضة له .

وقولكم: إنه معارض بما رواه النسائي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**لايُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلاَ يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكنْ يُطْعِمُ عَنْهُ كُلَ يَومُ مدًا مِنْ حِنَطةٍ**» فخطأ قبيح فإنَّ النسائي رواه هكذا: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، ثنا يزيد بن زريع، ثنا حجاج الأحوال، ثنا أيوب بن موسى، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لايُصَلِّي أَحَدٍ عَنْ أَحَدٍ وَلاَ يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ وَلَكِنْ يُطعِمَ عَنْهُ مَكَانَ كُلِ يَوم مُدًا مِنْ حِنْطَةٍ**». وهكذا رواه قول ابن عباس لا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يعارض قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول ابن عباس ثم يقدم عليه، مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضي الله عنهما ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل هذا الكلام قط، وكيف يقوله وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صِيَامُ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**»؟ وكيف يقول وقد قال في حديث بريدة الذي رواه مسلم في صحيحه: إنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لَهُ: إِنَّ أُمِي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوَمُ شَهرٍ، قال: «**صُومِي عَنْ أُمِك**».

وأما قولكم: إنه معارض بحديث ابن عمر رضى الله عنهما: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صَومُ رَمَضَانَ يُطعِمُ عَنْهُ**» فمن هذا النمط فإنه حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

قال البيهقى: حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صَومُ رَمَضَانَ يُطعِمُ عَنْهُ**» لايصلح. ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم، وإنما رواه أصحاب نافع عن نافع، عن ابن عمر رضى الله عنهما من قوله .

وأما قولكم: إنه معارض بالقياس الجلى على الصلاة والإسلام والتوبة، فإن أحدًا لا يفعلها عن أحد ، فلعمر الله إنه لقياس جلى البطلان والفساد لرد سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الصحيحة الصريحة له وشهادتها ببطلانه .

وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته ، وبين انتفاع المسلم بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب صيام أو صدقة أو صلاة ، ولعمر الله إن الفرق بينهما أوضح من أن يخفى.

وهل فى القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه إليه أخوه المسلم ، من ثواب عمله على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته ، أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته ؟

وأما كلام الشافعى رحمه الله: فى تغليط راوى حديث ابن عباس رضى الله عنهما: إنْ نَذرَ أم سَعدٍ كَانَ صَومًا:

فقد أجاب عنه أنصر الناس له وهو البيهقى - ونحن نذكر كلامه بلفظه -

قال فى كتاب المعرفة بعد أن حكى كلامه: قد ثبت جوازالقضاء عن الميت براوية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وفى رواية بعضهم: صومى عن أمك .

قال: وتشهد بالصحة رواية عبد الله بن عطاء المدنى.

قال: حدثنى عبد الله بن بريدة الأسلمى عن أبيه.

قال: كنت عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فأتته امرأة.

فقالت: يارسول الله إنى كنت تصدقت بوليدة على أمى فماتت وبقيت الوليدة.

قال: **«قَدْ وَجَبَ أجرُكِ وَرَجَعتْ إلَيكِ فِى المِيرَاثِ»** .

قالت: فإنها ماتت وعليها صوم شهر .

قال: **«صُومِى عَنْ أُمِكِ»** .

قالت: إنها ماتت ولم تحج.

قال: **«حُجِى عَنْ أُمِكِ»** رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن عبد الله بن عطاء انتهى.

قلت: وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما.

قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يارسول الله، إن أمى ماتت وعليها صيام شهر أفأقضيه عنها ؟

فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«لَو كَانَ عَلَيهَا دَينٌ أكنت قاضيته عنها؟ قال: نعم، قال: فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُ أَنْ يُقْضَى»** .

ورواه ابن خيثمة: ثنا معاوية بن عمرو ، ثنا زائدة عن الأعمش ، فذكره . ورواه النسائى عن قتيبة بن سعيد : ثنا عنترة عن الأعمش فذكره . فهذا غير حديث أم سعد إسنادًا ومتنًا . فإن قصة أم سعد رواها مالك ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ؟ أن سعد بن عُبادة استفتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: إن أمى ماتت وعليها نذر . فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«اقضْهِ عَنْها»** هكذا أخرجاه فى الصحيحين .

فهب أن هذا هو المحفوظ فى هذا الحديث أنه نذر مطلق لم يسم ، فهل يكون هذا حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير؟ على أن تدرك استفصال النبى صلى الله عليه وآله وسلم، لسعد فى النذر هل كان صلاة أو صدقة أو صياما، مع أن الناذر قد ينذر هذا؟ وهذا يدل على أنه لافرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة وإلا لقال له: ماهو النذر؟ فإن النذر إذا انقسم إلى قسمين: نذر يقبل القضاء عن الميت، ونذر لا يقبله لم يكن بد من الاستفصال.

ونحن نذكر أقوال أهل العلم فى الصوم عن الميت؛ لئلا يتوهم أن فى المسألة إجماعا بخلافه .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: يصام عنه فى النذر ويطعم عنه فى قضاء رمضان. وهذا مذهب الإمام أحمد .

وقال أبو ثور: يصام عنه النذر والفرض .

وكذلك قال داود بن على وأصحابه: يصام عنه نذرًا كان أو فرضًا.

وقال الأوزاعى: يجعل وليه مكان الصوم صدقة فإن لم يجد صام عنه.

وهذا قول سفيان الثورى فى إحدى الروايتين عنه.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يصام عنه النذر ويطعم عنه فى الفرض .

وقال الحسن: إذا كان عليه صيام شهر فصام عنه ثلاثون رجلاً يومًا واحدًا جاز.

وأما قولكم: إنه يصل إليه فى الحج ثواب النفقة دون أفعال المناسك فدعوى مجردة بلا برهان والسنة تردها .

فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«حُجَّ عن أبيكَ»** .

وقال للمرأة: **«حُجَّى عَنْ أُمكِ»** فأخبر أن الحج نفسه عن الميت، ولم يقل إن الإنفاق هو الذى يقع عنه.

وكذلك قال للذى سمعه يلبى عن شبرمة: **«حُجَّ عن نَفْسِك ثم حُجَّ عن شُبرُمة»**[1] ولما سألته المرأة عن الطفل الذى معها فقالت ألهذا حج ؟

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: المناسك، باب: الرجل يحج عن غيره (١٨١١)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: الحج عن الميت (٢٩٠٣).من حديث ابن عباس ﷺ.

قال: «**نعم**» ولم يقل، إنما ثواب الإنفاق؛ بل أخبر أن له حجًّا مع أنه لم يفعل شيئًا؛ بل وليه ينوب عنه فى أفعال المناسك، ثم إن النائب عن الميت قد لا ينفق شيئًا فى حجته غير نفقة مقامه فما الذى يجعل ثواب نفقة مقامه للمحجوج عنه وهو لم ينفقها على الحج ؟ بل تلك نفقته أقام أم سافر ، فهذا القول ترده السنة والقياس . والله أعلم .

فإن قيل: فهل تشترطون فى وصول الثواب أن يهديه بلفظه ، أم يكفى فى وصوله مجرد نية العامل أن يهديها إلى الغير؟

قيل: السُّنَّةُ لم تشترط التلفظ بالإهداء فى حديث واحد؛ بل أطلق صلى الله عليه وآله وسلم، الفعل عن الغير كالصوم والحج والصدقة، ولم يقل لفاعل ذلك وقل اللهم هذا فلان عن فلان.

والله سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله، فإن ذكره جاز وإن ترك ذكره واكتفى بالنية والقصد وصل إليه، ولا يحتاج أن يقول: اللهم إنى صائم غدًا عن فلان ابن فلان. ولهذا والله أعلم اشترط من اشترط نية الفعل عن الغير قبله ليكون واقعًا بالقصد عن الميت، فأما إذا فعله لنفسه ثم نوى أن يجعل ثوابه للغير لم يصر للغير بمجرد النية، كما لو نوى أن يهب أو يعتق أو يتصدق لم يحصل ذلك بمجرد النية .

ومما يوضح ذلك أنه لو بنى مكانًا بنية أن يجعله مسجدًا أو مدرسة أو سقاية ونحو ذلك صار وقفًا بفعله مع النية ولم يحتج إلى تلفظ ، وكذلك لو أعطى الفقير مالا بنية الزكاة سقطت عنه الزكاة وإن لم يكن يتلفظ بها ، وكذلك لو أدى عن غيره دينًا حيًّا كان أو ميتًا سقط من ذمته وإن لم يقل هذا عن فلان .

فإن قيل: فهل يتعين عليه تعليق الإهداء بأن يقول : اللهم إن كنت قبلت هذا العمل وأثبتنى عليه ، فاجعل ثوابه لفلان أم لا ؟

قيل: لايتعين ذلك لفظًا ولا قصدًا؛ بل لا فائدة فى هذا الشرط، فإن الله سبحانه إنما يفعل هذا سواء شرطه أو لم يشرطه، فلو كان سبحانه يفعل غير هذا بدون الشرط كان فى الشرط فائدة.

وأما قوله: اللهم إن كنت أثبتني على هذا فاجعل ثوابه لفلان، فهو بناء على أن الثواب يقع للعامل ثم ينتقل منه إلى من أهدى له، وليس كذلك؛ بل إذا نوى حال الفعل أنه عن فلان وقع الثواب أولاً عن المعمول له، كما لو أعتق عبده عن غيره لا نقول: إن الولاء يقع للمعتق ثم ينتقل عنه، فهكذا هذا. وبالله التوفيق.

فإن قيل: فما الأفضل أنه يهدى إلى الميت .

قيل: الأفضل ما كان أنفع في نفسه ، فالعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدق عليه ، وكانت دائمة مستمرة؟، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَفْضَلُ الصَدَقَةِ سقي الماء**»[1].وهذا في موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطش، وإلا فسقي الماء على الأنهار والقنى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة، وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعي وإخلاص وتضرع. فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه، كالصلاة على الجنازة والوقوف للدعاء على قبره. وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه .

وأما قراءة القرآن، وإهداؤها له تطوعًا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام ، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه .

فالجواب: إن مورد هذا السؤال إن كان معترفًا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار.

(١) الحديث: أخرجه النسائي، كتاب: الوصايا (٣٦٦٤)، وابن ماجه، كتاب: الأدب (٣٦٨٤).

قيل له: ما هذه الخاصية التى منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال ، وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات؟ وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

وأما السبب الذى لأجله لم يظهر ذلك فى السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك ألبتة، ولا كانوا يعرفون ذلك ألبتة، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت؛ بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم .

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم ثواب هذا الصوم لفلان ، لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل: فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة .

قيل: هو صلى الله عليه وآله وسلم، لم يبتدئهم بذلك؛ بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم .

فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك، وبين وصول ثواب القراءة والذكر، والقائل إن أحدًا من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لاعلم له به، فإن هذه شهادة على نفى مالم يعلمه فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه ؛ بل يكفى إطلاع علام الغيوب على نياتها ومقاصدهم لا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم .

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذى خص من هذا الثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه وهذا عمل الناس حتى المنكرين فى سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء .

فإن قيل: فما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قيل: من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، له أجر كل مَنْ عمل خيرًا من أمته، من غير أن ينقص من أجر العامل شىء، لأنه هو الذى دل أمته على كل خير، وأرشدهم ودعاهم إليه، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده، فله مثل أجر من اتبعه أهداه إليه أو لم يهده . والله أعلم.

المسألة الثامنة عشرة
هل الروح قديمة أو محدثة؟

وأما المسألة الثامنة عشرة: وهى: هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟ وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله، فكيف يكون أمر الله محدثا مخلوقا، وقد أخبر سبحانه أنه نفخ فى آدم من روحه؟ فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا، وما حقيقة هذه الإضافة ، فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة ؟

فهذه مسألة زل فيها عالم وضل فيها طوائف من بنى آدم وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين فأجمعت الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة. هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق وكل ماسواه مخلوق له .

وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده .

وتوقف آخرون فقالوا : لانقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال:

أما بعد، فإن سائلاً سألنى عن الروح التى جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم، وذكر أن أقوامًا تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة، وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله.

قال: وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر، وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم؟ وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والأثر، وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم ، وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه فنقول وبالله التوفيق - إن الناس اختلفوا في معرفةالأرواح ومحلها من النفس :

فقال بعضهم: الأرواح كلها مخلوقة، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدة، فَمَا تَعارف مِنهَا ائتلف، وَمَا تَنَاكَرَ مِنهَا اختلفَ**».

والجنود المجندة لاتكون إلا مخلوقة .

وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها عن الخلق.

واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿**قُل الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[الإسراء :٨٥].

وقال بعضهم: الأرواح نور من نور الله تعالى وحياة من حياته، واحتجت بقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ اللـه خَلَقَ خَلقَهُ فِى ظُلمةِ وألقَى عَلَيهم مِنْ نُورِهِ**»[1].

ثم ذكر الخلاف فى الأرواح هل تموت أم لا ، وهل تعذب مع الأجساد فى البرزخ وفى مستقرها بعد الموت ؟ وهل هى النفس أو غيرها ؟

وقال محمد بن نصر المروزى فى كتابه: تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض فى روح آدم وتأولته النصارى فى روح عيسى ، وماتأوله قوم من الروح انفصل من ذات الله فصار فى المؤمن ، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعًا ، لأن عيسى عندهم روح من الله صار فى مريم فهو غير مخلوق عندهم .

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: الإيمان، باب: ماجاء فى افتراق الأمة (٢٦٤٢)، من حديث عبد الله بن عمرو. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض: أن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق، وتأولوا قوله تعالى:﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[الحجر :٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾[السجدة :٩] . فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق، كما تأول من قال: إن النور من الرب غير مخلوق قالوا: ثم صار بعد آدم فى الوصى بعده ، ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن نصار فى على ثم الحسن والحسين ، ثم فى كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شىء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها، ثم أضافها إلى نفسه ، كما أضاف إليه سائر خلقه .

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[الجاثية :١٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمى مخلوقة مبدعة، باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال فى كتاب اللفظ لما تكلم عن الروح.

قال: وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارىء النسمة أى خالق الروح .

وقال أبو إسحاق بن شاقلا، فيما أجاب به فى هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟

قال: وهذا مما لايشك فيه من وفق للصواب، إن الروح من الأشياء المخلوقة، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتابًا كبيرًا وقبله الإمام محمد ابن نصر المروزى وغيره، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجورى والقاضى أبو يعلى، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى بن مريم، فكيف بروح غيره، كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه فى مجلسه فى الرد على الزنادقة والجهمية .

ثم إن الجهمى ادعى أمرًا، فقال: أنا أجد آية فى كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى :﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**﴾[النساء :١٧١] وعيسى مخلوق .

قلنا له: إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ، وإن عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن ، لأنا نسميه مولودًا وطفلا وصبيًا وغلامًا يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى، فهل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى، ولكن المعنى فى قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**﴾[النساء :١٧١].

فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو كن ولكن كان بكن، فكن من الله قول وليس كن مخلوقًا، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: روح الله وكلمته، إلا أن كلمته مخلوقة .

وقالت النصارى: عيسى روح الله وكلمته من ذاته ، كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب. قلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة، وإنما الكلمة قول الله تعالى: كن، وقوله وروح منه .

يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**﴾[الجاثية :١٣] يقول من أمره وتفسير روح الله إنما

معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله وسماء الله، وأرض الله، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقه، فكيف بسائر الأرواح، وقد أضاف الله إليه الروح الذى أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله، ولم يدل ذلك على أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾[مريم :١٧-١٩] .

فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله ، وسنذكر- إن شاء الله تعالى- أقسام المضاف إلى الله، وأنى يكون المضاف صفة له قديمة، وأنى يكون مخلوقا وما ضابط ذلك؟

والذى يدل على خلقها وجوه:

الوجه الأول: قول الله تعالى:﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر :٦٢] فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفاته فإنها داخلة فى مسمى اسمه . فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه ليس داخلاً فى الأشياء المخلوقة كمالم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق .

ومعلوم قطعًا أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته ، وإنما هى مصنوع من مصنوعاته، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس.

الوجه الثانى: قوله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[مريم :٩]. وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط، فإن البدن وحده لايفهم ولا يخاطب ولا يعقل، وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات :٩٦] .

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾[الأعراف :١١] . وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما

يقوله الجمهور ، وإما أن يكون واقعًا على الأرواح قبل خلق الأجساد ، كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقديرين فهو صريح فى خلق الأرواح .

الوجه الخامس: النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء، وهذه الربوبية الشاملة لأرواحنا وأبداننا، فالأرواح مربوبة له مملوكة، كما أن الأجسام كذلك، وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

الوجه السادس: أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه :

أحدها: قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة : ٢]، والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

الثانى: قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[الفاتحة :٥]، فالأرواح عابدة له مستعينة، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانًا بها .

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

الرابع: إنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

الوجه السابع: النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه؛ بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع، كما أنه تبع لها فى الأحكام التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

الوجه الثامن: قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾[الإنسان :١].

فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئًا مذكورًا ، فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

يَا خَادِمَ الجسم كَمْ تَشقَى بخدمَتِهِ ... فَأنتَ بالروح لا بالجسم إنسَان

الوجه التاسع: النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيءٌ غيره، كما ثبت في صحيح البخاري[1] من حديث عمران بن حصين: أنَّ أهلَ اليمن قالُوا يَا رَسُولُ اللَّهِ جئنَاكَ لنَتَفَقَّهَ فِي الدينِ وَنسألُكَ عَنْ أول هَذا الأمر. **فَقَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكنْ شيءٌ غَيرَهُ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ وكَتَبَ فِي الذِكرِ كُلَ شَيءٍ»**. ولم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؛ بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه من الوجوه.

الوجه العاشر: النصوص الدالة على خلق الملائكة، وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه.

فإذا كان الملك الذي يحدث الروح في الجسد ابن آدم بنفخته مخلوقا، فكيف تكون الروح الحادثة بنفخة قديمة؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه، كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه، وهذا ضلال وخطأ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له، كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه والغذاء سبب نموه، فمادة الروح من نفخة الملك، ومادة الجسم من صب الماء في الرحم، فهذه مادة سماوية، وهذه مادة أرضية .فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة، تناسب الأرواح السفلية، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه.

الوجه الحادى عشر: حديث أبي هريرة ﷺ الذى في صحيح البخارى وغيره عن النبى، صلى الله عليه وآله وسلم: **«الأرواحُ جُنُودٌ مُجندةٌ، فَمَا تَعَارفَ مِنهَا ائتلفَ، وَمَا تَناكَرَ مِنهَا اختلفَ»**.

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] (٣١٩١).

والجنود المجندة لا تكون إلامخلوقة، وهذا الحديث رواه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أبو هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وسلمان الفارسى، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وعلى بن أبى طالب، وعمرو بن عبسة ﷺ .

الوجه الثانى عشر: أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال. وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب، قال الله تعالى: **﴿اللَّـهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[الزمر:٤٢]. والأنفس هاهنا هى الأرواح قطعًا .

وفى الصحيحين[1]:

من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه.

قال: سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سفر ذات ليلة.

فقلنا: يا رسول الله لو عرست بنا.

فقال: «إِنِّى أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا، فَمَنْ يُوقِظُنَا للصَلاةِ؟».

فقال بلال: أنا يا رسول الله.

قال: فعَرَّسَ بالقَوم فاضطَجعُوا واستَنَد بلالٌ إلىَ رَاحِلَتِهِ فَغَلَبتهُ عَينـاهُ فاسـتيقَظَ رسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وقد طلع جانب الشمس .

فقال : **«يا بلال أين ما قلت لنا ؟»** .

فقال : والذى بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ اللَّـهَ قَبَضَ أَروَاحَكم حِينَ شاءَ وَردّها حِينَ شَاءَ»** .

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الأذان بعد ذهاب الوقت (٥٩٥)، ومسلم بنحوه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة (٦٨١).

فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها، وفـى منامهـا، وهى التى يتوفاها ملك الموت، وهى التى يتوفاها رسل الله سبحانه، وهـى التـى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهـا ويكفنهـا بكفـن مـن الجنة أو النار، ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها أو تلعنها، وتوقف بين يـدى ربها فيقضى فيها أمره، ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بيـن الميـت وأكفانـه فيسـأل ويمتحن ويعاقب وينعـم، وهـى التـى تجعـل فـى أجـواف الطير الخضـر تـأكل وتشرب من الجنة وهى التى تعرض على النار غدوًا وعشيًا ، وهـى التـى تؤمـن وتكفر وتطيع وتعصى وهى الأمارة بالسوء ، وهـى اللوامـة وهـى المطمئنـة إلـى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعـم وتسـعد وتشـقى وتحبـس وترسـل وتصح وتسقم ، وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك إلا سمات مخلـوق مبـدع وصفات منشأ مخترع وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند نومه: **«اللَّهُمَّ أَنتَ خَلقتَ نَفسِى وأَنتَ تَوفاهَا، لَكَ مَمَاتُها ومَحيَاهَا، فإن أَمسكتَهَا فارحمْهَا، وإنْ أَرسلتَهَا فاحفظْهَا بمَا تَحفظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالحِينَ»**[1].

وهو تعالى بارىء النفوس كما هو بارىء الأجساد قال تعـالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[الحديد : ٢٢].

قيل: من قبل أن نبرأ المصيبة.

وقيل: من قبل أن نبرأ الأرض.

وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقـرب مذكـور إلـى الضمير، ولـو قيل يرجع إلى الثلاثة، أى من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس، لكـان أوجـه.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبـة والاستغفار، بـاب: مـا يقـول عنـد النوم وأخذ المضطجع (٢٧١٢). من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها ، وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة، وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس من نفسها إلا العدم، فهى لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها ولا تتقى من الشر إلا ما وقاها ولا تهتدى إلى شيء من مصالح دنياها وأخراها إلا بهداه، ولا تصلح إلابتوفيقه لها وإصلاحه إياها، ولا تعلم إلا ما علمها، ولا تتعدى ما ألهمها، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها .

فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى، خلافا لمن يقول أنها ليست مخلوقة، ولمن يقول إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقا لأفعالها؛ بل هى التى تخلق أفعالها وهما قولان لأهل الضلال والغى .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكمالها وهذا من أبطل الباطل. فإن فقرها إليه سبحانه فى وجودها وكمالها وصلاحها من لوازم ذاتها ليس معللا بعلة، فإنه أمر ذاتى لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللا بعلة، فهو سبحانه الغنى بالذات وهى الفقيرة إليه بالذات، فلا يشاركه سبحانه فى غناه مشارك كما لا يشاركه فى قدمه وربوبيته وإلهيته وملكه التام وكماله المقدس مشارك، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان. قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[فاطر :١٥]. وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا الغناء التام لله وحده لا يشركه فيه غيره، وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله: ﴿**فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الواقعة : ٨٣، ٨٧] .أى فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين

ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبـدان إذا وصلـت إلـى هـذا الموضع، أو لا تعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملهـا، وكل ما تقدم ذكره فى هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت ، فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمـة، وهـذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه لولا ضـلال مـن المتصوفـة وأهـل البـدع، ومـن قصر فهمه فى كتاب الله وسنة رسوله فأتى من سوء الفهـم مـن النـص، تكلمـوا فى أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها، وكيف يمكن من له أدنى مسكة مـن عقـل أن ينكـر أمرًا تشـهد بـه عليـه نفسـه وصفاتـه وأفعالـه وجوارحه وأعضاؤه؛ بل تشهد به السـماوات والأرض والخليقـة، فاللـه سبحانه فى كل ما سواه آية ؛ بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب ، وأنه خالقه وربـه وبارئه ومليكه ، ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

وأما ما احتجت به هذه الطائفة:

فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمه، فهذا شأن كـل ضال ومبتدع . فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خـالق الأرواح ومبدعها، وأما قوله تعالى: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي**﴾[الإسراء : ٨٥]. فمعلوم قطعا أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الـذى يـأمر بـه ، وإنمـا المـراد بالأمر هاهنا المأمور وهو عرف مستعمل فى لغة العرب، وفى القـرآن منـه كثير كقوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ**﴾[النحل:١] أىمأموره الذى قدره وقضاه، وقال لـه: كن فيكون، كذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُـمْ آلِهَتُهُـمُ الَّتِي يَدْعُـونَ مِـنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾[هود : ١٠١]. أى مـأموره الـذى أمـر بـه من إهلاكهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ**﴾[النحل : ٧٧]. وكذلك الخلق يستعمل، كقوله تعالى للجنة: «**أنت رحمتى**». فليـس فـى قوله تعالى: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[الاسراء: ٨٥] ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما .

وقد قال بعض السلف فـي تفسيرها: جرى بأمر الله فى أجساد الخلق وبقدرته استقر، هذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان، وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف ، وأكثر السلف؛ بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم؛ بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه بأنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم .

وقد ثبت فى الصحيح:

من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: بينا أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فى حرة بالمدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود.

فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح.

وقال بعضهم: لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه.

وقال بعضهم: نسأله.

فقام رجل فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟

فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت، فلما تجلى عنه قال: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا**﴾[الإسراء :٨٥]. ومعلوم أنهم سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى، وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس.

وأما أرواح بنى آدم: فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من إعلام النبوة.

فقد قال أبو الشيخ:

ثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم، ثنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس، قال: بَعث قريشُ عقبةَ بن أبى مَعيط وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبى ﷺ .

فقالوا لهم: إنه خرج فينا رجل يزعم أنه نبي، وليس على ديننا ولا على دينكم.

قالوا: فمن تبعه ؟

قالوا: سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه.

فقالوا: إنه قد أظل زمان نبي يخرج هو على ما تصفون من أمر هذا الرجل، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم، فإن قال لكم: هي من الله، فقولوا: كيف يعذب الله في النار شيئا هو منه ، فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء : ٨٥] .

يقول: هو خلق من خلق الله ليس هو من الله ثم ذكر باقي الحديث .

قيل: مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من تفسير السدي ، عن أبي مالك وفيه أشياء منكرة، وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي ، وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال[1]: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ملأ من اليهود، وأنا أمشي معه، فسألوه عن الروح، قال: فسكت فظننت أنه يوحى إليه ، فنزلت: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ**﴾[الإسراء : ٨٥]. يعني اليهود ﴿**قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا**﴾[الإسراء:٨٥]. وكذلك هي قراءة عن عبد الله .

فقالوا : كذلك نجد مثله في التوارة إن الروح من أمر الله عز وجل. رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة.

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: قوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥]، ومسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود للنبي ﷺ عن الروح (٢٧٩٤).

وروى عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أتت اليهود إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فسألوه عن الروح، فلم يجبهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا**﴾[1] فهذا يدل على ضعف حديث السدى، وأن السؤال كان بمكة فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح فى أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله وما أنزله عليه .

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ، ونحن نذكر ذلك، فقد ذكرنا رواية السدى عن أبى مالك عنه رواية داود بن أبى هند ، عن عكرمة عنه تخالفها . وفى رواية داود بن أبى هند هذه اضطراب ، فقال مسروق بن المرزبان، وإبراهيم بن أبى طالب، عن يحيى بن زكريا، عنه: أن اليهود أتت النبى صلى الله عليه وآله وسلم، الحديث .

وقال محمد بن نصر المروزى: ثنا إسحاق، ثنا يحيى بن زكريا ، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قَالَت قُرِيشُ لليَهُودِ: أعطُونَا شَيْئًا نَسألُ عَنْهُ هَذَا الرَجُلَ.

فقالوا: سَلُوه عَنْ الرُوحِ، فَنَزَلَتْ ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ**﴾[الإسراء : ٨٥].

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه، وحديث ابن مسعود .

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٥٥)، والترمذى، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بنى إسرائيل (٣١٤٠)، وقال: حسن صحيح غريب.

وعن ابن عباس رواية ثالثة: قال هشيم: ثنا أبو بشر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الروح من أمر الله عز وجل ، وخلق من خلق الله ، وصور مثل صور بنى آدم ، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وهذا يدل على أنها غير الروح التى فى بنى آدم .

وعنه رواية رابعة: قال ابن منده : روى عبد السلام بن حرب ، عن خصيف عن مجاهد ، عن ابن عباس ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ قد نزل من القرآن بمنزل كن،تقول كما قال الله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[الإسراء : ٨٥] .

ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء: الرقيم، والغسلين، والروح، وقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**﴾[الجاثية :١٣].

وعنه رواية خامسة: رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عن الروح، فقال: قال الله تعالى: ﴿**قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[الإسراء : ٨٥].يعنى خلقًا من خلقى ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً**﴾[الإسراء : ٨٥] . يعنى لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتم ذلك حق صفته، وما اهتديتم لصفتها .

وعنه رواية سادسة: روى عبد الغنى بن سعيد، ثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، وعن مقاتل، وعن الضحاك، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ**﴾[الإسراء : ٨٥].

وذلك أن قريشًا اجتمعت فقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصارًا فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود: سلوه عن ثلاث:

سلوه عن الروح وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء: ٨٥]. يريد من خلق ربي عز وجل .

والروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى : ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[غافر : ١٥]. وسمى روحًا لما يحصل من حياة القلوب والأرواح .

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِم الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[المجادلة : ٢٢].

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[الشعراء: ١٩٣]. وقال تعالى:﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:٩٧]. وهو روح القدس قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾[النحل:١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله ، وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ﴾[النبأ : ٣٨]. وأنها الروح المذكورة في قوله:﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[القدر: ٤] .

الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[النساء : ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس قال تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر : ٢٧] . وقال تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة : ٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[يوسف :٥٣]. وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾[الأنعام : ٩٣] . وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[الشمس : ٧ ، ٨] . وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[آل عمران : ١٨٥] .

وأما في السنة: فجاءت بلفظ النفس والروح. والمقصود أن كونها من أمر الله، لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة .

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر : ٢٩] :

فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها. كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها ، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه .

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح. فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكًا له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه، ولكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده .

فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[القصص: ٦٨]. وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات . فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس .

فإن قيل: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر:٢٩]. فأضاف النفخ إلى نفسه ، وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى، كما في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص : ٧٥]. ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَيَأْتُونَ آدمَ فَيَقُولُونَ: أنتَ آدمُ أبو البَشَرِ خَلقكَ اللّهُ بيدِهِ ونَفَخَ فِيكَ مِنْ رَوحِهِ وأسجَدَ لَكَ ملائكته**

وَعَلَّمَكَ أسماءَ كلِ شيء» فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح؛ بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾[الحجر: ٢٩]. فهو الذي سواه بيده الذي نفخ فيه من روحه .

قيل: هذا الموضع هو الذي وجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن ؟ فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا ، وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا .

وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة .

يبقى هاهنا أمران:

أحدهما: أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني: أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم ، أم الرَّبُ تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده ؟

قيل لعمر الله إنهما سؤالان مهمان:

فأما الأول : فالجواب عنه، أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار، فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

وأمّا هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذى أصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع ، فإن نفخته لما دخلت فى فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى ، من غير أن يكون هناك وطء.

وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ولا كخلقة سائر الأنواع من أب وأم، ولا كان الروح الذى نفخ الله فيه منه هو الملك الذى فى سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر فى الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شىء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخًا ونفخًا ومنفوخًا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة فى طينة آدم، والله تعالى هو الذى نفخ فى طينة من تلك الروح، هذا هو الذى دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت فى مريم عليها السلام، فهذا يحتاج إلى دليل، والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة، والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب.

وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به، أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لايحتاج إلى دليل، وهذا بخلاف النفخ فى فرج مريم، فإنه مفعول من مفعولاته وإضافة إليه، لأنه بإذنه وأمره. فنفخه فى آدم هل هو فعل له أو مفعول، وعلى كل تقدير فالروح التى نفخ منها فى آدم روح مخلوقة غير قديمة وهى مادة روح آدم ، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

المسألة التاسعة عشرة
هل تتقدم خلق الأرواح على الأجساد؟

وأما المسألة التاسعة عشرة: وهى تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها.

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان، حكاهما شيخ الإسلام وغيره.

وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزى، وأبو محمد ابن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعًا.

ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب:

قال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا**﴾[الأعراف :١١] .

قالوا: ثم للترتيب والمهلة ؟ فقد تضمنت الآية ان خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم. ومن المعلوم قطعًا أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم انها الأرواح.

قالوا: ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾[الأعراف :١٧٢] .

قالوا: هذا الاستنطاق والإشهاد إنما كان لأرواحنا، إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة.

ففى الموطأ: حدثنا مالك، عن زيد بن أبى أنيسة، أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الأعراف:١٧٢] .

فقال: سمعت رسول الله[1] صلى الله عليه وآله وسلم، يسأل عنها.

---

(١) الحديث: أخرجه مالك فى الموطأ (٨٩٨/٢، ٨٩٩)، والترمذى، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥)، وقال: حديث حسن، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: فى القدر (٤٧٠٣).

فقال: «خَلَقَ اللَّهُ آدمَ ثمَّ مَسحَ ظَهرَهُ بيمينه فاستخرجَ مِنْهُ ذُريتَهُ، فَقَالَ: خَلَقتُ هؤلاء للنارِ وبعمل أهلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. وَخَلَقتُ هؤلاء للجَنَةِ وبعَملِ أهلِ الجنةِ يعمَلُونَ».

فقال رجل: يارسول الله ففيم العمل ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ اللَّهَ إذَا خَلَقَ الرجلَ للجنةَ استعمَلَهُ بعَملِ أهلِ الجَنَّةِ حَتَى يَموتَ عَلَى عَملٍ مِنْ أعمَالِ الجَنَّةِ فيدخلُه بهِ الجَنَّةَ، وإذَا خَلق العَبدَ للنَّارِ استَعمَلَهُ بعَملِ أهلِ النارِ حتى يموتَ عَلَى عَملٍ مِنْ أعمالِ أهلِ النارِ فيُدخِلَهُ بهِ النارَ». قال الحاكم: هذا حديث على شرط مسلم.

وروى الحاكم أيضًا: من طريق هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعًا[1]: «لمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدمَ مَسحَ ظَهرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهرِهِ كُلِ نسمةٍ هُو خَالِقهَا إلى يَومِ القِيَامَةِ، أمثالَ الذر، ثمَّ جَعَلَ بينَ عَينى كُلِ إنسانٍ مِنْهم وبيصًا من نُور، ثمَّ عَرَضَهُم عَلَى آدمَ فَقَالَ: مَنْ هَؤُلاءِ يارب؟ قال: هَؤُلاءِ ذُريتك، فَرَأى رَجُلاً مِنْهم أعجَبَه وبيصَ مَا بَينَ عَينِيهِ، فقَالَ: يارب مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاودَ يَكون فِي آخر الأمم، قال: كَمْ جَعلتَ لَهُ مِنْ العُمرِ؟ قالَ: ستِينَ سَنَةً، قالَ: يارب زِدْهُ مِنْ عُمرِى أربعِينَ سنةً، فقَالَ اللَّه تعالى: إذًا يُكتبُ ويُختَمُ فَلا يُبَدلُ، فلمَّا انقضَى عُمرُ آدمَ جَاءهُ مَلكُ الموتِ

قال: أولم يَبقَ مِنْ عُمرِي أربَعُونَ سنةً؟ فَقَالَ: أولم تجعلْهَا لابنكَ داودِ.

قال: فَجَحَد فَجَحَدَت ذُريتُهُ، وَنَسِىَ فَنَسِيتْ ذريتُهُ، وَخَطِىء فَخَطَئتْ ذُريتُهُ».

قال: هذا على شرط مسلم، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣٠٧٦). وقال: حديث حسن صحيح والحاكم في المستدرك (٢/٦٨٩).

ورواه الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال : لما نزلت آية الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنَّ أولَ مَنْ جَحَدَ آدمُ»**[1].

وزاد محمد بن سعيد: ثم أكمل الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة .

وفى صحيح الحاكم أيضًا[2]:

من حديث أبى جعفر الرازى: ثنا الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الأعراف :١٧٢] .

قال: جمعهم له يومئذ جميعًا ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحًا، ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا: بلى. شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

قال: فإنى أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، فلا تشركوا بى شيئًا، فإنى أرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاقى، وأنزل عليكم كتبى، فقالوا نشهد أنك ربنا، وإلهنا لا رب لنا غيرك، ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة وغير ذلك .

فقال: رب لو سويت بين عبادك.

فقال: إنى أحب أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ**﴾[الأحزاب :٧] وهو قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي**

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٣٧١).

(٢) الحديث: أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (٥/١٣٥).

﴿فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[الروم :٣٠] وهو قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾[النجم :٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[الأعراف :١٠٢] وكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ أخذ الميثاق ، فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيًّا فدخل من فيها. وهذا إسناد صحيح .

فقال إسحاق بن راهويه[1]: ثنا بقية بن الوليد، قال أخبرنى الزبيدى محمد ابن الوليد، عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن أبى قتادة البصرى، عن أبيه، عن هشام بن حكيم بن حزام، أن رجلا قال: يارسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء؟

فقال: «إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه

فقال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل اهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار»[2].

قال إسحاق[3]: وأنا النضر ، ثنا أبو معشر ، عن سعيد المقبرى ، ونافع مولى الزبير عن أبى هريرة: قال: «**لَمَّا أَرَادَ اللَّـهُ أَنْ يَخلقَ آدمَ – فَذَكَرَ خَلقَ آدم– فَقَالَ لَهُ: ياآدمُ أيُ يدىَّ أحبُ إليكَ أن أريكَ ذُريتكَ فِيهَا؟ فقَالَ: يَمينَ رَبى وكلتَا يدى ربىَ يمين، فَبَسَطَ يَمينَهُ فَإِذَا فيهَا ذَرَيتهُ كلُهَم مَاهو خالقُ إلى**

---

(١) اسحاق بن راهويه: هو: ابن إبراهيم بن مخلد الحنظلى، المروزى، أبو يعقوب، من علماء خراسان وهو من كبار الحفاظ، اهتم بجمع الحديث، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل، توفى سنة (٢٣٨هـ). انظر: ميزان الاعتدال (٨٥/١)، وفيات الأعيان (٦٤/١).

(٢) الحديث: أخرجه الطبرى فى تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الآية: الأعراف: ١٧٢]، والبيهقى فى الأسماء والصفات (٤٧٥، ٤٧٦).

(٣) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: تفسير القرآن، باب: الأمر بالكتابة والشهود، وقال: حسن غريب، وأبو يعلى فى مسنده (٤٥٧/١١، ٤٥٨) بنحوه.

يوم القيامة، الصَحيحُ عَلَى هيئتِه والمُبْتَلِى عَلَى هيئتـه والأنبياء على هَيئتهـمُ، فَقَالَ: ألاَ أعفَيتَهُم كلّهُم؟ فقال: إنّي أحبُ أنْ أشكرَ» وذكر الحديث.

وقال محمد بن نصر[1]: ثنا محمد بن يحيى ، ثنا سعيد بن أبي مريم ، وأخبرنا الليث بن سعد، حدثني ابن عجلان عن سعد بن أبي سعيد المقبرى ، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام ، قال: خلق الله آدم ، ثم قال بيديه فقبضها.

فقال: اخترْ يَا آدمُ.

فقال: اخترْتُ يَمينَ رَبي، وَكِلْتَا يديك يمين، فَبَسَطَهَا فإذَا فيهَا ذُريتهُ؟

فقال: مَنْ هَؤُلاء يارب؟

قال: مَنْ قضيت أن أخلق من ذريتك من أهلِ الجنّةِ إلى أنْ تَقومَ السَاعةُ .

قال: أخبرنى إسحاق ثنا جعفر بن عون، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لمّا خَلَقَ اللّه آدمَ مَسحَ ظهرَهُ فَسَقَطَ كُلَ نسمةٍ خَالِقهَا مِنْ ذُريتَهُ إلى يَوم القيامةِ»**.

وحدثنا إسحاق وعمرو بن زرارة، أخبرنا إسماعيل، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾**[الأعراف :١٧٢] .

قال: مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذى وراء عرفة، فأخذ ميثاقهم ألست بربكم؟

قالوا: بلى شهدنا ورواه أبو جمرة الضبعي، ومجاهد، وحبيب بن أبي ثابت، وأبو صالح، وغيرهم عن ابن عباس .

---

(١) محمد بن نصر: وهو أبو عبد الله المروزى الفقيه الأصولي المحدث الحافظ. ولد رحمه الله تعالى سنة (٢٠٢هـ) ببغداد، وتنقل في طلب العلم، حتى استقر في سمرقند إلى أن توفى بها سنة (٢٩٤هـ). له مصنفات، منها الوتر، وقيام الليل. انظر: تاريخ بغداد (٣١٥/٣-٣٢٨).

وقال إسحاق: أخبرنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، في هذه الآية قال: أخذهم كما يأخذ المشط بالرأس .

وحدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن الزبير بن موسى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن الله ضرب منكبة الأيمن ، فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية .

فقال: هؤلاء أهل الجنة. ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء.

فقال: هؤلاء أهل النار. ثم أخذ عهده على الإيمان به والمعرفة له ولأمره والتصديق به وبأمره من بنى آدم كلهم وأشهدهم على أنفسهم فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا.

وذكر محمد بن نصر من تفسير السدى، عن أبي مالك، وأبى صالح، عن ابن عباس، وعن الهمداني، عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ**﴾[الأعراف:١٧٢]. لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء، مسح صفحة ظهر آدم اليمنى، فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر.

فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي: ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر.

فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حيث يقول: وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ثم أخذ منهم الميثاق، فقال: ألست بربكم؟

قالوا: بلى، فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية.

فقال هو والملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، فليس أحد من ولد آدم إلا هو يعرف أن الله ربه، ولا مشرك إلا وهو يقول: إنا وجدنا آباءنا على أمة فذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ**﴾[الأعراف :١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾[آل عمران :٨٣]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[الأنعام :١٤٩] قال: يعني يوم أخذ عليهم الميثاق .

قال إسحاق: وأخبرنا روح بن عبادة، ثنا موسى بن عبيدة الربذى.

قال: سمعت محمد بن كعب القرظى يقول فى هذه الآية: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ**﴾[الأعراف :١٧٢]، أقروا له بالإيمان والمعرفة؛ الأرواح قبل أن يخلق أجسادها.

قال: وثنا الفضل بن موسى عن عبد الملك، عن عطاء، فى هذه الآية قال: أخرجوا من صلب آدم، حين أخذ منهم الميثاق ثم ردوا فى صلبه .

قال إسحاق: وأخبرنا على بن الأجلح، عن الضحاك، قال: إن الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة، فأخرجهم مثل الذر.

فقال: ألست بربكم ؟

قالوا: بلى.

قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم قبض قبضة بيمينه.

فقال: هؤلاء فى الجنة، وقبض أخرى فقال: هؤلاء فى النار .

قال إسحاق: وأخبرنا أبو عامر العقدى، وأبو نعيم الملائى، قال: ثنا هشام بن سعد، عن يحيى، وليس بابن سعيد.

قال: قلت لابن المسيب: ما تقول فى العزل ؟

قال: إن شئت حدثتك حديثًا هو حق، إن الله سبحانه لما خلق آدم أراه كرامة لم يراها أحدًا من خلق الله، أراه كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة فمن حدثك أن يزيد فيهم شيئًا أو ينقص منهم، فقد كذب ولو كان لى سبعون ما باليت .

وفى تفسير ابن عيينة عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾[آل عمران :٨٣].

قال: يومَ أخذِ الميثاق .

قال إسحاق: فقد كانوا فى ذلك الوقت مقرين، وذلك أن الله عز وجل أخبر بأنه قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. والله تعالى لايخاطب إلا من يفهم عنه المخاطبة، ولا يجيب إلا من فهم السؤال، فإجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشهاده إياهم ألست بربكم ؟

فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة، وفهم لها بأن قالوا: بلى، فأقروا له بالربوبية.

واحتجوا أيضا بما رواه أبو عبد الله ابن منده:

أخبرنا محمد بن صابر البخاري، ثنا محمد بن المنذر بن سعد الهروي، حدثنا جعفر بن محمد بن هارون المصيصي، ثنا عتبة بن السكن، ثنا أرطأة بن المنذر، ثنا عطاء بن عجلان، عن يونس بن حليس، عن عمرو بن عبسة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: **«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ أرواحَ العباد قبل العبادِ بألفي عَامٍ فما تَعَارفَ مِنهَا ائتلفَ ومَاتنَاكرَ مِنهَا اختلفَ»** فهذا بعض ما احتج به هؤلاء :

قال الآخرون: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: ذكر الدليل على الأرواح أنها خلقت بعد خلق الأبدان .

الثاني: الجواب عما استدللتم به. فأما المقام الأول: فقد قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى**﴾[الحجرات :١٢] وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن، فدل على أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين وأصرح منه قوله: ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾[النساء :١] وهذا صريح في أن خلق جملة النوع الإنساني بعد خلق أصله .

فإن قيل: فهذا لاينفي تقدم خلق الأرواح على أجسادها، وإن خلقت بعد خلق أبي البشر، كما دلت عليه الآثار المتقدمة .

قيل: سنبين إن شاء الله تعالى، أن الآثار المذكورة لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقًا مستقرًا ثابتًا. وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النعم، وقدر خلقها وآجالها وأعمالها، واستخرج تلك الصور من مادتها، ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا تدل على أنها خلقت خلقًا مستقرًا، ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها في موضع واحد، ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة، كما قاله محمد بن حزم، فهل تحتمل الآثار ما لا طاقة لها به؟ نعم، الرب

سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذى سبق به التقدير أولا. فيجىء الخلق الخارجى مطابقًا للتقدير أولاً. فيجىء الخلق الخارجى مطابقًا للتقدير السابق، كشأنه تعالى فى جميع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقدارًا وآجالاً، وصفات وهيئات، ثم أبرزها إلى وجود مطابقة لذلك التقدير الذى قدره لها، ولا تزيد عليه ولا تنقص منه. فالآثار المذكورة إنما تدل على إثبات القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة. وأما مخاطبتهم واستنطاقهم إقرارهم له بالربوبية، وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية، فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية، والآية لم تدل على هذا، بل دلت على خلافه.

وأما حديث مالك، فقال أبو عمرو، هو حديث منقطع، مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب، وبينهما فى هذا الحديث نعيم ربيعة، وهو أيضًا مع هذا الإسناد لا يقوم به حجة، ومسلم بن يسار هذا مجهول.

قيل: إنه مدنى وليس بمسلم بن يسار البصرى.

قال ابن أبى خيثمة: قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا عن زيد بن أبى أنيسة، فكتب بيده على مسلم بن يسار لا يعرف.

ثم ساقه أبو عمرو من طريق النسائى: أخبرنا محمد بن وهب، ثنا محمد بن سلمة، قال حدثنى أبو عبد الرحيم، قال حدثنى زيد بن أبى أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة.

ثم ساقه من طريق مخبره: حدثنا أحمد بن عبد الملك بن واقد، ثنا محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم، عن زيد بن أبى أنيسة، عن عبد الحميد، عن مسلم عن نعيم، قال أبو عمرو: وزيادة من زاد فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة، إن الذى لم يذكره أحفظ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن.

وجملة القول فى هذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم، لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعًا غير معروفين بحمل العلم، لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعة يطول ذكرهم.

ومراد أبى عمرو الأحاديث الدالة على القدر السابق. فإنها هى التى ساقها بعد ذلك، فذكر حديث عبد الله بن عمر فى القدر، وقال فى آخره: وسأله رجل من مزينة أو جهينة.

فقال: يارسول الله، ففيم العمل؟ فقال: «**إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار**»[1] .

قال: وروى هذا المعنى فى القدر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، على بن أبى طالب، وأبى بن كعب، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد وأبو سريحة الغفارى، وعبد الله بن مسعود ،وعبد الله بن عمرو، وعمران بن حصين، وعائشة، وأنس بن مالك، وسراقة بن جعشم، وأبو موسى الأشعرى، وعبادة ابن الصامت، وأكثر أحاديث هؤلاء لها طرق شتى، ثم ساق كثيرًا منها بإسناده .

وأما حديث أبى صالح عن أبى هريرة فإنما يدل على استخراج الذرية وتمثلهم فى صور الذر، وكان منهم حينئذ المشرق والمظلم وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرها بموضع واحد، ثم يرسل كل روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه .

نعم هو سبحانه يخص كل بدن بالروح التى قدر أن يكون له فى ذلك الوقت، وأما أنه خلق نفس ذلك البدن فى ذلك الوقت وفرغ من خلقها وأودعها فى مكان معطلة عن بدنها، حتى إذا أحدث بدنها أرسلها إليه من ذلك المكان، فلا يدل شيء من الأحاديث على ذلك ألبته لمن تأملها.

وأما حديث أبى بن كعب فليس هو عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وغايته لو صح -ولم يصح- أن يكون من كلام أبى، وهذا الإسناد يروى به أشياء منكرة جدًا مرفوعة وموقوفة، وأبو جعفر الرازى وثق وضعف .

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: فى القدر (٤٦٩٦)، والإمام أحمد فى مسنده (٢٧/١). من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

قال على بن المدينى: كان ثقة، وقال أيضًا: كان يخلط .

وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أيضًا: يكتب حديثه إلا أنه يخطىء .

وقال الإمام أحمد: ليس بقوى فى الحديث. وقال أيضًا: صالح الحديث .

وقال الفلاس: سيىءُ الحفظ .

وقال أبو زرعة: يهم كثيرًا .

وقال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير .

قلت: ومما ينكر من هذا الحديث قوله: فكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ عليها الميثاق، فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا، فدخل فى فيها.

ومعلوم أن الروح الذى أرسل إلى مريم ليس روح المسيح؛ بل ذلك الروح نفخ فيها فحملت بالمسيح ،قال تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا**﴾[مريم :١٧-١٩] .

فروح المسيح لا يخاطبها عن نفسه بهذه المخاطبة قطعًا، وفى بعض طرق حديث أبى جعفر هذا أن روح المسيح هو الذى خاطبها وهو الذى أرسل إليها وهاهنا أربع مقامات:

أحدها: أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم.

والثانى: أن الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته .

الثالث: أن هذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الأعراف :١٧٢] .

الرابع: أنه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها، وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

فأما المقام الأول: فالآثار متظاهرة به: مرفوعة وموقوفة .

وأما المقام الثاني: فإنما أخذ من أخذه من المفسرين من الآية، وظنوا أنه تفسيرها، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر، قال أبو إسحاق: جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التي أخرجها فهما تعقل به كما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[النمل :١٨] وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير .

قال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب، وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت .

وقال الجرجاني: ليس بين قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته، لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف :١٧٢] أي عن الميثاق المأخوذ عليهم، فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق.

قال: وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية، من أن الله تعالى.

قال للملائكة: إشهدوا فقالوا شهدنا.

قال: وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد، لأن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب، وعليها العقاب، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم.

قال: وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى: وذكر أنه قول أبي هريرة.

قال إسحاق: وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم.

قال الجرجاني: واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾[آل عمران :١٦٩] .

والأجساد قد بليت وضلت فى الأرض، والأرواح ترزق وتفرح، وهى التى تلذ وتألم وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر .

وبيان ذلك فى الأحلام موجود: أن الإنسان يصبح وأثر الفرح وألم الحزن باق فى نفسه، مما تلاقى الروح دون الجسد .

قال: وحاصل الفائدة فى هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه، وفى العالم وبالرسل المنفذة إليه مبشرين ومنذرين، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة إليهم أخبارها، غير أنه عز وجل لا يطالب أحدًا منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة، وركب فيهم من القدر وآتاهم من الأدلة، وبين سبحانه ما هو عامل فى البالغين الذين أدركوا الأمر والنهى، وحجب عنها علم ما قدره فى غير البالغين إلا انا نعلم أنه عدل لا يجور فى حكمه، وحكيم لا تفاوت فى صنعه، قادر لا يسأل عما يفعل. له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

ونازع هؤلاء غيرهم فى كون هذا معنى الآية:

وقالوا معنى قوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الأعراف :١٧٢]. أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفًا فى أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التى تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم. فليس من أحد إلا فيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه بارئه، ونافذ الحكم فيه. فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به، كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته، كما قال فى غير هذا الموضع شاهدين على أنفسهم بالكفر، يريدهم بمنزلة الشاهدين، وإن لم يقولوا نحن كفرة، كما تقول قد شهدت جوارحى بقولك تريد قد عرفته. فكأن جوارحى لو استشهدت وفى

وسعها أن تنطق لشهدت، ومن هذا إعلامه، وتبيينه أيضًا شهد الله أنه لا إله إلا هو. يريد أعلم، وأبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكام وغيرهم. هذا كلام ابن الأنبارى .

وزاد الجرجانى بيانًا لهذا القول فقال حاكيًا عن أصحابه: إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كائن كالكائن، إذ علمه بكونه مانعًا من غير كونه، تابعًا فى مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه، كما قال عز وجل فى مواضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ**﴾[الأعراف :٥٠]، ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾[الأعراف :٤٤]، ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ**﴾[الأعراف :٤٨]، قال: فيكون تأويل قوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ**﴾[الأعراف:١٧٢].

وكذلك قوله: ﴿**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ**﴾[الأعراف :١٧٢]، أى ويشهدهم بما ركبه فيهم من العقل الذى يكون به الفهم ويجب به الثواب والعقاب، وكل من ولد وبلغ الحنث وعقل الضرر والنفع وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق فى التوحيد بما ركب فيه من العقل وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه، وإذا لم يجز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره، ليس كمثله وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ، ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا إذا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بإصبعه، علمًا منه بأن خالقه تعالى فوقه، وإذا كان العقل الذى منه الفهم والإفهام، مؤديا إلى معرفة ما ذكرنا ودالاً عليه، فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق، إذ جعل فيه السبب والآلة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق، وجائز أن يقال له: قد أقر وأذعن وأسلم، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾[الرعد :١٥] .

قال واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**رُفِعَ القَلَمُ عن ثلاثٍ، عن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيقَ وعن النائم حتى ينتبه**»[1]، وقوله عز وجل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾[الأحزاب :٧٢]، ثم قال تعالى ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ**﴾[الأحزاب :٧٢]، الأمانة هاهنا عهد وميثاق، فامتناع السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والإفهام، وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه، قال: وللعرب فيها ضروب نظم.

فمنها قوله:

ضَمِنَ القنانُ لفقعسٍ بثباتها ... إن القنانَ لفقعسٍ لا يأتلي

والقنان: جبل، فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمانه لها أنهم كانوا إذا حزبهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم.

ومنه قول النابغة:

كأجارفِ الجولان هللَ ربَّهُ ... وحوران منها خاشعٌ متضائل

وأجارف الجولان: جبالها، وحوران: الأرض التي إلى جانبها، قال هذا القائل إن فى قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾[الأعراف :١٧٢، ١٧٣]، دليلًا على هذا التأويل، لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . والغفلة هاهنا لاتخلو من أحد وجهين:

إما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق، فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه فى كتابه أنه أخذ عليهم عهدًا وميثاقًا بمعرفة البعث والحساب، وإنما ذكر معرفته فقط.

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الحدود، باب: فى المجنون يسرق، أو يضيب حدًا (٤٤٠٣)، والإمام أحمد فى مسنده (٦/١٠٠). من حديث على بن أبى طالب ﷺ.

وأما أخذ الميثاق فالأطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذًا عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغًا يكون منهم غفلة عنه، فيجحدونه وينكرونه، فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر ما لايجوز ولا يكون محالاً وقوله تعالى: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾[الأعراف:١٧٣] فلا يخلو هذا الشرك الذى يؤاخذون به أن يكون منهم أنفسهم أو من آبائهم، فإن كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم، إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره، وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على ألا تزر وازرة وزر أخرى، كما قال عز وجل فى الكتاب .

وليس هذا بمخالف لما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد**»[1]. لأنه صلى الله عليه وآله وسلم اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه، فوضع الماضى من اللفظ موضع المستقبل .

قال: وهذا شبيه القصة بقصة قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ**﴾[آل عمران:٨١] فجعل سبحانه ما أنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقًا أخذه من أممهم من بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ**﴾[آل عمران:٨١] ثم قال للأمم: ﴿**أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾[آل عمران:٨١]، فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم، كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به إقرارًا منهم .

---

(١) الحديث: عزاه السيوطى فى الدر لابن أبى حاتم، وابن منده، وأبو الشيخ فى العظمة من حديث أبى هريرة ﷺ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

قلت: وشبيه به أيضًا قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾[المائدة :٧] فهذا ميثاقه الذى أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقه. ونظيره قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾[الرعد :٢٠] وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾[يس:٦٠،٦١] فهذا عهده إليهم على ألسنة رسله، ومثله قوله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[البقرة :٤٠]. ومثله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**﴾[آل عمران:١٨٧]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**﴾[الأحزاب :٧]، فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أممهم بعد إنذارهم، وهذا الميثاق الذى لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾[المائدة :١٣]، فإنما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذى أخذه عليهم على ألسنة رسله وقد صرح به فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[البقرة :٦٣] .

ولما كانت هذه الآية ونظيرها فى سورة مدنية خاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب، فإنه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله، ولما كانت هذه آية الأعراف فى سورة مكية، ذكر فيها الميثاق والإشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقر بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك، وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة، وينقطع به العذر وتحل به العقوبة، ويستحق بمخالفته الإهلاك فلابد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به، وذلك ما فطرهم عليه من الإقرار بربوبيته، وأنه ربهم وفاطرهم، وأنهم مخلوقون مربوبون، ثم ارسل إليهم رسله يذكرونهم بما فى فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم، وأمره ونهيه ووعده ووعيده، ونظم الآية إنما يدل على هذا من وجوه متعددة .

أحدها: أنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾[الأعراف :١٧٢]، ولم يقل آدم وبنو آدم غير آدم .

الثاني: أنه قال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾[الأعراف :١٧٢]، ولم يقل ظهره، وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن .

الثالث: أنه قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف :١٧٢] ولم يقل ذريته .

الرابع: انه قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾[الأعراف :١٧٢]، أى جعلهم شاهدين على أنفسهم، فلابد أن يكون الشاهد ذاكرًا لما شهد به؛ وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها .

الخامس: أنه سبحانه أخبر بأن حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجة عليهم، لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥] .

السادس: تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ومعلوم أنهم غافلون بالإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعًا ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم .

السابع: قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[الأعراف :١٧٣] تذكر حكمتين فى هذا التعريف والإشهاد:

إحداهما: أن لا يدعوا الغفلة.

والثانية: أن لا يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع فى تقليده لغيره.

الثامن: قوله تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف :١٧٣]، أى لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك، وهو سبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم فى شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل لأهلكهم بما فعل المبطلون، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون. وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار.

التاسع: أن سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليهم بهذا الإشهاد في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[الزخرف :٨٧] أى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الإقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم، وهذا كثير في القرآن، فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى: ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[إبراهيم :١٠]، فالله تعالى إنما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الإقرار والمعرفة، ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة .

العاشر: أنه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها، بحيث لا يتخلف عنها المدلول، وهذا شأن آيات الرب تعالى. فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به، فقال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ**﴾[الأعراف :٣٢]، أى مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات لعلهم يرجعون من الشرك إلى التوحيد، والكفر إلى الإيمان، وهذه الآيات التى فصلها هى التى بينها فى كتابه من أنواع مخلوقاته، وهى آيات أفقية ونفسية، آيات فى نفوسهم وذواتهم وخلقهم، وآيات فى الأقطار والنواحى، مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة، ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه ربه وخالقه ومبدعه، وأنه مربوب مخلوق مصنوع، حادث بعد أن لم يكن .

ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثله شيء، وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها، ليست بمكتسبة، وهذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الأعراف :١٧٢] مطابقة لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطرة**»[1].

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل فى أولاد المشركين (١٣٨٥)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[الروم:٣٠،٣١]. ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كالزمخشرى، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط، ومنهم من حكى القولين كابن الجوزى والواحدى والماوردى وغيرهم.

قال الحسن بن يحيى الجرجانى: فإن اعترض معترض فى هذا الفصل بحديث يروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: **«إنَّ اللَّهَ مَسَحَ ظَهرَ آدمَ فأخرَجَ مِنهُ ذُرِيَتُه وأخَذَ عليهم العهَد ثمَّ ردهَمُ فى ظهرِه»**.

وقال: إن هذا مانع من جواز التأويل الذى ذهبت إليه لامتناع ردهم فى الظهر، إن كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل.

قيل له: إن معنى ثم ردهم فى ظهره: ثم يردهم فى ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك: يأخذ ربك، فيكون معناه: ثم يردهم فى ظهره بوفاتهم، لأنهم إذا ماتوا ردوا إلى الأرض للدفن، وآدم خلق منها ورد فيها فإذا ردوا فيها فقد ردوا فى آدم وفى ظهره، إذ كان آدم خلق منها وفيها رد، وبعض الشىء من الشىء وفيما ذهبتم إليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن فى هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف:١٧٢]. ولم يذكر آدم فى القصة إنما هو هاهنا مضاف إليه لتعريف ذريته إنهم أولاده. وفى الحديث: **«أنَّهُ مَسَحَ ظَهرَ آدمَ»** فلا يمكن رد ما جاء فى القرآن، وما جاء فى الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذى ذكرناه.

قال الجرجانى وأنا أقول: ونحن إلى ما روى فى الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أمثل، وله أقبل وبه آنس، والله ولى التوفيق لما هو أولى وأهدى.

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر فى الرد على هذا القائل معنى

يحتمل ويسوغ فى النظم الجارى ومجاز العربية بسهولة، وإمكان من غير تعسف ولا استكراه، وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾[الأعراف:١٧٢]. مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه فى أخذ العهد عليهم، وإذ يقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ وانقطع هذا الخبر بتمام قصته، ثم ابتدأ عز وجل خبرًا آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة.

فقالوا: شهدنا يعنى نشهد كما قال الحطيئة:

شَهِدَ الحطيئةُ حِينَ يَلقَى رَبَّهُ   أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعذر

بمعنى يشهد الحطيئة.

يقول تعالى: نشهد أنكم ستقولون يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر، ثم أضاف إليه خبرًا آخر.

فقال: أو تقولوا بمعنى: وأن تقولوا، لأن أو بمعنى واو النسق، مثل قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[الإنسان:٢٤].

فتأويله: ونشهد أن تقولوا يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أى أنهم أشركوا وحملونا على مذهبهم فى الشرك فى صبانا، فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم، فلا ذنب لنا، إذ كنا مقتدين بهم والذنب فى ذلك لهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣]. يدل على ذلك قولهم: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٣]. أى حملهم إيانا على الشرك، فتكون القصة الأولى خبرًا عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم.

والقصة الثانية: خبر عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار، وقال فيما ادعاه المخالف أنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر، لاختلاف ألفاظهما فيهما قولا يجب قبوله بالنظائر والعبر التى تأيد بها لمخالفته.

فقال: إن الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله مَسَحَ ظَهرَ آدمَ**» أفاد زيادة خبر كان في القصة التي ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها، ولم يذكر كلها، ولو أخبر، صلى الله عليه وآله وسلم، بسوى هذه الزيادة التي أخبر بها، مما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذي أخذ فيه العهد، مما لم يضمنه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت، بل كان زيادة في الفائدة، وكذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضا، كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم، فذكر مرة أنه خلق من تراب.

ومرة أنه خلق من حمأ مسنون. ومرة من طين لازب. ومرة من صلصال كالفخار.

فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضا في الأحوال مختلفة أن الصلصال غير الحمأة، والحمأة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب.

ومن التراب تدرجت هذه الأحوال، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[الأعراف:١٧٢].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله مَسَحَ ظَهرَ آدمَ فاستخرجَ مِنْهُ ذُرِيَتَهُ**» معنى واحد في الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَسَحَ ظَهرَ آدمَ**» زيادة في الخبر عن الله عز وجل، ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته ومنه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم، كما ذكر تعالى، لأنا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه، لكن لما كان الطبق الأول من صلبه، ثم الثاني من صلب الأول،، ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم، وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم، جاز أن يكون ما ذكر، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور

ذريته، إذ الأصل والفرع شيء واحد، وفيه أيضا أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر، احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم، كما قال عز وجل: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء:٤].

والخبر في الظاهر عن الأعناق والنعت للأسماء المكنية فيها وهو مضاف إليها، كما كان آدم مضافًا إليه هناك، وليسا جميعًا بالمقصودين في الظاهر بالخبر، ولا يحتمل أن يكون قوله خاضعين للأعناق، لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر:

وتشرفُ بالقول الذي قد أذعْتَه كما شرفَتْ صدرُ القناةِ من الدَم

فالصدر مذكر، وقوله شرفت أتت لإضافة الصدر إلى القناة.

فهذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية:

وعلى كل تقدير فلا يدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقًا مستقرًا، وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر، واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم إن صح الخبر بذلك، والذي صح إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى شقي وسعيد، وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾[الأعراف:١١]. فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح، وذلك متأخر عن خلق آدم.

ولهذا قال ابن عباس: ولقد خلقناكم يعني آدم، ثم صورناكم لذريته.

ومثال هذا ما قاله مجاهد: خلقناكم يعني آدم وصورناكم في ظهر آدم، وإنما قال: خلقناكم بلفظ الجمع. وهو يريد آدم كما تقول: ضربناكم، وإنما ضربت سيدهم.

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا﴾[الأعراف:١١].وكأن قوله تعالى للملائكة ﴿اسْجُدُوا﴾ قبل

خلق ذرية آدم وتصويرهم فى الأرحام، وثم توجب التراخى والترتيب، فمن جعل الخلق والتصوير فى هذه الآية لأولاد آدم فى الأرحام يكون قد راعى حكم ثم فى الترتيب، إلا أن يأخذ بقول الأخفش، فإنه يقول: ﴿ثم﴾ هاهنا فى معنى الواو.

قال الزجاج: وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه.

قال أبو عبيد: وقد بينه مجاهد حين قال: إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم فى ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود.

قال: وهذا بين فى الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره فى صور الذر.

قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[الحج:٥]. فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم إذ هو أصلهم، والله سبحانه يخاطب الموجودين، والمراد آباؤهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٥٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[البقرة:٦١]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[البقرة:٧٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾[البقرة:٦٣]. وهو كثير فى القرآن يخاطبهم والمراد به آباؤهم، فهكذا قوله ولقد خلقناكم ثم صورناكم وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشخص إلى ذكر النوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾[المؤمنون:١٢، ١٣]. فالمخلوق من سلالة من طين آدم والمجعول نطفة فى قرار مكين ذريته. وأما حديث خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام، فلا يصح إسناده ففيه عتبة بن السكن، قال الدارقطنى: متروك. وأرطأة بن المنذر، قال ابن عدى: بعض أحاديثه غلط.

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فمن وجوه:

أحدها: أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا، فإن الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طينًا ثم صوره ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره، فلما دخلت الروح فيه صار لحمًا ودمًا حيًا ناطقًا. ففي تفسير أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لمَّا فَرغَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِنْ خَلقِ ما أحبَ استَوى على العرش، فَجعلَ إبليسَ ملَكًا على سَمَاءِ الدُّنْيَا وكَانَ مِنْ الخُزَّانِ قبله مِنْ ملائكةٍ يُقَالَ لهم الجنُ، وإنَّمَا سُمُوا الجنَ لأنهُم خزانُ أهلِ الجنةِ، وكَانَ إبليسُ مَعَ ملكهِ خَازَنا فوَقعَ فِي صدرهِ وَقَالَ: ما أعطانِي اللَّهُ هذا إلا لمزَيدٍ لِي**» وفي لفظ «**لمزية لي على الملائكة**»[1].فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة:٣٠]. قالوا ربنا وما يكون حال الخليفة، وما يصنعون في الأرض؟

قال الله: تكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضا.

قالوا: ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

قال: إني أعلم مالا تعلمون -يعني: من شأن إبليس-.

فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها.

فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فرجع ولم يأخذ.

وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فبعث ملك الموت فعاذت منه.

فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فاخذ من وجه الأرض وخلط

---

(١) الحديث: أخرجه الطبري في تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فلم يأخذ من مكان واحد فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، ولذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قِبَل الرب عز وجل حتى عاد طينًا لازبًا، واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[ص:٧١،٧٢]. فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه، فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة، فمرت به الملائكة ففزعوا لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعا إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار، تكون له صلصلة فذلك حين يقول: ﴿**مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾[الرحمن:١٤].

ويقول: لأمر ما خلقت. ودخل من فيه فخرج من دبره.

فقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكته، فلما بلغ الحين الذى يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح.

قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس.

فقالت الملائكة: قل الحمد لله.

فقال: الحمد لله.

فقال له الله: يرحمك ربك، فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام قبل أن يبلغ الروح رجليه، فنهض عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[الأنبياء:٣٧]. وذكر باقي الحديث.

وقال يونس بن عبد الأعلى: أخبرنا ابن وهب، ثنا ابن زيد، قال: لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعرًا شديدًا.

وقالوا: ربنا لم خلقت هذه النار لأى شيء خلقتها؟

قال: لمن عصانى من خلقى، ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكـة والأرض ليس فيها خلق إنمـا خلـق آدم بعـد ذلـك، وقـرأ قولـه تعـالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾[الإنسان:١].

قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ليت ذلك الحين.

ثم قال: وقالت الملائكة ويأتى علينا دهر نعصيك فيه لا يرون له خلقا غيرهم.

قال: لا، إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقًا وأجعل فيها خليفة. وذكر الحديث.

قال ابن إسحاق: فيقال والله أعلم: خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليـه أربعيـن عاما قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار، ولم تمسسه نار فيقال: والله أعلم: لما انتهى الروح إلى رأسه عطس.

فقال: الحمد لله وذكر الحديث.

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفـخ فيـه مـن روحـه بعـد خلـق جسده، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح، ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مـع جملة أرواح ذريته، لما عجبت الملائكة من خلقه، ولما تعجبت من خلق النار.

وقالت: لأى شيء خلقتها؟ وهى ترى أرواح بنى آدم، فيهم المؤمن والكـافر والطيب والخبيث.

ولما كانت أرواح الكفـار كلهـا تبعًـا لإبليـس؛ بـل كـانت الأرواح الكـافرة مخلوقة قبل كفره، فإن الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر؛ بعد خلـق بـدن آدم وروحه، ولم يكن قبل ذلك كافرا، فكيف تكـون الأرواح قبلـه كـافرة ومؤمنـة، وهو لـم يكـن كـافرًا إذ ذاك، وهـل حصـل الكفـر لـلأرواح إلا بتزيينـه وإغوائـه فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفـره، إلا أن يقـال كـانت كلهـا مؤمنـة ثـم ارتدت بسببه.

والذى احتجوا به على تقديم خلق الأرواح يخالف ذلك.

وفى حديث أبى هريرة فى تخليق العالم: الإخبار عن خلـق أجنـاس العـالم وتأخر خلق آدم إلى يـوم الجمعـة، ولـو كـانت الأرواح مخلوقـة قبـل الأجسـاد لكانت من جملة العالم المخلوق فى ستة أيام، فلما لم يخبر عن خلقها فى هذه

الأيام، علم أن خلقها تابع لخلق الذرية، وأن خلق آدم وحده هو الذى وقع فى تلك الأيام الستة، وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعاين.

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهى حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك فى العالم شاعرة به ولو بوجه ما، ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها. وهى بين ملأ من الأرواح. ثم تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهى فى البدن على التفصيل وتعلم ما كانت عليه هاهنا. مع أنها اكتسبت بالبدن أمورًا أعاقتها عن كثير من كمالها، فلأن تشعر بحالها الأول وهى غير معوقة هناك بطريق الأولى، إلا أن يقال: تعلقها بالبدن اشتغالها بتدبيره منعها من شعورها بحالها الأول، فيقال: هب أنه منعها من شعورها به على التفصيل والكمال، فهل يمنعها من أدنى شعور بوجه ما مما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن؟

ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهى فى البدن. فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك؟

وأيضا فإنها لو كانت موجودة قبل البدن لكانت عالمة حية ناطقة عاقلة، فلما تعلقت بالبدن سلبت ذلك كله، ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئا فشيئًا، وهذا لو كان لكان من أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة عاقلة ثم تعود ناقصة ضعيفة جاهلة، ثم تعود بعد ذلك إلى عقلها وقوتها، فأين فى العقل والنقل والفطرة ما يدل على هذا؟ وقد قال تعالى ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[النحل:٧٨]. فهذه الحال التى أخرجنا عليها هى حالنا الأصلية، والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارئ علينا حادث فينا بعد أن لم يكن، ولم نكن نعلم قبل ذلك شيئًا ألبتة، إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به.

وأيضا فلو كانت مخلوقة قبل الأجساد وهى على ماهى الآن من طيب وخبث، وكفر، وإيمان، وخير، وشر، لكان ذلك ثابتا لها قبل الأعمال، وهى إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التى سعت فى طلبها واستعانت

عليها بالبدن، فلم تكن لتتصف بتلك الهيئات والصفات قبل قيامها بالأبدان التى بها عملت تلك الأعمال، وإن كان قدر لها قبل إيجادها ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ما قدر لها فنحن لا ننكر الكتاب والقدر السابق لها من الله، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت فى مكان حية عالمة ناطقة، ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئًا فشيئًا، لكنا أول قائل به. فالله سبحانه على كل شىء قدير. ولكن لا تخبر عنه خلقًا وأمرًا إلا بما أخبر به عن نفسه على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لم يخبر عنه بذلك، وإنما أخبر بما فى الحديث الصحيح: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرسَلُ إليه الملكُ يَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»**[1]. فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه، فإذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه، ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها فى بدنه، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه، لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التى كانت موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل مع الملك، ففرق بين أن يرسل إليه ملكًا ينفخ فيه الروح، وبين أن يرسل إليه روحًا مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك، وتأمل ما دل عليه النص من هذين المعنيين. وبالله التوفيق.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: القدر (٦٥٩٤)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه (٢٦٤٣). من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.



الباب الثانى

مسائـــل النفس



المسألة الأولى

فى ماهية النفس

هل هى جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد؟ وهل هى الروح أو غيرها؟ وهل الأمارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة، لها هذه الصفات أم هى ثلاث أنفس؟

فالجواب: أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف، واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم، وهدى الله أتباع الرسول وأهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فنذكر أقوال الناس ومالهم وما عليهم فى تلك الأقوال، ونذكر الصواب بحمد الله وعونه.

قال أبو الحسن الأشعرى فى مقالاته: اختلف الناس فى الروح والنفس والحياة وهل الروح هى الحياة أو غيرها، وهل الروح جسم أم لا؟

فقال النظام: الروح هى جسم، وهى النفس، وزعم أن الروح حى بنفسه، وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى.

وقال آخرون: الروح عرض.

قال قائلون -منهم جعفر بن حرب- لا ندرى الروح جوهر أو عرض، كذا قال.

واعتلوا فى ذلك بقوله تعالى : ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[الإسراء:٨٥].

ولم يخبر عنها ماهى لا أنها جوهر ولا عرض.

قال: وأظن جعفرًا أثبت أن الحياة غير الروح، وأثبت الحياة عرضًا.

وكان الجبائى يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة، والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة: خرجت روح الإنسان، وزعم أن الروح لا تجوز عليها الأعراض.

وقال قائلون: ليس الروح شيء أكثر من اعتدال الأربع، ولم يرجعوا من قولهم إلا إلى المعتدل، ولم يثبتوا فى الدنيا شيئا إلا الطبائع الأربع، التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

وقال قائلون: إن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربع، وأنه ليس فى الدنيا إلا الطبائع الأربع والروح.

واختلفوا فى الروح فبينها بعضهم طباعا وبينها بعضهم أجسادًا.

وقال قائلون: الروح الدم الصافى الخالص من الكدر والعفونات وكذلك قالوا فى القوة.

وقال قائلون: الحياة هى الحرارة الغريزية، وكل هؤلاء الذين حكينا أقوالهم فى الروح من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هى الروح.

وكان الأصم لا يثبت الحياة والروح شيئا غير الجسد ويقول: ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذى أراه وأشاهده، وكان يقول: النفس هى هذا البدن بعينه لا غير وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشيء لا على أنها معنى غير البدن.

وذكر عن أرسطاليس: أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت النسق واللون وأنها جوهر بسيط مثبت فى العالم كله من الحيوان على جهة الإعمال له والتدبير، وأنه لا يجوز عليه صفة قلة ولا كثرة.

قال: وهى على ما وصفت من انبساطها فى هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير.

وقال آخرون: بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق، وأنها غير مفارقة فى هذا العالم لغيرها فيما يجرى عليه حكم الطول والعرض والعمق ، وكل واحد منهما يجمعها صفة الحد والنهاية.

وقالت طائفة: إن النفس موصوفة بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من معنى الحدود والنهايات، إلا أنها غير مفارقة لغيرها مما لا يجوز أن يكون موصوفًا بصفة الحيوان.

وحكى جرير عن جعفر بن مبشر: أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس بجسم، ولكنه معنى باين الجوهر والجسم.

وقال آخرون: النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عنده عرض، وهو أبو الهذيل وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان فى حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾[الزمر:٤٢].

وقال جعفر بن حرب: النفس عرض من الأعراض يوجد فى هذا الجسم، وهو أحد الآلات التى يستعين بها الإنسان على الفعل، كالصحة والسلامة وما أشبهها وأنها غير موصوفة بشيء من صفات الجواهر والأجسام. هذا ما حكاه الأشعرى.

وقالت طائفة: النفس هى النسيم الداخل والخارج بالتنفس، قالوا: والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس، وهذا قول القاضى أبى بكر بن الباقلانى ومن اتبعه من الأشعرية.

وقالت طائفة: ليست النفس جسما ولا عرضا وليست النفس فى مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض، ولا هى فى العالم ولا خارجة ولا مجانبة له ولا مباينة، وهذا قول المشاءين. وهو الذى حكاه الأشعرى عن أرسطاطاليس زعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالالتصاق ولا بالمقابلة، وإنما هو التدبير له فقط، واختار هذا المذهب البوسنجى ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد، ومعمر بن عباد الغزالى، وهو قول ابن سينا وأتباعه وهو أردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب.

وقال أبو محمد ابن حزم: وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان جثة متحيزة مصرفة للجسد، قال: وبهذا نقول. قال: والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد، ومعناهما واحد، وقد ضبط أبو عبد الله ابن الخطيب مذاهب الناس فى النفس فقال: ما يشير إليه كل إنسان بقوله أنا إما أن يكون جسما أو عرضا ساريا فى الجسم أو لا جسما ولا عرضا ساريا فيه.

وأما القسم الأول وهو أنه جسم، فذلك الجسم، إما أن يكون هذا البدن وإما أن يكون جسما مشاركا لهذا البدن، وإما أن يكون خارجا عنه، أما القسم الثالث وهو أن نفس الإنسان عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن، فهذا لم يقله أحد، أما القسم الأول وهو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكل المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين.

قلت: هو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازى أقوالهم من أهل البدع، وغيرهم من المضلين. وأما قول الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن له بها شعور البتة، ولا أعتقد أن لهم فى ذلك قولا على عادته فى حكاية المذاهب الباطلة فى المسألة، والمذهب الحق الذى دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره ، وهذا الذى نسبه إلى جمهور الخلق من أن الإنسان هو هذا البدن المخصوص فقط، وليس وراءه شىء هو من أبطل الأقوال فى المسألة؛ بل هو أبطل من قول ابن سينا وأتباعه، بل الذى عليه جمهور العقلاء ، أن الإنسان هو البدن والروح معًا، وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة فالناس لهم أربعة أقوال فى مسمى الإنسان: هل هو الروح فقط؟ أو البدن فقط؟ أو مجموعهما أو كل واحد منهما.

وهذه الأقوال الأربعة لهم فى كلامه هل هو اللفظ فقط أو المعنى فقط، أو مجموعهما. أو كل واحد منهما، فالخلاف بينهم فى الناطق ونطقه.

قال الرازى: وأما القسم الثانى وهو أن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود فى داخل هذا البدن، فالقائلون بهذا القول اختلفوا فى تعيين ذلك الجسم على وجوه:

الأول: أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التى منها يتولد هذا البدن.

والثانى: أنه الدم.

والثالث: أنه الروح اللطيف الذى يتولد فى الجانب الأيسر من القلب وينفذ فى الشريانات إلى سائر الأعضاء.

والقول الرابع: أنه الروح الذى يصعد القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكر والذكر.

والخامس: أنه جزء لا يتجزأ فى القلب.

والسادس: أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك ، وينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء وسريان الدهن فى الزيتون، والنار فى الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح، وهذا القول هو الصواب فى المسألة وهو الذى لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد.

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾[الزمر:٤٢]. ففى الآية ثلاثة أدلة: الإخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ**﴾إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾[الأنعام:٩٣،٩٤]. وفيها أربعة أدلة.

أحدها: بسط الملائكة أيديهم لتناولها.

الثانى: وصفها بالإخراج والخروج.

الثالث: الإخبار عن عذابها فى ذلك اليوم.

الرابع: الإخبار عن مجيئها إلى ربها فهذه سبعة أدلة.

الثامن: قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ**﴾. إلى قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**﴾[الأنعام:٦٠،٦١]. وفيها ثلاثة أدلة:

أحد ها: الإخبار بتوفي الأنفس بالليل.

الثاني: بعثها إلى أجسادها بالنهار.

الثالث: توفي الملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة.

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر:٢٧-٣٠]. وفيها ثلاثة أدلة:

أحدها: وصفها بالرجوع.

والثاني: وصفها بالدخول.

والثالث: وصفها بالرضا.

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو البعث أو في الموضعين على ثلاثة أقوال، وقد روى في حديث مرفوع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال لأبي بكر الصديق: «**أما إنَّ الملكَ سيقولُها لَكَ عِندَ الموتِ**»[1]، عن ابن عباس.

وقال زيد بن أسلم: بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث. قال أبو صالح: ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ هذا عند الموت ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ قال هذا يوم القيامة فهذه أربعة عشر دليلاً.

الخامس عشر: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الروحَ إذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصرُ**»[2] ففيه دليلان:

---

(١) الحديث: عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٧/٢)، للحكيم الترمذي، حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المريض والميت (٩٢٠). من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

أحدهما: وصفه بأنه يقبض.

والثاني: أن البصر يراه.

والسابع عشر: ما رواه النسائي: ثنا أبو داود، عن عفان، عن حماد، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة أن أباه قال: رأيت في المنام كأني أسجد على جبهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بذلك، فقال: إن الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا قال عفان برأسه إلى حلقه فوضع جبهته النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فأخبر أن الأرواح تتلاقى في المنام. وقد تقدم قول ابن عباس: تلتقي أرواح الأحياء والأموات في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى.

الثامن عشر: قوله صلى الله عليه وآله وسلم، في حديث بلال «**إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أروَاحَكم ورَدَّهَا إِلَيْكم حِيَن شَاءَ**». ففيه دليلان وصفها بالقبض، والرد.

العشرون: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**نَسمةُ المُؤمنِ طائرٌ يَعلقُ في شَجرِ الجنةِ**» وفيه دليلان:

أحدهما: كونها طائرًا.

الثاني: تعلقها في شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين.

الثاني والعشرون: قوله: «**أرواحُ الشُّهَداءِ فِي حَواصِلِ طَيرٍ خُضرٍ تَسرَحُ فِي الجَنَّةِ حَيثُ شَاءتْ وَتأوى إِلى قناديلَ مُعَلقةٍ بالعَرشِ فاطَّلعَ إِليهم ربُّك إطِلاَعة فَقَالَ: أيَ شيءٍ تُريدُون**» وقد تقدم وفيه ستة أدلة:

أحدها: كونها مودعة في جوف طير.

الثاني: أنها تسرح في الجنة.

الثالث: أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها.

الرابع: أنها تأوى إلى تلك القناديل أى تسكن إليها.

الخامس: أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته.

السادس: أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا، فعلم أنها مما يقبل الرجوع.

فإن قيل: هذا كله صفة الطير لا صفة الروح.

قيل: بل الروح المودعة فى الطير قصدًا، وعلى الرواية التى رجحها أبو عمرو وهى قوله: «**أرواح الشهداء كطير**» ينفى السؤال بالكلية.

التاسع والعشرون: قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فى حديث طلحة بن عبيد الله: أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو ابن حزام ، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ذاكَ عَبدُ اللّهِ، أَلمْ تَعلمْ أنْ اللّهَ قَبضَ أرواحَهمْ فجَعلهَا فِى قَنادِيلَ مِنْ زبرجدٍ وَياقُوتٍ ثمَّ عَلقَها وَسَطَ الجَنّـةِ، فإذَا كَانَ الليلُ رُدتَ إليهُمُ أرواحَهُم، فلاَ تَزالُ كذَلَـكَ حَتَى إذَا طَلَعَ الفجرُ رُدَّتَ أروَاحُهم إلى مكانِها التى كَانَتَ**»[1] وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم.

أحدها: جعلها فى القناديل.

الثانى: انتقالها من حيز إلى حيز.

الثالث: تكلمها وقراءتها فى القبر.

الرابع: وصفها بأنها فى مكان.

الثالث والثلاثون: حديث البراء بن عازب ، وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دليلا.

أحدها: قول ملك الموت لنفسه: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية. وهذا الخطاب لمن يفهم ويعقل.

الثانى: قوله: اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان.

الثالث: قوله فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء.

الرابع: قوله: فلا يدعونها فى يده طرفة عين حتى يأخذوه منه.

الخامس: قوله: حتى يكفنوها فى ذلك الكفن ويحنطوها بذلك الحنوط. فأخبر أنها تكفن وتحنط .

---

(١) الحديث: عزاه المتقى الهندى فى الكنز (١٣/٤٨٠، ٤٨١) من حديث طلحة بن عبيد الله.

السادس: قوله: ثم يصعد بروحه إلى السماء.

السابع: قوله: ويوجد منها كأطيب نفحة مسك وجدت.

الثامن: قوله: فتفتح له أبواب السماء.

التاسع: قوله: ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى الرب تعالى.

العاشر: قوله : فيقول الله تعالى: ردوا عبدى إلى الأرض.

الحادى عشر: قوله: فترد روحه فى جسده.

الثانى عشر: قوله فى روح الكافر: فتفرق فى جسده فيجذبها فتنقطع منها العروق والعصب.

الثالث عشر: قوله: ويوجد لروحه كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض.

الرابع عشر: قوله: فيقذف بروحه من السماء وتطرح طرحًا فتهوى إلى الأرض.

الخامس عشر: قوله: فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب وما هذا الروح الخبيث؟

السادس عشر: قوله: فيجلسانه ويقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فإن كان هذا للروح فظاهر وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء.

السابع عشر: قوله: أرجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة ، فيرى مقعده من الجنة أو النار.

التاسع عشر: قوله فى الحديث: **«إِذَا خَرَجَتْ رَوحُ المؤمنِ صَلَّىَ عليهَا كُلُّ مَلكٍ لِلَّهِ بَينَ السماءِ والأرضِ»**. فالملائكة تصلى على روحه وبنو آدم يصلون على جسده.

العشرون: قوله: فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار ، حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى ، وإنما الذى يرى المقعدين الروح.

الرابع والخمسون: حديث أبى موسى: تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء.

فيقولون: هذا فلان ابن فلان، كان يعمل كيت وكيت بمحاسن عمله، فيقولون مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذى كان يصعد منه عمله، فتشرق فى السماوات، وهو كبرهان الشمس حتى ينتهى بها إلى العرش.

وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون: من هذا ؟ فيقولون: فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت لمساوىء أعماله، فيقولون: لا مرحبا لا مرحبا ردوه، فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى، ففيه عشرة أدلة:

أحدها: خروج نفسه.

الثانى: طيب ريحها.

الثالث: انطلاق الملائكة بها.

الرابع: تحية الملائكة لها.

الخامس: قبضهم لها.

السادس: صعودهم بها.

السابع: إشراق السماوات لضوئها.

الثامن: انتهاؤها إلى العرش.

التاسع: قول الملائكة: من هذا؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها.

العاشر: قوله:ردوه إلى أسفل الأرضين.

الرابع والستون: حديث أبى هريرة: «**إذَا خَرجَتْ روحُ المؤمنِ تلقاه ملكانِ فيُصعِدَانِهِ إلى السماء فيقولُ أهلُ السماء: روحٌ طيبةٌ جَاءتْ مِنْ قِبَلِ الأرضِ، صَلّى اللهُ عَليكِ وَعَلى جسدٍ كُنتِ تُعمِرينه، وذكر المسك ثم يصعد به إلى ربه عز وجل فيقول: ردوه إلى آخر الأجلين**»[1] ففيه خمسة أدلة.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض الميت مقعده من الجنة أو النار (٢٨٧٢).

أحدها: قوله : تلقاه ملكان.

الثاني: قول الملائكة : روح طيبة جاءت من قبل الأرض.

الثالث: صلاتهم عليها.

الرابع: طيب ريحها.

الخامس: الصعود بها إلى الله عز وجل.

الحادى والسبعون: حديث أبي هريرة ﷺ:**«إِنَّ الْمُؤمنَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ.**

قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا.

فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ:فُلانٌ ابن فُلان.

فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ.

قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلا يَزَالُ حَتَّى تَخْرُجَ، فَيُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ.

فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ:فُلانٌ ابن فُلانٌ.

فَيُقَالُ: لا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ الأرضِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ». وفيه عشرة أدلة:

أحدها: قوله: **«كانت فى الجسد الطيب، وكانت فى الجسد الخبيث»** فهاهنا حال ومحل.

الثاني: قوله : **«اخرجى حميدة»** .

الثالث: قوله: «**وأبشري بروح وريحان**» فهذا بشارة بما تصير إليه بعد خروجها.

الرابع: قوله: «**فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء**».

الخامس: قوله: «**فيستفتح لها**».

السادس: قوله: «**ادخلى حميدة**».

السابع: قوله: «**حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى**».

الثامن: قوله: لنفس الفاجر «**ارجعى ذميمة**».

التاسع: قوله: «**فإنه لا تفتح لك أبواب السماء**».

العاشر: قوله: «**فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر**».

الحادى والثمانون: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الأرواحُ جُنودٌ مُجندةٌ، فما تعَارفَ منها ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ**» متفق عليه.

فوصفها بأنها جنود مجندة، والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتناكر، ومحال أن تكون هذه الجنود أعراضًا أو تكون لا داخل العالم ولا خارجه، ولا بعض لها ولا كل.

الثانى والثمانون: قوله فى حديث ابن مسعود ﷺ: «**أنَّ الأرواحَ تَتلاقى وتَتشأمَ كما تَشأم الخَيلُ**» وقد تقدم.

الثالث والثمانون: قوله في حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: «**إنَّ أرواحَ المُؤمِنينَ تَتَلاقى على مسيرةِ يَومين وما رأى أحدهما صَاحِبَهُ**» .

الرابع والثمانون: الآثار التى ذكرناها فى خلق آدم، وأن الروح لما دخل فى رأسه عطس، فقال: الحمد لله، فلما وصل الروح إلى عينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما وصل إلى جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه، وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة.

الخامس والثمانون: الآثار التى فيها إخراج الرب تعالى النسم وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حينئذ فى الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرج وقد تقدم.

السادس والثمانون: وحديث تميم الداري: أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجدًا بين يديه وأن الملائكة تتلقى الروح بالبشرى، وأن الله تعالى يقول لملك الموت **«انطلق بروح عَبدِى فضعْهُ فى مكان كذا وكذا»** وقد تقدم.

السابع والثمانون: الآثار التى ذكرناها فى مستقر الأرواح بعد الموت، واختلاف الناس فى ذلك، وفى ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن للروح مستقرًا بعد الموت، وإن اختلف فى تعيينه.

الثامن والثمانون: ما قد علم بالضرورة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاء به وأخبر به الأمة أنه تثبت أجسادهم فى القبور، فإذا نفخ فى الصور رجعت كل روح إلى جسدها، فدخلت فيه، فانشقت الأرض عنه فقام من قبره.

وفى حديث الصور: أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعا أرواح المسلمين نورًا والأخرى مظلمة، فيجمعها جميعا فيعلقها فى الصور ثم ينفخ فيه.

فيقول الرب جل جلاله: وعزتى ليرجعن كل روح إلى جسده، فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيأتى كل روح إلى جسده فيدخل، ويأمر الله الأرض فتنشق عنهم، فيخرجون سراعا إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعى يسمعون المنادى من مكان قريب، فإذا هم قيام ينظرون. وهذا معلوم بالضرورة أن الرسول أخبر به، وأن الله سبحانه لا ينشئ لهم أرواحًا غير أرواحهم التى كانت فى الدنيا؛ بل هى الأرواح التى اكتسبت الخير والشر أنشأ أبدانها نشأة أخرى، ثم ردها إليها.

التاسع والثمانون: أن الروح والجسد يختصمان بين يدى الرب- عز وجل- يوم القيامة.

قال على بن عبد العزيز: ثنا أحمد بن يونس، ثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة، حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح: يارب إنما كنت روحًا منك جعلتنى فى هذا الجسد، لا ذنب لى. ويقول الجسد: يا رب كنت جسدًا خلقتنى ودخل فىَّ هذا الروح مثل النار فيه كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجيء لا ذنب لى.

قال: فيقال : أنا أقضى بينكما أخبرانى عن أعمى ومقعد دخلا حائطًا فقال المقعد للأعمى. إنى أرى ثمرًا فلو كانت لى رجلان لتناولت، فقال الأعمى : أنا أحملك على رقبتى، فحمله فتناول من الثمر فأكلا جميعا، فعلى من الذنب؟

قالا: عليهما جميعا، فقال: قضيتما على أنفسكما.

التسعون: الأحاديث والآثار الدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث، فمعلوم أن الجسد تلاشى واضمحل، وأن العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة، إنما هما على الروح.

الحادى والتسعون: إخبار الصادق المصدوق ، صلى الله عليه وآله وسلم، فى الحديث الصحيح عن الشهداء **«أنهم لمّا سُئلوا ما تريدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيُد أنْ تُردَّ أرواحُنَا فِى أجسَادِنَا، حتى نُقتَلَ فِيكَ مرةً أُخرى»**[1].فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة تقبل الرد إلى الدنيا والدخول فى أجساد خرجت منها، وهذه الأرواح سُئلت وهى تسرح فى الجنة، والأجساد قد مزقها البلى.

الثانى والتسعون: ما ثبت عن سلمان الفارسى وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم: أن أرواح المؤمنين فى برزخ تذهب حيث شاءت، وأرواح الكفار فى سجين وقد تقدم.

الثالث والتسعون: رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم، لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الإسراء، فرآها متحيزة بمكان معين.

الرابع والتسعون: رؤيته أرواح الأنبياء فى السماوات وسلامهم عليه وترحيبهم به، كما أخبر به وأما أبدانهم ففى الأرض.

الخامس والتسعون: رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم، أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة (١٨٨٧)، والترمذى، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (٣٠١١)، وقال: حسن صحيح.

السادس والتسعون: رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم، أرواح المعذبين فى البرزخ بأنواع العذاب، فى حديث سمرة الذى رواه البخارى فى صحيحه، وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت، وإنما كان الذى رآه أرواحهم ونسمهم يفعل بها ذلك.

السابع والتسعون: إخباره سبحانه عن الذين قتلوا فى سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون. وأنهم فرحون مستبشرون بإخوانهم، وهذا للأرواح قطعا، لأن الأبدان فى التراب تنتظر عود أرواحها إليها يوم البعث.

الثامن والتسعون: ما تقدم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، ونحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع فى الروح، وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم، قال: بينما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ذات يوم قاعدا ، تلا هذه الآية ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ**﴾[الأنعام:٩٣]. الآية . ثم قال: «**وَالذى نفسُ مُحمد بيدِهِ، مَا مِنْ نَفس تفارقُ الدُّنيَا حَتى ترى مقعَدَها مِنْ الجَنةِ أو النارِ، فإذا كانَ عند ذلكَ صفَ لَهُ سِماطانِ مِنْ الملائكة ينتظمان مَا بين الخافقين، كأنَ وجوهَهم الشمسُ، فَينظرُ إليهم مَا يَرى غيرَهم وَإنْ كُنتم ترونَ أنهُ ينظرُ إليكم، مَع كلِ ملكٍ مِنهم أكفَان وَحنوط، فإن كَانَ مُؤمِنا بَشرُوهُ بالجَنةِ، وقَالوا: اخرُجى أيتُها النفسُ المطمَئنةُ إلى رضوانِ اللهِ وجنَّتِهِ، فَقد أعد اللهُ لَك مِنْ الكَرامةِ مَا هو خير لَك مِنْ الدنيا وَمَا فيها، فَلا يَزالونَ يبشرُونَه، فَلَهمْ ألطفُ بهِ وأرأفُ مِنْ الوالدةِ بولدِها ثم يَسَلُونَ رُوحَه مِنْ تحتَ كُلِ ظُفر ومفصل يموتُ الأولُ فالأول، وَيبْردُ كُل عُضوٍ الأول فالأول وَيَهونُ عليه وإنْ كُنتم ترونه شديدًا حتى تَبلغَ ذَقنه فهى أشدُ كراهيَة للخروجِ مِنْ الجَسدِ مِنْ الولدِ حينَ يخرجُ مِنْ الرحِم، فيبتدرُونها كُل ملكٍ مِنهم أيهم يقبضها فيَتولى قبضها ملك الموت، ثُمَّ تلا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيتلقَاها بأكفانٍ بيض ثم**

يحتضنها إليه، فلهو أشدُ لزومًا مِنْ المرأةِ لولدِها، ثم يُفوحُ مِنهَا رِيحَ أطيَبُ مِنْ المِسكِ فيتنشقُونَ ريحًا طيبًا وَيتباشرُونَ بها، وَيَقُولُونَ: مرحبًا بالريح الطيبةِ وَالروحِ الطيب اللَّهم صلِ عَليه روحًا وَصلِ عَلى جسدٍ خَرجتْ منهُ، قَالَ: فَيَصعُدونَ بها فتفوحُ لهم ريح أطيب مِنْ المسكِ، فيصلُون عليها وَيتباشرون بها، وتفتحُ لهم أبوابُ السماء ، ويصُلِّي عليها كلُ ملكٍ فِي كل سماءٍ تمرُ بهِم حَتى تَنتهَى بَين يَدى الجبَارِ جلَّ جَلالهُ ، فيقولُ الجبارُ عزَّ وجلَّ: مَرحَبًا بالنفسِ الطيبةِ أدخلُوها الجنةَ ، وأروُها مقعَدها مِنْ الجنةِ واعرضُوا عَليها ما أعددتُ لها مِنْ الكرامةِ والنعيمِ ، ثمَّ اذهبوُا بها إلى الأرضِ ، فإنىّ قضيتُ أنيَّ مِنها خَلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارَّةَ أُخرى ، فوالذى نفسُ محمدٍ بيدهِ لَهى أشدُ كراهيةَ للخروج مِنها حِين كَانت تخرجُ مِنْ الجسدِ ، وتقولُ أين تذهبُونَ بى إلى ذلكَ الجسدِ الذى كُنتَ فيهَ، فيقُولُونَ: إنا مأمورون بهذا، فلابد لَكَ منه فيهبطون به عَلى قدرِ فراغِهم مِنْ غُسلِهِ وأكفانِهِ ، فيدخلُون ذلكَ الروحَ بين الجسدِ وأكفانهِ». فتأمل كم فى هذا الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين فى الروح.

التاسع والتسعون: ما ذكره عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيلماني، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما[1]: **«إذا تُوفِيَ المؤمنُ بُعثَ إليهِ مَلكان بريحانٍ مِنْ الجنّةِ وخِرقةٍ تُقبضُ فِيها فتخرجُ كأطيبِ رائحةٍ وَجَدَها أحدُ قطَّ بأنفِهِ، حتى يُؤتىَ بِهِ الرحمنُ جلَّ جلالهُ فتسجدُ الملائكةُ قِبَلَهُ، ويسجدُ بعدهم ثمَّ يُدعَى ميكَائيلَ عليه السلام فيُقالَ: اذهبْ بهذه النفسِ فاجعلْهَا مَع أنفسِ المؤمَنين حتى أسألَكَ عَنْها يَومَ القيامةِ».**

وقد تظاهرت الآثار عن الصحابة: أن روح المؤمن تسجد بين يدى العرش فى وفاة النوم ووفاة الموت، وأما حين قدومها على الله فأحسن تحيتها أن تقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

(١) الحديث: أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٣/٥٦٤-٥٦٧). وقد أورده المصنف هنا مختصراً.

وحدثني القاضي نور الدين بن الصائغ، قال: كانت لي خالة وكانت من الصالحات العابدات ، قال: عدتها في مرض موتها.

فقالت لي: الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له؟

قال: فعظمت عليَّ مسألتها، وفكرت فيها ثم قلتُ: تقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام قال: فلما توفيت رأيتها في المنام فقالت لي: جزاك الله خيرًا، لقد دهشت فما أدري ما أقوله، ثم ذكرت تلك الكلمة التي قلت لي فقلتها.

المائة: ما قد اشترك في العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم إياهم بأمور خفيت عليهم، فرأوها عيانا، وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده وأعجب من هذا الوجه.

الحادي والمائة: أن روح النائم يحصل لها في المنام آثار فيصبح تراها على البدن عيانا، وهي من تأثير الروح في الروح كما ذكر القيرواني في كتاب البستان عن بعض السلف.

قال: كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولني، فانصرفت إلى منزلي وأنا مغموم حزين، فنمت وتركت العشاء، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام.

فقلت: يا رسول الله، فلان يسب أصحابك.

قال: «**مَنْ أصحَابي؟**» .

قُلتُ: أبو بكرٍ وعمرَ.

فقَالَ: «**خذْ هذه المديَةَ فاذبحه بها**»، فأخذتُهَا فأضجَعْتَهُ وذبَحتُهُ، ورأيتُ كأنَ يدي أصابهَا مِنْ دمه، فألقيت المدية، وأهويت بيدي إلى الأرض لأمسحُهَا، فانتهيتُ، وأنا أسمعُ الصراخَ مِنْ نحو داره، قالُوا: فلان مَاتَ فجأة، فلمَّا أصبَحْنا جئتُ فنَظرْتُ إليهِ فإذا خطٌ موضَعَ الذبح، فقلت: ما هذا الصريخ؟.

وفي كتاب المنامات لابن أبي الدنيا عن شيخ من قريش قال: رأيت رجلاً بالشام قد أسود نصف وجهه وهو يغطيه فسألته عن ذلك.

فقال: قد جعلت لله على أن لا يسألنى أحد عن ذلك إلا أخبرته به، كنت شديد الوقيعة فى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى آتٍ فى منامى.

فقال لى: أنت صاحب الوقيعة فيَّ، فضرب شق وجهى فأصبحت وشق وجهى أسود كما ترى.

وذكر مسعدة، عن هشام بن حسان، عن واصل مولى ابن عيينة، عن موسى ابن عبيدة، عن صفية بنت شيبة.

قالت: كنت عند عائشة، رضى الله عنها، فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها.

فقالت: ما أتيتك إلا من أجل يدى، وإن أبى كان رجلاً سمحًا، وإنى رأيت فى المنام حياضًا عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاهم، فرأيت أبى.

فقلت: أين أمى؟

فقال: انظرى فنظرت فإذا أمى ليس عليها إلا قطعة خرقة.

فقال: إنها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها، فتلك الشحمة تذاب وتطوف بها وهى تقول: واعطشاه، قالت: فأخذت إناء من الآنية فسقيتها فنوديت من فوقى: من سقاها أيبس الله يده. فأصبحت يدى كما ترين.

وذكر الحارث بن أسد المحاسبى، وأصبغ، وخلف بن القاسم، وجماعة عن سعيد بن مسلمة قال: بينما امرأة عند عائشة، إذ قالت: بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، على أن لا أشرك بالله شيئًا ولا أسرق ولا أزنى ولا أقتل ولدى، ولا آتى ببهتان أفتريه من بين يدى ورجلى، ولا أعصى فى معروف فوفيت لربى، ووفى لى ربى، فوالله لا يعذبنى الله فأتاها فى المنام ملك فقال لها: كلا إنك تتبرجين وزينتك تبدين وخيرك تكندين، وجارك تؤذين، وزوجك تعصين، ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال: خمس بخمس ولو زدت زدناك. فأصبحت وأثر الأصابع فى وجهها.

وقال عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك سمعت مالكًا يقول: إن يعقوب بن عبد الله بن الأشج، كان من خيار هذه الأمة، نام فى اليوم الذى استشهد فيه.

فقال لأصحابه: إنى قد رأيت أمرا ولأخبرن به، إنى رأيت كأنى أدخلت الجنة فسقيت لبنا، فاستقاء فقاء اللبن، واستشهد بعد ذلك .

قال أبو القاسم: وكان فى غزوة فى البحر بموضع لا لبن فيه، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف.

فقال: إنى رأيت كأنى أدخل الجنة فسقيت فيها لبنا.

فقال له بعض القوم: أقسمت عليك لما تقيأت فقاء لبنا يصلد، أى يبرق وما فى السفينة لبن ولا شاة.

قال ابن قتيبة: قوله: يصلد أى يبرق، يقال: صلد اللبن يصلد.

ومنه حديث عمر: أن الطبيب سقاه لبنا فخرج من الطعنة أبيض يصلد.

وكان نافع القارئ إذا تكلم يُشمُ من فِيهِ رائحة المسك.

فقيل له: كلما قعدت تتطيب.

فقال: ما أمس طيباً ولا أقربه، ولكن رأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى المنام وهو يقرأ فى فمى، فمن ذلك الوقت يشم من فيّ هذه الرائحة.

وذكر مسعدة فى (كتابه فى الرؤيا) عن ربيع بن يزيد الرقاشى.

قال: أتانى رجلان فقعدا إلى فاغتابا رجلا فنهيتهما فأتانى أحدهما بعد.

فقال: إنى رأيت فى المنام كأن زنجيا أتانى بطبق عليه جنب خنزير لم أر لحما قط أسمن منه.

فقال: كل.

فقلت: آكل لحم خنزير!! فتهددنى فأكلت فأصبحت وقد تغير فمى. فلم يزل يجد الريح فى فمه شهرين.

وكان العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه.

فقال لأهله تلك الليلة: إنى أجد فترة فإذا كان وقت كذا فأيقظونى فلم يفعلوا قال: فأتانى آت فى منامى.

فقال: قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك، وأخذ بشعرات فى مقدم رأسى فقامت تلك الشعرات فى مقدم رأسى فلم تزل قائمة حتى مات.

قال يحيى بن بسطام: فلقد غسلناه يوم مات وإنهن لقيام فى رأسه.

وذكر ابن أبى الدنيا، عن أبى حاتم الرازى، عن محمد بن على، قال: كنا بمكة فى المسجد الحرام قعودًا، فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض.

فقال: يا أيها الناس اعتبروا بى، فإنى كنت أتناول الشيخين وأشتمهما، فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ أتانى آت فرفع يده فلطم وجهى.

وقال لى: يا عدو الله يا فاسق، ألست تسب أبا بكر وعمر، رضى الله عنهما، فأصبحت وأنا على هذه الحالة.

وقال محمد بن عبد الله المهلبى: رأيت فى المنام كأنى فى رحبة بنى فلان، وإذا النبى صلى الله عليه وآله وسلم جالس على أكمة ومعه أبو بكر وعمر واقف قدامه.

فقال له عمر: يا رسول الله إن هذا يشتمنى ويشتم أبا بكر، فقال: جئ به يا أبا حفص فأتى برجل فإذا هو العمانى، وكان مشهورًا بسبهما، فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: اضجعْهُ، فأضجعَهُ، ثمَّ قَالَ: اذبحْهُ فذَبَحَهُ، قَالَ: فَمَا نَبَّهنى إلاَّ صَيَاحَهُ فقلْتُ: مَالِى لا أُخبرُه عسى أن يتوبَ، فلمَّا تقرَبتُ مِنْ منزلِه سَمِعتُ بُكاءً شديدًا فقلْتُ: ما هذا البكاءُ؟ فَقالُوا: العمانى ذُبحَ البارحة عَلى سريرِهِ، قَالَ: فدَنَوتُ مِنَ عُنُقِهِ فإذَا مِن أُذُنِهِ إلى أُذُنِهِ طريقة حمراء كالدم المحصُورِ.

وقال القيروانى: أخبرنى شيخ لنا من أهل الفضل قال: أخبرنى أبو الحسن المطلبى، إمام مسجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: رأيت بالمدينة عجبًا، كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فبينا نحن يوما من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه، فسألناه: ما قصتك؟

فقال: رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى بين يديه ومعه أبو بكر وعمر.

فقالا: يا رسول الله، هذا الذى يؤذينا ويسبنا.

فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ أمرَكَ بهذَا يا أبَا قيس؟

فقلت: له على وأشرت إليه، فأقبل علىّ علىٌّ بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عينى.

فقال: إن كنت كذبت ففقأ عينيك وأدخل إصبعيه فى عينى، فانتبهت من نومى وأنا على هذه الحال، فكان يبكى يخبر الناس وأعلن التوبة.

قال القيرواني: وأخبرنى شيخ من أهل الفضل قال: أخبرنى فقيه، قال: كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده، ولكنه كان يؤخر الفطر، فرأى فى المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه فيه.

قال: فقلت لهما: على ماذا؟

فقالا: على خلافك لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره.

قال: فأصبح وجهه قد أسود من وهج النار فكان يمشى متبرقعا فى الناس.

وأعجب من هذا: الرجل يرى فى المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء فيستيقظ، وقد زال عنه ذلك كله، وقد رأى الناس من هذا عجائب.

وقد ذكر مالك عن أبى الرجال، عن عمرة، عن عائشة، أن جارية لها سحرتها، وأن سيدها دخل عليها وهى مريضة.

فقال: إنك سحرت.

قالت: ومَنْ سحرنى؟

قال: جارية فى حجرها صبى قد بال عليها، فدعت جاريتها، فقالت: حتى أغسل بولاً فى ثوبى، فقالت لها: أسحرتنى؟

قالت: نعم.

قالت: وما دعاك إلى ذلك؟

قالت: أردت تعجيل العتق، فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسيء ملكها، فباعها، ثم إن عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضا، فاستسقى لها فاغتسلت فبرأت.

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره، فرأى إبراهيم الخليل في المنام فمسح على عينيه، وقال: اذهب إلى الفرات فانغمس فيه ثلاثًا، ففعل فأبصر.

وكان إسماعيل بن بلال الحضرمي قد عمي، فأتى في المنام.

فقيل له: قل: يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف بمن يشاء رد عليَّ بصري.

فقال الليث بن سعد: أنا رأيته قد عمي ثم أبصر.

وقال عبيد الله بن أبي جعفر: اشتكيت شكوى فجهدت منها، فكنت أقرأ آية الكرسي، فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدي.

فقال أحدهما لصاحبه: إنه يقرأ آية وفيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يصيب هذا المسكين منها رحمة واحدة، فاستيقظت فوجدت خفة.

قال ابن أبي الدنيا: اعتلت امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة، فرأت في المنام قائلا يقول لها: لا إله إلا الله؛ المغلي وشراب الورد، فشربته فأذهب الله عنها ما كانت تجد.

قال: وقلت أيضا: رأيت في المنام كأني أقول: السناء والعسل وماء الحمص الأسود شفاء لوجع الأوراك، فلما استيقظت أتتني امرأة تشكو وجعًا بوركها، فوصفت لها ذلك فاستنفعت به.

وقال جالينوس: السبب الذي دعاني إلى فصد العروق الضوارب أني أمرت به في منامي مرتين.

قال: كنت إذ ذاك غلاما.

قال: وأعرف إنسانًا شفاه الله من وجع كان به في جنبه بفصد العرق الضارب لرؤيا رآها في منامه.

قال ابن الخراز: كنت أعالج رجلا ممعودا[1] فغاب عنى، ثم لقيته فسألته عن حاله.

فقال: رأيت فى المنام إنسانا فى زى ناسك متوكئا على عصا، وقف على.

وقال: أنت رجل ممعود؟

فقلت: نعم.

فقال عليك بالكباء والجلنجبين فأصبحت فسألت عنهما فقيل لى الكباء المصطكى، والجلنجبين الورد المربا بالعسل، فاستعملتهما أياما فبرأت.

فقلت له: قال ذلك جالينوس.

والوقائع فى هذا الباب أكثر من أن تذكر.

قال بعض الناس: إن أصل الطب من المنامات، ولا ريب أن كثيرا من أصوله مستند إلى الرؤيا كما أن بعضها عن التجارب وبعضها عن القياس، وبعضها عن إلهام. ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى (تاريخ الأطباء) وفى (كتاب البستان للقيروانى) وغير ذلك.

الوجه الثانى بعد المائة: قوله تعالى **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾**[الأعراف:٤٠]. وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت، كما تقدم فى الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينتهى بها إلى بين يدى الرب تعالى.

وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء، ولا تفتح لجسده أبواب الجنة.

الوجه الثالث بعد المائة: قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا بلالُ ما دَخلتُ الجنةَ إلا سَمعْتُ خَشخَشتك بين يَدى، فبم ذَاك؟ قَالَ: ما أحدَثتُ فِى ليلٍ أو نهارٍ إلاَّ تَوضأتُ وصليتُ ركَعَتين»**[2].

(١) الممعود: الذى فسدت معدته، فلم تستمرئ الطعام. انظر: لسان العرب، مادة [معد].

(٢) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: المناقب،باب: فى مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٦٨٩)،وقال: هذا حديث صحيح غريب، والإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٥٤). والخشخشة: صوت السلاح وكل شىء يابس إذا حك بعضه ببعض، انظر: النهاية فى غريب الحديث مادة: [خشش].

ومعلوم أن الذى سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال، وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة.

الوجه الرابع بعد المائة: الأحاديث والآثار التى فى زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والإخبار عن معرفتهم بزوارهم، وردهم عليهم السلام وقد تقدمت الإشارة إليها.

الوجه الخامس بعد المائة: شكاية كثير من أرواح الموتى إلى أقاربهم وغيرهم أمورًا مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزيلونها.

الوجه السادس بعد المائة: لو كانت عبارة عن عرض من أعراض البدن، أو جوهر مجرد ليس بجسم ولا حال فيه، لكان قول القائل: خرجت وذهبت وقمت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالا باطلة، لأن هذه الصفات ممتنعة الثبوت فى حق الأعراض والمجردات، وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره ذلك، فالقدح فى ذلك قدح فى أظهر المعلومات فهو من باب السفسطة. لا يقال: حاصل هذا الدليل التمسك بألفاظ الناس وإطلاقاتهم وهى تحتمل الحقيقة والمجاز، فلعل مرادهم دخل جسمى وخرج. لأنا إنما استدللنا بشهادة العقل والفطرة بمعانى هذه الألفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذى دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه، فشهادة الحس والعقل بمعانى هذه الألفاظ وإضافتها إلى الروح أصلا، وإلى البدن تبعا من أصدق الشهادات والاعتماد على ذلك لا على مجرد الإطلاق اللفظى.

الوجه السابع بعد المائة: أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس، فكان دخول البدن وخروجه وانتقاله جاريًا مجرى دخول مركبه من فرسه ودابته، فلو كانت النفس غير قابلة للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون، لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو، وهذا معلوم البطلان بالضرورة وكل أحد يعلم أن نفسه وروحه هى التى دخلت وخرجت وانتقلت وصرفت البدن وجعلته تبعا لها فى الدخول والخروج، فهو لها بالأصل وللبدن بالتبع، لكنه للبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والعقل.

الوجه الثامن بعد المائة: أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول إنها عرض لكان الإنسان كل وقت يبدل مائة ألف أو أكثر، والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه، وكان الإنسان الذى هو الإنسان غير الذى هو قبله بلحظة وبعده بلحظة، وهذا من نوع الهوس ولو كانت الروح مجردة وتعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتتعلق بغيره، كما يجوز انقطاع تدبير المدبر لبيت أو مدينة عنها، ويتعلق بتدبير غيرها. وعلى هذا التدبير فنصير شاكين فى أن هذه النفس التى لزيد هى النفس الأولى أو غيرها، وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره، و[أى] عاقل لا يجوز ذلك، فلو كانت الروح عرضا أو أمرًا مجردًا لحصل الشك المذكور.

الوجه التاسع بعد المائة: أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضى والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية، ويعلم أن الموصوفات بذلك ليست عرضا من أعراض بدنه ولا جوهرًا مجردًا منفصلا عن بدنه غير مجاور له، ويقطع ضرورة بأن هذه الإدراكات لأمر داخل فى بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحرك وسكن، فتلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه، وأن جوهر النفس هو الذى قام به ذلك كله، لم يقم بمجرد ولا بعرض، بل قام بمتحيز داخل العالم متنقل من مكان إلى مكان يتحرك ويسكن ويخرج ويدخل، وليس إلا هذا البدن والجسم السارى فيه المشابك له الذى لولاه لكان بمنزلة الجماد.

الوجه العاشر بعد المائة: أن النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق التدبير فقط، كتعلق الملاح بالسفينة والجمال بجمله، لأمكنها ترك تدبير هذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر، كما يمكن الملاح والجمال ذلك، وفى ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان. ولا يقال: إن النفس اتحدت ببدنها، فامتنع عليها الانتقال أو أنها لها عشق طبيعى وشوق ذاتى إلى تدبير هذا البدن، فلهذا السبب امتنع انتقالها.

لأنا نقول: اتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال، ولأنها لو اتحدت به لبطلت ببطلانه، ولأنها بعد الاتحاد إن بقيا فهما اثنان لا واحد، وإن عدما معًا وحدث ثالث فليس من الاتحاد في شيء، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فليس باتحاد أيضًا، وأما عشق النفس الطبيعي للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول اللذات بواسطته، وإذا كانت الأبدان متساوية في حصول مطلوبها كانت نسبتها إليها على السواء، فقولكم: إن النفس المعينة عاشقة للبدن المعين باطل.

ومثال ذلك: العطشان إذا صادف آنية متساوية كل منها يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحدًا منها بعينه دون سائرها.

الوجه الحادي عشر بعد المائة: أن نفس الإنسان لو كانت جوهرًا مجردًا لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه، ولا مباينة له ولا مجانبة، لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة، لأن علم الإنسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم، وأن علمه بما عداه تابع لعلمه بنفسه، ومعلوم قطعا أن ذلك باطل. فإن جماهير أهل الأرض يعلمون أن إثبات هذا الموجود محال في العقول شاهدًا وغائبًا، فمن قال ذلك في نفسه وربه فلا نفسه عرف، ولا ربه عرف.

الوجه الثاني عشر بعد المائة: أن هذا البدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية، ومحل للقدرة على الحركات الإرادية. فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وما سكن فيه، أما أن يكون محلها جوهرًا مجردًا لا داخل العالم ولا خارجه، فباطل بالضرورة.

الوجه الثالث عشر بعد المائة: أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتحيز لامتنع أن يتوقف فعلها على مماسة محل الفعل، لأن ما لا يكون متحيزًا يمتنع أن يصير مماسًا للمتحيز، ولو كان الأمر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول مماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل فكان الواحد منا يقدر على تحريك الأجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئا

يماسها، فإن النفس عندكم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير أن يكون بينها وبينه مماسة، كذلك لا تمنع قدرتها على تحريك جسم غيره من غير مماسة له ولا لما يماسه. وذلك باطل بالضرورة، فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلا بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه، وكل ما كان مماسا للجسم أو لما يماسه فهو جسم.

فإن قيل: يجوز أن يكون تأثير النفس فى تحريك بدنها الخاص غير مشروط بالمماسة، وتأثيرها فى تحريك غيره موقوف على حصول المماسة بين بدنها وبين ذلك الجسم.

فالجواب: أنه لما كان قبول البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول المماسة بين النفس وبين البدن، وجب أن تكون الحال كذلك فى غيره من الأجسام، لأن الأجسام متساوية فى قبول الحركة، ونسبة النفس إلى جميعها سواء لأنها إذا كانت مجردة عن الحجمية وعلائق الحجمية كانت نسبة ذاتها إلى الكل بالسوية، ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى الكل بالسوية، والقوابل نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى الكل على السواء، فإذا استغنى الفاعل عن مماسة محل الفعل فى حق البعض وجب أن يستغنى فى حق الجميع، وإن افتقر إلى المماسة فى البعض وجب افتقاره فى الجميع.

فإن قيل: النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها فى غيره.

قيل: هذا العشق الشديد يقتضى أن يكون تعلقها بالبدن أكثر، وتصرفها فيه أقوى، فأما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الأجسام، فذلك محال، وهذا دليل فى غاية القوة.

الوجه الرابع عشر بعد المائة: أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحى الناطق المتغذى النامى الحساس المتحرك بالإرادة.

وهذه الصفات نوعان: صفات لبدنه. وصفات لروحه ونفسه الناطقة.

فلو كانت الروح جوهرًا مجردًا لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة به ولا منفصلة عنه، لكان الإنسان لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه، أو كان بعضه في العالم وبعضه لا داخل العالم ولا خارجه، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك. وأن الإنسان بجملته داخل العالم بدنه وروحه، وهذا في البطلان يضاهي قول من قال: إن نفسه قديمة غير مخلوقة، فجعلوا نصف الإنسان مخلوقًا ونصفه غير مخلوق.

فإن قيل: نحن نسلم بأن الإنسان كما ذكرتم إلا أنا نثبت جوهرًا مجردًا يدبر الإنسان الموصوف بهذه الصفات.

قلنا: فذلك الجوهر الذى أثبتموه مغاير للإنسان أو هو حقيقة الإنسان ولابد لكم من أحد الأمرين.

فإن قلتم: هو غير الإنسان رجع كلامكم إلى أنكم أثبتم للإنسان مدبرًا غيره سميتموه نفسا، وكلامنا الآن إنما هو فى حقيقة الإنسان لا في مدبره، فإن مدبر الإنسان وجميع العالم العلوى والسفلى هو الله الواحد القهار.

الوجه الخامس عشر بعد المائة: أن كل عاقل إذا قيل له: ما الإنسان؟ فإنه يشير إلى هذه البنية ، وما قام بها لا يخطر بباله أمر مغاير لها، مجرد ليس فى العالم، ولا خارجه، والعلم بذلك ضرورى لا يقبل شكا ولا تشكيكا.

الوجه السادس عشر بعد المائة: أن عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها وساكنها، وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، ولو أن رجلا قال: المأمور والمنهى والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس فى العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه، لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه، وكل ما شهدت بداهة العقول وصرائحها ببطلانه، كان الاستدلال على ثبوته استدلالاً على صحة وجود المحال، وبالله التوفيق.

فإن قيل: ذكرتم الأدلة الدالة على جسميتها وتحيزها، فما جوابكم عن أدلة المنازعين لكم فى ذلك فإنهم استدلوا بوجوه:

أحدها: اتفاق العقلاء على قولهم: الروح والجسم والنفس والجسم، فيجعلونها شيئا غير الجسم، فلو كانت جسما لم يكن لهذا القول معنى.

الثانى: وهو أقوى ما يحتجون به، أنه من المعلوم أن فى الموجودات ماهو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد، بل ذات واجب الوجود، فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة، فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس فلو كانت جسما لكانت قابلة للقسمة.

ويقرر هذا الدليل على وجه آخر، وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسما أو جسمانيا لانقسمت تلك العلوم، لأن الحال فى المنقسم وانقسام تلك العلوم مستحيل.

الثالث: أن الصور العقلية الكلية مجردة بلا شك، وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ. والأول باطل، لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماة بالنفس.

الرابع: أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية، فإنها تقوى على إدراكات لا تتناهى، والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غير متناهية لأن القوة الجسمانية تنقسم بانقسام محلها، فالذى يقوى عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذى يقوى عليه الكل، فالذى يقوى عليه الكل يزيد على الذى يقوى عليه البعض أضعافا متناهية والزائد على المتناهى بمتناه متناه.

الخامس: أن القوة العاقلة لو كانت حالةً فى آلة جسمانية لوجب أن تكون القوة العاقلة دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك لها بالكلية، وكلاهما باطل لأن إدراك القوة العاقلة لتلك الآلة إن كان عين وجودها فهو محال، وإن كان صورة مساوية لوجودها وهى حالة فى القوة العقلية الحالة فى تلك الآلة، لزم اجتماع صورتين متماثلتين وهو محال.

وإذا بطل هذا ثبت أن القوة العاقلة ولو أدركت آلتها لكان إدراكها عبارة عن نفس حصول تلك الآلة عند القوة العاقلة، فيجب حصول الإدراك دائما إن

كفى هذا القدر فى حصول الإدراك، وإن لم يكف امتنع حصول الإدراك فى وقت من الأوقات، إذ لو حصل فى وقت لكان بسبب أمر زائد على مجرد حضور صورة الآلة.

السادس: أن كل أحد يدرك نفسه، وإدراك الشيء عبارة عن حضور ماهية المعلوم عند العالم، فإذا علمنا أنفسنا، فهو إما أن يكون لأجل حضور ذواتنا لذواتنا أو لأجل حضور صورة مساوية لذواتنا فى ذواتنا، والقسم الثانى باطل. والإلزام اجتماع المثلين. فثبت أنه لا معنى لعلمنا بذاتنا إلا حضور ذاتنا عند ذاتنا، وهذا إنما يكون إذا كانت ذاتا قائمة بالنفس غنية عن المحل، لأنها لو كانت حالة فى محل كانت حاضرة عند ذلك المحل، فثبت أن هذا المعنى إنما يحصل إذا كانت النفس قائمة بنفسها غنية عن محل تحل فيه.

السابع: ما احتج به أبو البركات البغدادى وأبطل ما سواه.

فقال: لا نشك أن الواحد منا يمكنه أن يتخيل بحرًا من زئبق وجبلا من ياقوت وشموسا وأقمارا، فهذه الصور الخيالية لا تكون معدومة، لأن قوة المتخيل تشير إلى تلك الصور وتميز بين كل صورة وغيرها، وقد يقوى ذلك المتخيل إلى أن يصير كالمشاهد المحسوس، ومعلوم أن العدم المحض والنفى الصرف لا يثبت ذلك، ونحن نعلم بالضرورة أن هذه الصور ليست موجودة فى الأعيان، فثبت أنها موجودة فى الأذهان.

فنقول: محل هذه الصورة، إما أن يكون جسمًا أو حالا فى الجسم أو لا جسما ولا حالا فى الجسم، والقسمان الأولان باطلان، لأن صورة البحر والجبل صورة عظيمة، والدماغ والقلب جسم صغير وانطباع العظيم فى الصغير محال، فثبت أن محل هذه الصورة الخيالية ليس بجسم ولا جسمانى .

الثامن: لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعف فى زمان الشيخوخة دائما وليس كذلك.

التاسع: أن القوة العقلية غنية فى أفعالها عن الجسم، وما كان غنيا فى أفعالها عن الجسم وجب أن يكون غنيا فى ذاته عن الجسم .

بيان الأول: أن القوة العقلية تدرك نفسها، ومن المحال أن يحصل بينها وبين نفسها آلة متوسطة أيضا، وتدرك إدراكها لنفسها، وليس هذا الإدراك بآلة وأيضا فإنها تدرك الجسم الذى هو آلتها وليس بينها وبين آلتها آلة أخرى .

وبيان الثاني: من وجهين:

أحدهما: أن القوى الجسمانية كالناظرة والسامعة والخيال والوهم، لما كانت جسمانية يقدر عليها إدراك ذواتها وإدراكها لكونها مدركة لذواتها، وإدراكها لتلك الأجسام الحاملة لها، فلو كانت القوة العاقلة جسمانية، لتعذرت عليها هذه الأمور الثلاثة.

الثاني: أن مصدر الفعل هو النفس فلو كانت النفس متعلقة فى قوامها ووجودها بالجسم لم تحصل تلك الأفعال إلا بشركة من الجسم، ولما ثبت أنه ليس كذلك، ثبت أن القوة العقلية غنية عن الجسم.

العاشر: أن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف، وسببه ظاهر فإن القوى الجسمانية بسبب من أدلة الأفعال تتعرض موادها للتحلل والذبول وهو يوجب الضعف، وأما القوة العقلية فإنها لا تضعف بسبب كثرة الأفعال وتقوى على القوى بعد الضعف، فوجب أن لا تكون جسمانية .

الحادى عشر: أنّا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض، وجب أن يحصل فى الذهن ماهية السواد والبياض، والبداهة حاكمة بأن اجتماع السواد والبياض والحرارة والبرودة فى الأجسام محال، فلما حصل هذا الاجتماع فى القوة العقلية وجب أن لا تكون قوة جسمانية .

الثانى عشر: أنه لو كان محل الإدراكات جسما فكل جسم منقسم لا محالة لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشىء وبالبعض الآخر منه جهل، وحينئذ فيكون الإنسان فى الحال الواحد عالما بالشىء وجاهلا به.

الثالث عشر: أن المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة، فإن وجود تلك النقوش فيها يمنع من حصول نقوش فى غيرها. وأما النقوش العقلية فبالضد

من ذلك، لأن الأنفس إذا كانت خالية من جميع العلوم والإدراكات فإنه يصعب عليها التعلم، فإذا تعلمت شيئا صار حصول تلك العلوم معينا على سهولة غيرها، فالنقوش الجسمانية متغايرة متنافية، والنقوش العقلية متعاونة متعاضدة.

الرابع عشر: أن النفس لو كانت جسما لكان بين إرادة العبد تحريك رجله وبين تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وثقله، فإن النفس هي المحركة للجسد والممهد لحركته، فلو كان المحرك للرجل جسما فإما أن يكون حاصلا في هذه الأعضاء أو جائيا إليها فإن كان جائيا إليها احتاج إلى مدة، ولابد كان حاصلا فيها، فنحن إذا قطعنا تلك العضلة التي تكون بها الحركة لم يبق منها العضو المتحرك شيء في ذلك العضو .

الخامس عشر: لو كانت النفس جسما لكانت منقسمة، ولصح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها، فيكون الإنسان عالمًا ببعض نفسه، جاهلاً بالبعض الآخر وذلك محال.

السادس عشر: لو كانت النفس جسمًا لوجب أن يثقل البدن بدخولها فيه، لأن شأن الجسم الفارغ إذا ملأه غيره أن يثقل به كالزق الفارغ، والأمر بالعكس، فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقته.

السابع عشر: لو كانت جسمًا لكانت على صفات سائر الأجسام التي لا يخلو شيء منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة و الخشونة والسواد والبياض، وغير ذلك من صفات الأجسام وكيفياتها، ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هي الفضائل والرذائل، لا تلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ليست جسمًا.

الثامن عشر: أنها لو كانت جسمًا لوجب أن يقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها أو حاستين، أو أكثر، فإنّا نرى الأجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الحواس، ومنها ما يدرك بأكثرها، ومنها ما يدرك بحاستين منها أو واحدة، والنفس بريئة من ذلك كله، وهذه الحجة التي احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه، وقالوا لو كان موجودًا لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس، فعارضهم بالنفس وأنى تتم المعارضة إذا كانت جسمًا وإلا لو كانت جسما لجاز إدراكها ببعض الحواس.

التاسع عشر: لو كانت جسمًا لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه المقادير والأبعاد لا تقوم إلا بمادة ومحل. فإن كانت مادتها ومحلها نفسًا لزم اجتماع نفسين. وإن كانت غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهى فى جسد مركب من بدن وصورة فيكون الإنسان إنسانين.

العشرون: أن من خاصة الجسم أن يقبل التجزئ، والجزء الصغير منه ليس كالكبير، ولو قبلت التجزئ فكل جزء منها إن كان نفسا لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة لا نفس واحدة، وإن لم يكن نفسًا لم يكن المجموع نفسًا كما أن جزء الماء إن لم يكن ماء، لم يكن مجموعه ماء.

الحادى والعشرون: أن الجسم محتاج فى قوامه وحفظه وبقائه إلى النفس، ولهذا يضمحل ويتلاشى لما تفارقه فلو كانت جسمًا لكانت محتاجة إلى نفس أخرى وهلم جرًا، ويتسلسل الأمر. وهذا المحال إنما لزم من كون النفس جسمًا.

الثانى والعشرون: لو كانت جسمًا لكان اتصالها بالجسم إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الإنسان الواحد جسمين متلاصقين، أحدهما يرى، والآخر لا يرى.

فهذا كل ما موهت به هذه الطائفة المبطلة من منخنقة وموقوذة ومتردية، ونحن نجيبهم عن ذلك كله فصلا بفصل بحول الله وقوته ومعونته.

فأما قولهم: إن العقلاء متفقون على قولهم: الروح والجسم والنفس والجسم، وهذا يدل على تغايرهما.

فالجواب أن يقال: إن مسمى الجسم فى اصطلاح المتفلسفة والمتكلمين أعم من مسماه فى لغة العرب، وعرف أهل العرف.

فإن الفلاسفة يطلقون الجسم على قابل الأبعاد الثلاثة، خفيفا كان أو ثقيلا، مرئيًا كان أو غير مرئى، فيسمون الهواء جسمًا، والنار جسمًا، والماء جسمًا، وكذلك الدخان والبخار والكواكب، ولا يعرف فى لغة العرب تسمية شىء من ذلك جسمًا ألبتة، فهذه لغتهم وأشهارهم وهذه النقول عنهم فى كتب اللغة.

قال الجوهرى: قال أبو زيد: الجسم الجسد، وكذلك الجسمان والجثمان.

قال الأصمعى: الجسم والجسمان الجسد والجثمان الشخص، وقد جسم الشىء أى عظم، فهو عظيم جسيم وجسام بالضم.

ونحن إذا سمينا النفس جسما فإنما هو باصطلاحهم وعرف خطابهم وإلا فليست جسما باعتبار وضع اللغة ومقصودنا بكونها جسما إثبات الصفات والأفعال والأحكام التى دل عليها الشرع والعقل والحس، من الحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة النعيم والعذاب واللذة والألم، وكونها تحبس وترسل وتقبض وتدخل وتخرج، فلذلك أطلقنا عليها اسم الجسم تحقيقا لهذه المعانى.

وإن لم يطلق عليها أهل اللغة اسم الجسم، فالكلام مع هذه الفرقة المبطلة فى المعنى لا فى اللفظ. فقول أهل التخاطب: الروح والجسم. هو بهذا المعنى.

وأما الشبهة الثانية: فهى أقوى شبههم التى بها يصولون وعليها يعولون، وهى مبنية على أربع مقدمات:

إحداها: أن فى الوجود ما لايقبل القسمة بوجه من الوجوه.

الثانية: أنه يمكن العلم به.

الثالثة: أن العلم به غير منقسم.

الرابعة: أنه يجب أن يكون محل العلم به كذلك؛ إذ لو كان جسما لكان منقسما؟، وقد نازعهم فى ذلك جمهور العقلاء.

وقالوا: لم تقيموا دليلا على أن فى الوجود ما لايقبل القسمة الحسية ولا الوهمية، وإنما بأيديكم دعاوٍ لا حقيقة لها، وإنما أثبتموه من واجب الوجود وهو بناء على أصلكم الباطل عند جميع العقلاء من أهل الملل وغيرهم، من إنكار ماهية الرب تعالى وصفاته، وأنه وجود مجرد لا صفة له ولا ماهية، وهذا قول باينتم به العقول وجميع الكتب المنزلة من السماء وإجماع الرسل، ونفيتم به علم الله وقدرته ومشيئته وسمعه وبصره وعلوه على خلقه، ونفيتم به خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، وسميتموه توحيدًا وهو أصل كل تعطيل.

قالوا: والنقطة التى استدللتم بها هى من أظهر مـا يبطـل دليلكـم، فإنهـا غـير منقسمة، وهى حالة فى الجسم المنقسم فقد حل فى المنقسم ما ليس بمنقسـم، ثم إن مثبتى الجوهر الفرد وهم جمهور المتكلمين ينازعونكم فى هذا الأصل.

ويقولون: الجوهر حال فى الجسم؛ بل هو مركب منه، فقد حل فى المنقسـم مـا ليس بمنقسم، ولا يمكن تتميم دليلكم إلا بنفى الجوهر الفرد، فإن قلتم: النقطة عبـارة عن نهاية الخط وفنائه وعدمه فهى أمر عدمى بطـل استدلالكم بهـا، وإن كـانت أمـرًا وجوديا فقد حلت فى المنقسم فبطل الدليل على التقديرين.

قالوا: أيضا فلم لا يكون العلم حالا فى محله لاعلى وجـه النـوع والسـريان، فإن حلول كل شىء فى محله بحسبه، فحلول الحيوان فى الدار نـوع، وحلـول العرض فى الجسم نوع، وحلول الخط فـى الكتـاب نـوع، وحلـول الدهـن فـى السمسم نوع، وحلول الجسم فى العرض نوع، وحلول الروح فى البـدن نـوع، وحلول العلوم والمعارف فى النفس نوع.

قالوا: أيضًا: فالوحدة حاصلة فـإن كـانت جوهـرًا فقـد ثبـت الجوهـر الفـرد وبطل دليلكم، فإنه لايتم إلا بنفيه.

وإن كان عرضا وجب أن يكون لهـا محـل، فمحلهـا إن كـان منقسـمًا فقـد جاز قيام غير المنقسم ، فهو الجوهر وبطل الدليل.

فإن قلت: الوحدة أمر عدمى لا وجود له فـى الخـارج، فكذلـك مـاأثبتم بـه وجود مالا ينقسم، كلها أمور عدمية لا وجود لها فى الخارج.

فإن واجب الوجود الذى أثبتموه أمر عدمى بل مستحيل الوجود.

قالوا: أيضًا فالإضافات عارضـة لا أقسـام، مثـل الفوقيـة والتحتيـة والمالكيـة والمملوكية، فلو انقسم الحال بانقسام محله، لزم انقسام هذه الإضافات. فكـأن يكون لحقيقة الفوقية والتحتية ربع وثمن وهذا لا يقبله العقل.

قالوا: وإن القوة الوهمية، والفكرة جسمانية عند زعيمكم ابن سينا، فيلزم أن يحصل لها أجزاء وأبعاض، وذلك محال لأنها لو انقسمت لكان لكل واحد من أبعاضها إن كان الجزء مساويًا للكل.

وإن لم يكن مثلها لم تكن تلك الأجزاء كذلك. وأيضًا فإن الوهم لامعنى له إلا كون هذا صديقًا وهذا عدوًا، وذلك لا يقبل القسمة.

قالوا: وأن الوجود أمر زائد على الماهيات عندكم. فلو لزم انقسام الحال لانقسام محله لزم انقسام ذلك الوجود بانقسام محله، وهذا الوجه لايلزم من جعل وجود الشيء غير ماهيته.

قالوا: وأيضًا فطبائع الأعداد ماهيات مختلفة، فالمفهوم من كون العشرة عشرة مفهوم واحد، وماهية واحدة، فتلك الماهية إما أن تكون عارضة لكل واحد من تلك الآحاد وهو محال، وإما أن ينقسم بانقسام تلك الآحاد وهو محال، لأن المفهوم من كون العشرة عشرة لايقبل القسمة. نعم العشرة تقبل القسمة لا عشريتها.

قالوا: فقد قام مالا ينقسم بالمنقسم .

قالوا: وأيضاً فالكيفات المختصات بالكميات كالاستدارة والنقوش ونحوهما عند الفلاسفة أعراض موجودة فى شبه الاستدارة إن كانت عرضا، فإما أن تكون بتمامه قائمًا، وإما أن تكون بكل واحد من الأجزاء وهو محال.

وإما أن ينقسم ذلك العرض بانقسام الأجزاء، ويقوم بكل جزء من أجزاء الخط جزء من أجزاء ذلك العرض وهو محال، لأن جزءه إن كان استدارة لزم أن يكون جزء الدائرة دائرة.

وإن لم يكن استدارة، فعند اجتماع الأجزاء إن لم يحدث أمر زائد وجب أن لا تحصل الاستدارة وإن حدث أمرٌ زائد، فإن كان منقسما عاد التقسيم وإن لم ينقسم كان الحال غير منقسم ومحله منقسما.

قلت: وهذا لا يلزمها فإن لهم أن يقولوا : ينقسم بانقسام محله تبعًا له كسائر الأعراض القائمة بمحالها من البياض والسواد؟ وأما ما لاينقسم كالطول فشرط حصوله اجتماع الأجزاء والمعلق على الشرط منتف بانتفائه.

قالوا: وإن هذه الأجسام ممكنة بذاوتها وذلك صفة عرضية لها خارجة عن ماهيتها، فإن لم تنقسم بانقسام محلها بطل الدليل، وإن انقسمت عاد المحذور المذكور من مساواة الجزء للكل والتسلسل.

قلت: وهذا أيضًا لا يلزمهم لأن الإمكان ليس أمرًا يدل على قبول الممكن للوجود والعدم، وذلك القبول من لوازم ذاته ليس صفةً عارضة له، ولكن الذهن يجرد هذا القبول عن القابل، فيكون عروضه للماهية بتجريد الذهن.

وأما قضية مشاركة الجزء للكل فلا امتناع فى ذلك كسائر الماهيات البسيطة، فإن جزءها مساو لكلها فى الحد والحقيقة كالماء والتراب والهواء ، وإنما الممتنع أن يساوى الجزء للكل فى الكم ، لا فى نفس الحقيقة.

والمعول فى إبطال هذه الشبهة على أن العلم ليس بصورة حالة فى النفس، وإنما هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم كما نقول فى الإبصار إنه ليس بانطباع صورة مساوية للمبصر فى القوة الباصرة، وإنما هو نسبة وإضافة بين القوة الباصرة والمبصر، وعامة شبههم التى أوردها فى هذا الفصل مبنية على انطباع صورة المعلوم فى القوة العالمة، ثم بنوا على ذلك أن انقسام ما لاينقسم فى المنقسم محال.

وقولهم : محل العلوم الكلية لو كان جسمًا أو جسمانيًا لانقسمت تلك العلوم، لأن الحال فى المنقسم منقسم .

لم يذكروا على صحة هذه المقدمة دليلاً ولا شبهة وإنما بأيديهم مجرد الدعوى وليست بديهية حتى تستغنى عن الدليل، وهى مبنية على أن العلم بالشيء عبارة عن حصول صورة مساوية لماهية المعلوم فى نفس العالم، وهذا من أبطل الباطل للوجوه التى نذكرها هنالك.

وأيضًا فلو سلمنا لكم ذلك كان من أظهر الأدلة على بطلان قولكم ، فإن هذه الصورة إذا كانت حالّة فى جوهر النفس الناطقة فهى صورة جزئية حالّة فى نفس جزئية تقارنها سائر الأعراض الحالة فى تلك النفس الجزئية، فإذا اعتبرنا تلك الصورة مع جملة هذه اللواحق لم تكن صورة مجردة بل مقرونة بلواحق وعوارض وذلك يمنع كليتها .

فإن قلتم: المراد بكونها كلية أنا إذا حذفنا عنها تلك اللواحق واعتبرناها من حيث هى هى كانت كلية.

قلنا لكم: فإذا جاز هذا فَلِمَ لا يجوز أن يقال هذه الصورة حالّة فى مادة جسمانية مخصوصة بمقدار معين وبكل معين، إلا أنا إذا حذفنا عنها ذلك واعتبرناها من حيث هى هى، كانت بمنزلة تلك الصورة التى فعلنا بها ذلك، فالمعين فى مقابلة المعين، والمطلق المأخوذ من حيث هو هو فى مقابلة محله المطلق، وهذا هو المعقول الذى شهدت به العقول الصحيحة والميزان الصحيح، فظهر أن هذه الشبهة من أفسد الشبه وأبطلها، وإنما أتى القوم من الكليات فإنها هى التى خربت دورهم وأفسدت نظرهم ومناظرهم، فإنهم جردوا أمورًا كلية لا وجود لها فى الخارج، ثم حكموا عليها بأحكام الموجودات، وجعلوها ميزانًا وأصلا للموجودات، فإذا جردوا صور المعلومات وجعلوها كلية جردنا نحن محلها وجعلناه كليا وإن أحدث جزئية معينة فمحلها كذلك، فالكلى فى مقابلة الكلى، والجزئى فى مقابلة الجزئى.

على أنا نقول: ليس فى الذهن كلى وإنما فى الذهن صورة معينة مشخصة منطبقة على سائر أفرادها.

فإن سميت كلية بهذا الاعتبار، فلا مشاحة فى الألفاظ، وهى كلية وجزئية باعتبارين.

قولكم فى الوجه الثالث: إن الصور العقلية الكلية مجردة، وتجردها إنما هو بسبب الآخذ لها وهو القوة العقلية :

جوابه: أن يقال: أما الذى تريدون بهذه الصورة العقلية الكلية، أتريدون به أن المعلوم حصل فى ذات العالم؟ فالأول ظاهر الإحالة، والثانى حق إلا أنه لا يفيد شيئًا لأن الأمر الكلى المشترك بين الأشخاص الإنسانية، هو الإنسانية لا العلم بها. والإنسانية لا وجود لها فى الخارج كلية. والوجود فى الخارج للمعينات فقط، والعلم تابع للمعلوم، فكما أن المعلوم معين، فالعلم به معين، لكنه صورة منطبقة على أفراد كثيرة فليس فى الذهن ولا فى الخارج صورة غير منقسمة ألبتة، وكم قد غلط فى هذا الموضع طوائف من العقلاء لا يحصيهم إلا الله تعالى.

فالصورة الكلية التى يثبتونها ويزعمون أنها حالّة فى النفس، فهى صورة شخصية موصوفة بعوارض شخصية، فهب أن هذه الصورة العقلية حالة فى جوهر ليس بجسم ولا جسمانى، فإنها غير مجردة عن العوارض.

فإن قلت: مرادنا بكونها مجردة بالنظر إليها من حيث هى هى مع قطع النظر عن تلك العوارض.

قيل لكم: فلم لا يجوز أن تكون الصورة الحالة فى المحل الجسمانى منقسمة وإنما تكون مجردة إذا نظرنا إليها من حيث هى هى بقطع النظر عن عوارضها.

وقولكم فى الرابع : إن العقلية تقوى على أفعال غير متناهية، ولا شىء من القوى الجسمانية كذلك:

فجوابه: أنا لا نسلم بأنها تقوى على أفعال غير متناهية، وقولكم إنها تقوى على إداركات لا تتناهى، والإدراكات أفعال: مقدمتان كاذبتان.

فإن إدراكاتها ولو بلغت ما بلغت فهى متناهية، فلو كان لها بكل نفس ألف ألف إدراك لتناهت إدراكاتها ، فهى قطعًا تنتهى فى الإدراكات والمعارف إلى حد لا يمكنها أن تزيد غليه شيئًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف :٧٦] إلى أن ينتهى العلم إلى من هو بكل شىء عليم ، فهو الله الذى لا إله إلا هو وحده، وذلك من خصائصه التى لا يشركه فيها سواه .

فإن قلتم: ولو انتهى إلى إدراكها إلى حد لا يمكنها المزيد عليه لزم انقلاب الشيء من الإمكان الذاتي.

قلنا: فهذا بعينه لو صح دل على أن القوة الجسمانية تقوى على أفعال غير متناهية وذلك يوجب سقوط الشبهة وبطلانها، وأيضًا فإن قوة التخيل والتفكر والتذكر، تقوى على استحضار المخيلات والمتذاكرات إلى غير نهاية، مع أنها عندكم قوة جسمانية.

فإن قلتم: لا نسلم أنها تقوى على مالا يتناهى.

قيل لكم: وهكذا يقول خصومكم في القوة العاقلة سواء، وأما كذب المقدمة الثانية فإن الإدارك ليس بفعلٍ فلا يلزم من تناهي فعلها تناهي إدراكها.

وقد صرحتم بأن الجوهر العقلي قابل لصورة المعلوم، لأنه فاعل لها، والشيء الواحد لا يكون فاعلا وقابلا عندكم، وقد صرحتم بأن الأجسام يمتنع عليها أفعال لا نهاية لها ولا يمتنع عليها مجهولات وانفعالات لا تتناهى.

وقد أورد ابن سينا على هذه الشبهة سؤالا.

فقال: أليس النفس الفلكية المباشرة لتحريك الفلك قوة جسمانية مع أن الحركات الفلكية غير متناهية؟ وأجاب عنه: بأنها وإن كانت قوة جسمانية، إلا أنها تستمد الكمال من العقل المفارق، فلهذا السبب قدرت على أفعال غير متناهية.

ونقول: فإذا كان الأمر عندك كذلك فلم لا يجوز أن يقال النفس الناطقة تستمد الكمال والقوة من فاطرها ومنشئها الذى له القوة جميعًا، فلا جرم أن تقوى مع كونها جسمانية على مالا يتناهى؟ فإذا قلت بذلك وافقت الرسل والعقل ودخلت مع زمرة المسلمين وفارقت العصبة المبطلين.

قولكم في الخامس: لو كانت القوة العاقلة حالة في آلة جسمانية لوجب أن تكون دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك كلها:

فهو مبني على أصلكم الفاسد أن الإدراك عبارة عن حصول صورة مساوية للمدرك في القوة المدركة، ثم لو سلمنا لكم ذلك الأصل لم يفدكم شيئًا، فإن حصول تلك الصور يكون شرطا لحصول الإدراك.

فإما أن يقال: إن الإدراك عين حصول تلك الصورة، فهذا لا يقوله عاقل.

فلم لا يجوز أن يقال: القوة العقلية حالّةٌ فى جسم مخصوص، ثـم إن القـوة الناطقة قد تحصل لها حالة إضافية تسمى بالشعور والإدراك، فحينئذ تصير القوة العاقلة مدركة لتلك الآلة، وقد لا توجد تلك الحالة الإضافية فتصير غافلة عنهـا، وإذا كان هذا ممكنا سقطت تلك الشبهة رأسًا، ثم نقول لا تدعون أنا إذا عقلنـا شيئًا، فإن الصورة الحاضرة فى العقل مساوية لذلك المعقول من جميـع الوجـوه والاعتبارات أو لا يجب حصول هذه المساواة من جميع الوجوه؟

فالأول لا يقوله عاقل، وهو أظهر من أن يحتج لفساده، وإذا علم أنه لا تجب المساواة من جميع الوجوه لم يلزم من حدوث صورة أخرى فى القلب والدماغ اجتماع المثلين، وأيضًا فالقوة العاقلة حالة فى جوهر القلب أو الدماغ والصـورة الحادثة حالة فى القوة العاقلة، فإحدى الصورتين محل للقوة العاقلة.

وأيضًـا فنحـن إذا رأينـا المسـافة الطويلـة والبعـد الممتـد، فهـل يتوقـف هـذا الإبصار على ارتسام صورة المرئى فى عين الرائى أو لا يتوقف؟

فإن توقف لزم اجتماع المثلين ، لأن القوة الباصرة عندكم جسـمانية ، فهـى فـى محل حجم ومقدار، فإذا حصل فيه حجم المرئى ومقداره لزم اجتماع المثلين؟

وإذا جاز هناك فلـم لا يجـوز مثلـه فـى مسـألتنا، وإن كـان إدراك الشـىء لا يتوقف على حصول صورة المرئى فى الرائى بطل قولكم.

إن إدراك القلب والدماغ يتوقف علـى حصـول صـورة القلـب والدمـاغ فـى القوة العاقلة، وأيضًا فقولكم لو كانت القوة العقلية حالـة فـى جسـم لوجـب أن تكون دائمة الإدراك لذلك الجسم، لكن إدراكنا لقلبنا ودماغنا غير دائـم، فهـذا إنما يلزم من يقول إنها حالّةٌ فى القلب أو الدماغ.

وأما من يقول: إنها حالة فى جسـم مخصـوص وهـو النفـس وهـى مشـابكة للبدن، فهذا الإلزام غير وارد عليه، فإنه يقول النفس جسم مخصـوص والإنسـان أبدًا عالم بأنه جسم مخصـوص، ولا يـزول ذلـك عـن عقلـه إلا إذا عرضـت لـه الغفلة فسقطت الشبهة التى عولتم عليها على كل تقدير.

قولكم فى السادس: إن كل أحد يدرك نفسه، والإدراك عبارة عن حصول ماهية المعلوم عند العالم، وهذا إنما يصح إذا كانت النفس غنية عن المحل إلى آخره:

وجوابه: أن ذلك مبنى على الأصل المتقدم، وهو أن العلم عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم فى نفس العالم، وهذا باطل من وجوه كثيرة مذكورة فى مسألة العلم، حتى لو سلم ذلك فالصورة المذكورة شرط فى حصول العلم لا أنها نفس العلم، وأيضًا فهذه الشبهة مع ركاكة ألفاظها وفساد مقدماتها منقوضة، فإنا إذا أخذنا حجرًا أو خشبة قلنا هذا جوهر قائم بنفسه، فذاته حاضرة عند ذاته، فيجب فى هذه الجمادات أن تكون عالمة بذواتها، وأيضًا فجميع الحيوانات مدركة لذواتها، فلو كان كون الشيء مدركا لذاته يقتضى كون ذاته جوهرًا مجردًا، لزم كون نفوس الحيوانات بأسرها جواهر مجردة، وأنتم لا تقولون بذلك.

قولكم فى السابع: الواحد منا يتخيل بحرًا من زئبق، وجبلا من ياقوت، إلى آخره:

وهو شبهة أبى البركات البغدادى فشبهة داحضة جدًا، فإنها مبنية على أن تلك المتخيلات أمور موجودة، وأنها منطبعة فى النفس الناطقة انطباع النفس فى محله، ومعلوم قطعًا أن هذه المتخيلات لا حقيقة لها فى ذاتها، وإنما الذهن يفرضها تقديرًا، وليست منطبعة فى النفس، فإن العلوم الخارجية لا تنطبع صورها فى النفس فكيف بالخيالات المعدومة، فهذه مندحضة ولا يمنع من وقوع التمييز بين الأعدام المضافة، فإن العقل يميز بين عدم السمع وعدم البصر وعدم الشم وغير ذلك، ولا يلزم من هذا التمييز كون هذه الأعدام موجودة، بل يميز بين أنواع المستحيلات التى لا يمكن وجودها ألبتة، ثم نقول إذا عُقِل حلول الأشكال والمقادير فيما كان مجردًا عن الحجمية والمقدار من كل الوجوه، فلا يعقل حلول العلم بالشكل العظيم والمقدار العظيم فى الجسم الصغير، وأيضًا فإذا كان عدم الانطباق من جميع الوجوه، لايمنع من حلول

الصورة والشكل فى الجوهر المجرد، فعدم انطباق العظيم على الصغير أولى أن لا يمنع من حلول الصورة العظيمة فى المحل الصغير وأيضًا فإن سلفكم من الأوائل أقاموا الدليل على أن انطباع الصورة الحالة فى الجوهر المجرد محال وذكروا له وجوهًا.

قولكم فى الثامن: لو كانت القوة العقلية جسمانية لضعفت فى زمن الشيخوخة، وليس كذلك:

جوابه من جوه:

الوجه الأول: لم لا يجوز أن يقال القدر المحتاج إليه من صحة البدن فى كمال القوة العقلية مقدار معين، وأما كمال حال البدن فى الصحة فإنه غير معتبر فى كمال حال القوة العقلية؟ وإذا احتمل ذلك لم يبعد أن يقال: ذلك القدر المحتاج إليه باق إلى آخر الشيخوخة فبقى العقل إلى آخرها.

الوجه الثانى: أن الشيخ لعله إنما يمكنه أن يستمر فى الإدراكات العقلية على الصحة أن عقله يبقى ببعض الأعضاء التى يتأخر الفساد والاستحالة إليها، فإذا انتهى إليها الفساد والاستحالة فسد عقله وإدراكه.

الوجه الثالث: أنه لا يمتنع أن يكون بعض الأمزجة أوفق لبعض القوى، فلعل مزاج الشيخ أوفق للقوة العقلية فلهذا السبب تقوى فيه القوة العاقلة.

الوجه الرابع: أن المزاج إذا كان فى غاية القوة والشدة، كانت سائر القوى قوية، فتكون القوة الشهوانية والغضبية قوية جدًا، وقوة هذه القوى تمنع العقل من الاستكمال، فإذا حصلت الشيخوخة وحصل الضعف حصل بسبب الضعف ضعف فى هذه القوى المانعة للعقل من الاستكمال، وحصل فى العقل أيضًا ضعف، ولكن بعد ما حصل فى العقل من الضعف حصل ذلك فى أضداده، فينجبر النقصان من أحد الجانبين بالنقصان من الجانب الآخر، فيقع الاعتدال.

الوجه الخامس: أن الشيخ حفظ العلوم والتجارب الكثيرة، ومارس الأمور ودربها، وكثرت تجاربه، وهذه الأحوال تعينه على وجوه الفكر وقوة النظر، فقام النقصان الحاصل بسبب ضعف البدن والقوى.

الوجه السادس: أن كثرة الأفعال بسبب حصول الملكات الراسخة فصارت الزيادة الحاصلة بهذا الطريق جابرة للنقصان الحاصل بسبب اختلاف البدن.

الوجه السابع: أنه قد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**يَهْرَمُ ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل**» والواقع شاهد لهذا الحديث، مع أن الحرص والأمل من القوى الجسمانية والصفات الخيالية.

ثم إن ضعف البدن لم يوجب ضعف هاتين الصفتين، فعلم أنه لا يلزم من اختلال البدن، وضعفه ضعف الصفات البدنية.

الوجه الثامن: أنا نرى كثيرًا من الشيوخ يصيرون إلى الخرف وضعف العقل، بل هذا هو الأغلب.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾[الحج :٥] فالشيخ في أرذل عمره يصير كالطفل أو أسوأ حالا منه، وأما من لم يحصل له ذلك، فإنه لا يرد إلى أرذل العمر.

الوجه التاسع: أنه لا تلازم بين قوة البدن وقوة النفس، ولا بين ضعفه وضعفها، فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف النفس جبانًا خوارًا، وقد يكون ضعيف البدن قوي النفس، فيكون شجاعا مقدامًا على ضعف بدنه.

الوجه العاشر: أنه لو سلم لكم ما ذكرتم لم يدل على كون النفس جوهرًا مجردًا لا داخل العالم ولا خارجه، ولا هي في البدن ولا خارجة عنه، لأنها إذا كانت جسما صافيًا مشرقًا سماويا مخالفًا للأجسام الأرضية، لم تقبل الانحلال والذبول والتبديل، كما تقبله الأجسام المتحللة الأرضية، فلا يلزم من حصول الانحلال والذبول في هذا البدن حصولهما في جوهر النفس.

قولكم فى التاسع: إن القوة العقلية غنية فى أفعالها عن الجسم، وما كان غنيًا عن الجسم فى أفعاله كان غنيا عنه فى ذاته ... إلى آخره:

جوابه: أن يقال لا يلزم من ثبوت حكم فى قوة جسمانية ثبوت مثل ذلك الحكم فى جميع القوى الجسمانية، وليس معكم غير الدعوى المجردة والقياس الفاسد.

وأيضًا فالصور والأعراض محتاجة إلى محلها، وليس احتياجها إلى تلك المحال إلا لمجرد ذواتها، ولا يلزم من استقلالها بهذا الحكم استغناؤها فى ذواتها عن تلك المحال، فلا يلزم من كون الشىء مستقلا باقتضاء حكم من الأحكام أن يكون مستغنيًا فى ذاته عن المحل. والله أعلم.

قولكم فى العاشر: إن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعيف إلى آخره:

جوابه: أن القوة الخيالية جسمانية، ثم إنها تقوى على تخيل الأشياء العظيمة مع تخيلها الأشياء الحقيرة ، فإنها يمكنها أن تتخيل الشعلة الصغيرة، حال ما تخيل الشمس والقمر.

وأيضا فإن الأبصار القوية القاهرة تمنع إبصار الأشياء الضعيفة، فكذلك نقول: العقول العظيمة العالية تمنع تعقل المعقولات الضعيفة، فإن المستغرق فى معرفة جلال رب الأرض والسماوات وأسمائه وصفاته، يمتنع عليه فى تلك الحال الفكر فى ثبوت الجوهر الفرد وحقيقته.

قولكم فى الحادى عشر: إنا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل فى الذهن ماهية السواد والبياض معا والبداهة حاكمة بأن اجتماعهما فى الجسم محال:

جوابه: أن هذا مبنى على أن من أدرك شيئًا فقد حصل فى ذات المدرك صورة مساوية للمدرك ، وهذا باطل، واستدلالكم على صحته بانطباع الصورة فى المرآة باطل، فإن المرآة لم ينطبع فيها شىء ألبتة، كما يقوله جمهور العقلاء، من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم، والقول بالانطباع باطل من وجوه كثيرة.

ثم نقول إذا كنتم قد قلتم: إن المنطبع فى النفس عند إدراك السواد والبياض رسومهما ومثالهما لا حقيقتهما، فلم لا يجوز حصول رسوم هذه الأشياء فى المادة الجسمانية؟

قولكم فى الثانى عشر: إنـه لو كان محل الإدراكات جسما فكل جسـم منقسم لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشىء، وبـالجزء الآخـر من جهل به فيكون الإنسان عالما بالشىء جاهلا به فى وقت واحد:

جوابه: أن هذه الشبهة منتقضة على أصولكم فإن الشهوة والغضب والتخيل من الأحوال الجسمانية عندكم ومحلها منقسم، فلزمكم أن تجوزوا قيام الشهوة والغضب بأحد الجزأين وضدهما بالجزء الآخر، فيكون مشتهيًا للشىء نافرًا عنه غضبان عليه، غير غضبان فى وقت واحد.

قولكم فى الثالث عشر: إن المـادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة، امتنع فيها حصول مثلها، والنفوس البشرية بضد ذلك. إلى آخره:

جوابه: أن غاية هذا أن يكون قياسا ممتازًا بغير جامع، وذلك لا يفيد الظن فضلا عن اليقين، فإن النقوش العقلية هى العلوم والإدراكات والنقوش الجسمانية هى الأشكال والصور، ولا ريب أن العلوم مخالفة بحقائقها للصور والأشكال ولا يلزم من ثبوت حكم فى نوع من أنواع الماهيات ثبوته فيما يخالف ذلك النوع.

قولكم فى الرابع عشر: لو كانت النفس جسمًا لكان بين تحريك المحرك رجله وبين إرادته للحركة زمان إلى آخره:

جوابه: أن النفس مع الجسد لا تخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن تكون لابسة لجميعه من خارج كالثوب.

أو تكون فى موضع واحد كالقلب والدماغ.

أو تكون سارية فى جميع أجزاء الجسد.

وعلى كل تقدير من هذه التقادير فتحريكها لما تريد تحريكه يكون مع إرادتها لذلك بلا زمان، كإدراك البصر لما يلاقيه، وكإدراك السمع والشم والذوق.

وإذا قطعت العضو لم ينقطع ما كان من جسم النفس متخللا لذلك العضو سواء كانت لابسة له من داخل أو من خارج، بل تفارق العضو الذى بطل حسه

فى الوقت وتقلص عنه بلا زمان، ويكون مفارقتها لذلك العضو كمفارقة الهواء للإناء إذا مُلِئ ماء.

وأما إن كانت النفس ساكنة فى موضع واحد من البدن لم يلزم أن تبين مع العضو المقطوع.

وأما إن كانت لابسة للبدن من خارج لم يلزم أن يكون بين إرادتها لتحريكه، ونفس التحريك زمان بل يكون فعلها حينئذ فى تحريك الأعضاء كفعل المغناطيس فى الحديد،وإن لم يلاصقه.

ثم نقول: هذا الهذيان الذى شغلتم به الزمان وارد عليكم بعينه فإنها عندكم غير متصلة بالبدن ولا منفصلة عنه، ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه، فيلزمكم مثل ذلك.

قولكم فى الخامس عشر: لو كانت جسمًا لكانت منقسمة، ولصح عليها أن تعلم بعضها وتجهل بعضها، فيكون الإنسان عالماً ببعض نفسه جاهلاً بالبعض الآخر:

جوابه : أن هذه الشبهة مركبة من مقدمتين تلازمية واستثنائية، والمنع واقع فى كلا المقدمتين أو إحداهما، فلا نسلم أنها لو كانت جسما لصح أن تعلم بعضها وتجهل بعضها، فإن النفس بسيطة غير مركبة من هذه العناصر ولا من الأجزاء المختلفة، فمتى شعرت بذاتها شعرت بجهلها، فهذا منع المقدمة التلازمية.

وأما الاستثنائية فلا نسلم أنها لايصح أن تعلم بعضها حال غفلتها عن البعض الآخر، ولم يذكروا على بطلان ذلك شبهة فضلا عن دليل.

ومن المعلوم أن الإنسان قد يشعر بنفسه من بعض الوجوه دون كلها، ويتفاوت الناس فى ذلك ، فمنهم من يكون شعوره بنفسه أتم من غيره بدرجات كثيرة وقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾[الحشر :١٩]. فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذى به صلاحها وكمالها وسعادتها ، وإن لم ينسوها من الوجه الذى منه

شهوتها وحظها وإرادتها. فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها، وكمالها الذى خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه، وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخر.

قولكم فى السادس عشر: لو كانت النفس جسمًا لوجب ثقل البدن بدخولها فيه؛ لأن من شأن الجسم إذا زادت عليه جسمًا آخر أن يثقل به:

فهذه شبهة فى غاية الثقالة، والمحتج بها أثقل وأثقل وليس كل جسم زيد عليه جسم آخر ثقّله، فهذه الخشبة تكون ثقيلة، فإذا زيد عليها جسم النار خفت جدًا وهذا الظرف يكون ثقيلاً، فإذا دخله جسم الهواء خف.

وهذا إنما يكون فى الأجسام الثقال التى تطلب المركز والوسط بطبعها وهى تتحرك بالطبع إليه، وأما الأجسام التى تتحرك بطبعها إلى العلو فلا يعرض لها ذلك، بل الأمر فيها بالضد من تلك الأجسام الثقال، بل إذا أضيفت إلى جسم ثقيل أكسبته الخفة، وقد أخذ هذا المعنى بعضهم.

فقال:

ثَقُلَتْ زُجاجاتٌ أتينا فُرَّغًا ... حتى إذا ملئت بصرفِ الراح

خَفَتْ فكَادتْ أن تَطير بما حَوَتْ ... وكَذا الجُسُوم تَخِفُ بالأرواح

قولكم فى السابع عشر: لو كانت النفس جسمًا لكانت على صفات سائر الأجسام التى لاتخلو منها، من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والنعومة والخشونة إلى آخره:

شبهة فاسدة وحجة داحضة؛ فإنه لا يجب اشتراك الأجسام فى جميع الكيفيات والصفات، وقد فاوت الله سبحانه بين صفاتها وكيفياتها وطبائعها، فمنها ما يُرى بالبصر، ويُلمسُ باليد، ومنها ما لايرى ولا يلمس، ومنها ما له لون، ومنها مالا لون له ومنها ما يقبل الحرارة والبرودة، ومنها ما لايقبله على أن للنفس من الكيفيات المختصة بها ما لا يشاركها فيها البدن ولها خفة وثقل وحرارة وبرودة، ويبس ولين بحسبها، وأنت تجد الإنسان فى غاية الثقالة وبدنه

نحيل جدًا، وتجده في غاية الخفة وبدنه ثقيل. وتجد نفسًا لينة وادعة ونفسا يابسة قاسية، ومن له حس سليم يشم رائحة بعض النفوس كالجيفة المنتنة ورائحة بعضها أطيب من ريح المسك.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذا مر في طريق بقي أثر رائحته في الطريق، ويعرف أنه مر بها. وتلك رائحة نفسه وقلبه، وكانت رائحة عرقه كأطيب شيء ، وذلك تابع لطيب نفسه وبدنه، وأخبر وهو أصدق البشر أن الروح عند المفارقة يوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. ولولا الزكام الغالب لشم الحاضرون ذلك.

على أن كثيرًا من الناس يجد ذلك وقد أخبر به غير واحد ويكفي فيه خبر الصادق المصدوق، وكذلك أخبر بأن أرواح المؤمنين مشرقة وأرواح الكفار سود.

وبالجملة: فكيفيات النفوس أظهر من أن ينكرها إلا من هو من أجهل الناس بها.

قولكم في الثامن عشر: لو كانت النفس جسمًا لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها إلى آخره:

فجوابه: منع اللزوم فإنكم لم تذكروا عليه شبهة فضلا عن دليل، ومنع انتفاء اللازم، فإن الروح تدرك بالحواس، فتلمس وترى وتشم لها الرائحة الطيبة والخبيثة كما تقدم في النفوس المستفيضة، ولكن لا نشاهد نحن ذلك وهذا الدليل لا يمكن ممن يصدق الرسل أن يحتج به، فإن الملك جسم، ولا يقع تحت حاسة من حواسنا ، وكذلك الجن والشياطين أجسام لطاف، لاتقع تحت حاسة من حواسنا والأجسام متفاوتة في ذلك تفاوتًا كثيرا.

فمنها: ما يدرك بأكثر الحواس.

ومنها: ما لا يدرك بأكثرها.

ومنها: ما يدرك بحاسة واحدة.

ومنها: ما لاندركه نحن فى الغالب، وإن أُدرِكَ فى بعض الأحوال لكونه لم يخلق لنا إدراكه، أو لمانع يمنع من إدراكه أو للطفه عن إدراك حواسنا ، فما عدم اللون من الأجسام ولم يدرك بالبصر، كالهواء والنار فى عنصرهما، وما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالنار والحصا والزجاج، وما عدم المحسة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن.

وأيضا فالروح هى المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلاتها فالنفس هى الحاسة المدركة وإن لم تكن محسوسة.

فالأجسام والأعراض محسوسة والنفس محسة بها وهى القابلة لأعراضها المتعاقبة عليها من الفضائل والرذائل، كقبول الأجرام لأعراضها المتعاقبة عليه وهى المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسرًا وقهرًا، وهى مؤثرة فى البدن متأثرة به تألم وتلذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتنعم، وتيأس وتحب، وتكره وتذكر وتنسى وتصعد، وتنزل وتعرف وتنكر وآثارها من أدل الدلائل على وجودها.

كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله، فإن دلالة الأثر على مؤثره ضرورية، وتأثيرات النفوس بعضها فى بعض أمر لا ينكره ذو حس سليم، ولا عقل مستقيم، ولا سيما عند تجردها نوع تجرد عن العلائق والعوائق البدنية، فإن قواها تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك، ولا سيما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء، وتجنبها سفاسف الأخلاق ورذائلها وسافلها، فإن تأثيرها فى العالم يقوى جدًا تأثيرًا يعجز عنه البدن وأعراضه أن تنظر إلى حجر عظيم فتشقه أو حيوان كبير فتتلفه أو إلى نعمة فتزيلها وهذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها، وهو الذى سمى إصابة العين فيضيفون الأثر إلى العين، وليس لها فى الحقيقة وإنما هو للنفس المتكيفة بكيفية رذية سمية.

وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لا تكون؛ بل يوصف له الشيء من بعيد، فتتكيف عليه نفسه بتلك الكيفية فتفسده.

وأنت ترى تأثير النفس في الأجسام صفرة وحمرة وارتعاشا بمجرد مقابلتها لها وقوتها، وهذه وأضعافها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه؛ فإن البدن لا يؤثر إلافيما لاقاه وماسه تأثيرًا مخصوصًا؛ ولم تزل الأمم تشهد تأثير الهمم الفعالة في العالم، وتستعين بها وتحذر أثرها، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن يغسل العائن مغابنه ومواضع القذر منه، ثم يصب ذلك الماء على المعين، فإنه يزيل عنه تأثير نفسه فيه، وذلك بسبب أمر طبعي اقتضته حكمة الله سبحانه، فإن النفس الأمارة لها بهذه المواضع تعلق وإلف، والأرواح الخبيثة الخارجية تساعدها وتألف هذه المواضع غالبا للمناسبة بينها وبينها، فإذا غسلت بالماء أطفأ تلك النارية منها كما يطفأ الحديد المحمى بالماء، فإذا صب ذلك الماء على المصاب أطفأ عنه تلك النارية التي وصلت إليه من العائن.

وقد وصف الأطباء الماء الذي يطفأ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة، وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها في بعض عند تجردها في المنام عجائب تفوت الحصر، وقد نبهنا على بعضها فيما مضى.

فعالم الأرواح عالم آخر أعظم من عالم الأبدان، وأحكامه وآثاره أعجب من آثار الأبدان؛ بل كل ما في العالم من الآثار الإنسانية فإنما هي من تأثير النفوس بواسطة البدن، فالنفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين في الفعل، وتنفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن، ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس.

قولكم فى التاسع عشر: لو كانت النفس جسمًا لكانت ذات طول وعرض وعمق وشكل وسطح، وهذه المقادير لا تقوم إلا بمادة إلى آخره:

جوابه: أنا نقول: قولكم هذه المقادير لا تقوم إلا بمادة.

قلنا: وكان ماذا والنفس لها مادة خلقت منها وجعلت على شكل معين وصورة معينة .

قولكم: مادتها إن كانت نفسًا لزم اجتماع نفسين، وإن كانت غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة.

قلنا: مادتها ليست نفسًا، كما أن مادة الإنسان ليست إنسانًا ومادة الجن ليست جنًا، ومادة الحيوان ليست حيوانا.

قولكم: يلزم كون النفس مركبة من بدن وصورة مقدمة كاذبة، وإنما يلزم كون النفس مخلوقة من مادة ولها صورة معينة. وهكذا نقول سواء ولم تذكروا على بطلان هذا شبهة فضلا عن حجة ظنية أو قطعية.

قولكم فى الوجه العشرين: إن خاصة الجسم أن يقبل التجزئ وإن الجزء الصغير منه ليس كالكبير، فلو قبلت التجزئ فكل جزء منها إن كا نفسًا لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة وإن لم يكن نفسا لم يكن المجموع نفسا:

جوابه: إن أردتم أن كل جسم يقبل التجزئ فى الخارج فكذب ظاهر فإن الشمس والقمر والكواكب لا تقبل ذلك، ولا يلزم أن كل جسم يصح عليه التجزئ والتبعيض فى الخارج.

وأما على قول نفاة الجوهر الفرد فظاهر، وأما على قول مثبتيه فإنه عندهم جوهر متحيز لا يصح عليه قبول الانقسام، سلمنا أنها تقبل الانقسام، فأى شىء يلزم من ذلك؟

قولكم: إن كان كل جزء من تلك الأجزاء نفسا لزم اجتماع نفوس كثيرة فى الإنسان.

قلنا: إنما يلزم ذلك لو انقسمت النفس بالفعل إلى نفوس كثيرة، وهذا محال.

قولكم: وإن لم يكن كل جزء نفسا لم يكن المجموع نفسا، مقدمة كاذبة منتقضة. فكل ماهية ثبت لها حكم عند اجتماع أجزائها، فإن ذلك الحكم لا يثبت لكل جزء من تلك الأجزاء، كماهية البيت والإنسان والعشرة وغيرها.

قولكم في الوجه الحادي والعشرين: إن الجسم يحتاج في قوامه وبقائه وحفظه إلى نفس أخرى ويلزم التسلسل:

جوابه: أنه يلزم من افتقار البدن إلى نفس تحفظه افتقار النفس إلى نفس تحفظها، وهل ذلك إلا بمجرد دعوى كاذبة مستندة إلى قياس، وقد تبين بطلانه.

فإن كل جسم لا يصير إلى نفس تحفظه كأجسام المعادن، وجسم الهواء والماء، والنار، والتراب، وأجسام سائر الجمادات.

فإن قلتم: إن هذه ليست أحياء ناطقة بخلاف النفس فإنها حية ناطقة.

قلنا: فحينئذ يبقى الدليل هكذا أن كل جسم حي ناطق يحتاج في حفظه وقيامه إلى نفس تقوم به، وهذه دعوى مجردة وهي كاذبة، فإن الجن والملائكة أحياء ناطقون وليسوا مفتقرين في قيامهم إلى أرواح أخر تقوم بهم.

فإن قلتم: وكلامنا معكم في الجن والملائكة فإنهم ليسوا بأجسام متحيزة.

قلنا: الكلام مع من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأما من كفر بذلك، فالكلام معه في النفس ضائع، وقد كفر بفاطر النفس ومبدعها وملائكته وما جاءت به رسله، وكان تاركا ما دل عليه العيان مع دليل الإيمان، فإن الآثار المشهودة في العالم من تأثيرات الملائكة والجن بإذن ربهم، لايمكن إنكارها ولا هي موجودة بنفسها ولا تقدر عليها القوى البشرية.

قولكم فى الثانى والعشرين: لو كانت جسمًا لكن إيصالها بالبدن إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان للإنسان الواحد جسمان متلاصقان، أحدهما يرى، والآخر لا يرى:

وجوابه: من وجوه:

أحدهما: أن تداخل الأجسام المحال أن يتداخل جسمان كثيفان أحدهما فى الآخر بحيث يكون حيزهما واحدًا، وأما أن يدخل جسم لطيف كثيف يسرى فيه فهذا ليس بمحال.

الثانى: أن هذا باطل بصور كثيرة منها دخول الماء فى العود والسحاب، ودخول النار فى الحديد، ودخول الغذاء فى جميع أجزاء البدن، ودخول الجن فى المصروع، فالروح للطافتها لا يمتنع عليها مشابكة البدن والدخول فى جميع أجزائه.

الثالث: أن حيز النفس البدن وحيزه مكانه المنفصل عنه، وهذا ليس بتداخل ممتنع، فإذا فارقته صار لها حيزًا آخر غير حيزه، وحينئذ فلا يتداخلان؛ بل يصير لكل منهما حيز يخصه، وبالجملة فدخول الروح فى البدن ألطف من دخول الماء فى الثرى والدهن فى البدن، فهذه الشبهة الفاسدة لا يعارض بها ما دل عليها نصوص الوحى والأدلة العقلية، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية

هل النفس والروح شيء واحد؟

وأما المسألة الثانية: وهى هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟

فاختلف الناس فى ذلك:

فمن قائل: مسماهما واحد وهم الجمهور.

ومن قائل: إنهما متغايران، ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته.

فنقول: النفس تطلق على أمور :

أحدها: الروح.

قال الجوهرى: النفس الروح.

يقال: خرجت نفسه.

قال أبو خراش:

نَجا سَالِماً والنفسُ منه بشدقِهِ ... ولم ينجُ إلا جَفنُ سيفٍ ومئزرِ

أى بجفن سيف ومئزر، والنفس الدم، يقال: سالت نفسه، وفى الحديث **«يا سلمانُ: كل طعامٍ وشرابٍ وقعت فيه دابةٌ ليس لهَا دم، فماتت فيه فهو الحلالُ أكْلُه وشرْبه ووضوؤه»**[1].

والنفس الحسد، قال الشاعر:

نُبئتُ أنَّ بنى تميمٍ أدخلُوا ... أبناءَهم تَامُور نفسِ المُنذرِ

والتامور: الدم.

والنفس: العين.

يقال: أصابت فلانا نفس أى: عين.

قلت: ليس كما قال: بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين تَوسُعٌ لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذى أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

---

(١) الحديث: أخرجه الدارقطنى فى سننه (٢٥/١) عن سلمان وقال: لم يروه غير بقية عن سعيد بن أبى سعيد الزبيدى ، وهو ضعيف.

قلت: والنفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها.

كقوله تعالى: ﴿ **فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ**﴾[النور :٦١].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**﴾[النساء :٢٩].

وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا**﴾[النحل :١١١].

وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[المدثر :٣٨].

وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿ **يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾[الفجر :٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ **أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ**﴾[الأنعام :٩٣].

وقوله تعالى: ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى**﴾[النازعات :٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[يوسف :٥٣].

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس.

وتطلق الروح على القرآن الذى أوحاه الله إلى رسوله قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**﴾[الشورى :٥٢].

وعلى الوحى الذى يوحيه إلى أنبيائه ورسله قال تعالى: ﴿ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ**﴾[غافر :١٥].

وقال تعالى: ﴿**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ**﴾[النحل :٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لاتنفع صاحبها ألبتة؛ بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة. وسميت الروح روحا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهى من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هَبت الأرواحُ من نحوِ أرضِكُمُ ... وجَدتَ لمسراها على كبدى بردًا

ومنها الروح والريحان والاستراحة، فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها: وسميت نفسًا، إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها.

وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسًا.

ومنه: النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه، فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمى الدم نفسا لأن خروجه الذى يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لاتتم إلا به كما لا يتم إلا بالنفس فلهذا قال:

تَسيلُ على حدِ الظباةِ نُفوسُنَا ... وليست على غير الظباةِ تَسيلُ

ويقال: فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه.

كما يقال: خرجت روحه وفارقت.

ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهى الاندفاع بكثرة وسرعة، ولكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذى يفيضها عند الموت فتفيض هى.

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف: الروح غير النفس.

قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حياة وروح ونفس، فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع. فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه يتقلب ويتنفس، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله عز وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت.

وقال أيضا: إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح، ويخبر الروح القلب. فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

وقال أبو عبد الله بن منده: ثم اختلفوا فى معرفة الروح والنفس.

فقال بعضهم: النفس طينية نارية، والروح نورية روحانية.

وقال بعضهم: الروح لاهوتية والنفس ناسوتية، وأن الخلق بها ابتلى.

وقالت طائفة، وهم أهل الأثر: إن الروح غير النفس، والنفس غير الروح، وقوام النفس بالروح. والنفس صورة العبد، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها، ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه.

فالنفس لاتريد إلا الدنيا، ولا تحب إلا إياها، والروح تدعو إلى الآخرة،وتؤثرها.

وجعل الهوى تبعا للنفس، والشيطان تبع النفس؛ والهوى والملك مع العقل والروح. والله تعالى يمدهما بإلهامه وتوفيقه.

وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق.

وقال بعضهم: الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله. ثم اختلفوا في الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لاتموت.

فقالت طائفة: الأرواح لاتموت ولا تبلى.

وقال جماعة: الأرواح على صور الخلق، لها أيد وأرجل وأعين، وسمع وبصر ولسان.

وقالت طائفة: للمؤمن ثلاثة أرواح، وللمنافق والكافر روح واحدة.

وقال بعضهم: للأنبياء والصديقين خمس أرواح.

وقال بعضهم: الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت

قلت: أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة، وهي النفس. وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح.

كما قال تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ**﴾[المجادلة :٢٢]، وكذلك الروح التي أيد بها روحه المسيح ابن مريم

كما قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ [المائدة :١١٠]، وكذلك الروح التى يلقيها على مَنْ يشاء من عباده هى غير الروح التى فى البدن، وأما القوى التى فى البدن فإنها تسمى أيضًا أرواحا، فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام، فهذه الأرواح قوى مودعة فى الأبدان تموت بموت الأبدان، وهى غير الروح التى لاتموت بموت البدن، ولا تبلى كما يبلى ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه، ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه، وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهى الروح التى يؤيد بها أهل ولايته وطاعته ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان مافيه روح، وهو بوٌّ وهو قصبة فارغة، ونحو ذلك، فللعلم روح، وللإحسان روح وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه من هذه الأرواح فيصير روحانيًّا ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًّا. والله المستعان.

المسألة الثالثة

هل النفس واحدة أم ثلاث

وأما المسألة الثالثة وهى: هل النفس واحدة أم ثلاث؟

فقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة ونفس أمارة. وأن منهم من تغلب عليه هذه ، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾[الفجر:٢٧]، وبقوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[القيامة :١،٢]، وبقوله تعالى ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[يوسف:٥٣].

والتحقيق: أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديتة ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضى به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به، ويتحرك به ويبطش به فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذى أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[الرعد :٢٨].

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشىء سوى الله تعالى، وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور والثقة به عجز، قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له، وأن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته، كائنا من كان.

بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضا لسهام البلاء ، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به نفسه، وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له، وفرح القلب به، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب، حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش فيطمئن إليه ويسكن إليه، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله، حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل؟ بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه، فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها، لم يلتفت إلى خلافهم، وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئا.

فهذه أولى درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ، وما بعدها من أحوال القيامة، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا ، وهذه حقيقة اليقين الذى وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿ **وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾[البقرة:٤]. فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التى لاشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًا باليوم الآخر؛ كما فى حديث حارثة: أصبحتُ مؤمنًا حَقًا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**وإنَّ لكل حق حقيقة فما حقيقةُ إيمانِك؟**» .

قَالَ: عَزفَتُ نفسِى عَنْ الدنَيا وأهلِها وكَأنِّى أَنظرُ إلى عَرش رَبِى بَارِزًا وإلى أهلِ الجَنّةِ يَتزَاورونَ فِيها وأهلَ النارِ يُعذبُون فيها.

فَقَالَ: «عبد نور اللّٰه قلبه»[1].

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان:

طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها.

وطمأنينة إلى ما تقضيه وتوجبه من آثار العبودية. مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر بدفعها، ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها، ولا يسخط ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على مافاته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة، قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[الحديد: ٢١،٢٢]، وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾[التغابن: ١١].

قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة، فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان: فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدا، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التي لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: صريح الإيمان. وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية

(١) الحديث: عزاه الهيثمي في المجمع،كتاب: الإيمان، باب: في حقيقة الإيمان وكماله (١٩٠) للبزار في مسنده من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: وفيه يوسف بن عطية، لا يحتج به.

وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة.

فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لايفعله شارب الخمر، وكذلك يظهر من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره، وتعلق الروح بحبه ومعرفته فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدا، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

وهاهنا سر لطيف، يجب التنبيه عليه، والتنبه له والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده:

وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له، فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه، والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابا واضطرابا من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأقوال المفسرين فى الطمأنينة ترجع إلى ذلك:

قال ابن عباس رضى الله عنهما: المطمئنة المصدقة.

وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله.

وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالى.

وقال مجاهد: هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها.

وروى منصور عنه قال: النفس التى أيقنت أن الله ربها وضربت جأشا لأمره وطاعته.

وقال ابن أبى نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلى الله.

وقال أيضا: هى التى أيقنت بلقاء الله.

فكلام السلف فى المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل.

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ومن التيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل، فقد باشرت روح الطمأنينة، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهى أول مفاتيح الخير فإنَّ الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده، بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدارك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب، وهى غفلته التى رقد فيها فطال رقوده وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات، فاشتد إخلاده وركوده وانغمس فى غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات، ورضى بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو فى رقاده مع النائمين، وفى سكرته مع المخمورين، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق فى قلبه استجاب فيها لواعظ الله فى قلب عبده المؤمن أو همة عليه أثارها معول الفكر فى المحل القابل، فضرب بمعول فكره وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة فقال:

ألا يَـــانفسُ ويَحـــك ســـاعديني   بســـعى منـــكِ فـــى ظُلَـــم الليـــالىْ
لعَلّـــكِ فـــى القيامـــةِ أنْ تفـــوزى   بطيـــبِ العيـــش فـــى تلـــك العلالـــىْ

فأثارت تلك الفكرة نورًا رأى فى ضوئه ما خلق له، وماسيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزمه قائلا: ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله. فاستقبل بقية عمره ألتى لاقيمة لها مستدركا بها ما فات محييا بها ما أمات، مستقيلا بها ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات، ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة وفود نعمة ربه عليه من حين استقر فى الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهرًا وباطنًا ليلا ونهارًا، ويقظة ومنامًا، سرًا وعلانية، فلو اجتهد فى إحصاء أنواعها لما قدر. ويكفى أن أدناها نعمة النفس ولله عليه فى كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة، فما ظنك بغيرها.

ثم يرى فى ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها، وأن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له فى النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله، ثم يرى فى ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى، وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه هذا لو كانت أعماله منه، فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه، حيث يسرها له وأعانه عليها، وهيأه لها وشاءها منه وكونها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذ لايرى أعماله منه. وأن الله سبحانه لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته. وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلا منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير، ويرى

نفسه أهلا لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وهو الذى يرفعها ويجعلها فى ديوان أصحاب اليمين، ثم تبرق له فى نور تلك اليقظة بارقة أخرى يرى فى ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله ، وماتقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات ، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه، رأى أن حق المنعم عليه فى نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه، فيطمئن قلبه، وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه، وآفات عمله.

قائلا: أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب.

له أمرين عظيمين:

أحدهما: استكثار ما منَّ الله عليه .

والثانى: استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت، ثم تبرق له بارقة أخرى يرى فى ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة والندامة وفى حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ فى ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه، وأن يؤثر عليه غيره، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس، فى دار سريعة الزوال. وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق لو فكر فى منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة.

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة :٢]. فاختلف فيها:

فقالت طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم وهوالتردد، فهى كثيرة التقلب والتلون، وهى من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة ، فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانًا متلونة، فتذكر وتغفل وتقبل وتلطف وتكثف وتنيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطيع وتعصى وتتقى وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها، فهى تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا.

فقالت فرقة: هى نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة.

قال الحسن البصرى: إن المؤمن لاتراه إلا يلوم نفسه دائمًا، يقول ما أردت بهذا؟ لِمَ فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى. ونحو هذا من الكلام.

وقال غيره: هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب؛ بل يلومها وتلومه على فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين، فإن كل أحد يلوم نفسه برًّا كان أو فاجرًا. فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه، إن كان مسيئا على إساءته ، وإن كان محسنًا على تقصيره، وهذه الأقوال كلها حق، ولا تناف بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة.

لكن اللوامة نوعان:

لوامة ملومة: وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملا ئكته.

ولوامة غير ملومة: وهى التى لاتزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله، ومع بذله جهده. فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله.

وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولـم تحتمـل فـى اللـه مـلام اللـوام، فهى التى يلومها الله عز وجل.

وأما النفس الأمارة:

فهى المذمومة فإنها التى تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها اللـه وثبتها وأعانها، فما تخلص أحـد مـن شـر نفسـه إلا بتوفيـق اللـه لـه، كمـا قـال تعالى:حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[يوسف :٥٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾[النور :٢١].

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهـم إليـه: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾[الإسراء :٧٤] .

وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم، يعلمهم خطبـة الحاجـة: «**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا فَمَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ**»[1]. فالشـر كـامن فـى النفـس وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، فإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كمـا أكرمـه بالمطمئنة فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة، ثم مطمئنة وهى غاية كمالهـا وصلاحها، وأيد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبهـا الـذى

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجمعة، باب: تخفيـف الصـلاة والخطبـة (٨٦٨)، والترمذى، كتاب: النكاح، باب: مـا جـاء فـى خطبـة النكـاح (١١٠٥). مـن حديـث ابـن مسعود رضى الله عنه. وقال: حديث صحيح.

يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريهـا حسـن صورتـه ويزجرهـا عن الباطل، ويزهدها فيه، ويريها قبح صورتـه، وأمدهـا بمـا علمهـا مـن القـرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق بنياتها، ويصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته فى ذلـك كلـه، ازداد مددهـا. فتقـوى علـى محاربـة الأمـارة فمـن جندهـا وهـو سـلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين، فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائـه نـاظرة إليه إن ثبت ثبتت، وإن انهزم ولت على أدبارها، ثم أمراء هذا الجيـش ومقدمـو عسـاكره شـعب الإيمـان المتعلقـة بـالجوارح علـى اختـلاف أنواعهـا كـالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحـة الخلـق والإحسـان إليهـم بـأنواع الإحسـان، وشـعبه الباطنيـة المتعلقـة بـالقلب كـالإخلاص والتوكـل والإنابـة والتوبـة والمراقبـة والصـبر والحلـم والتواضـع والمسكنة وامتلاء القلب من محبـة اللـه ورسـوله وتعظيـم أوامـر اللـه وحقوقـه، والغيرة لله وفى الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة، ومـلاك ذلـك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصـادق المخلـص، فقـد أقيـم علـى الصـراط المستقيم فيسار به وهو راقـد، ولا يتعـب مـن حـرم الصـدق والإخـلاص، فقـد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران، فإن شاء فليعمـل وإن شاء فليترك، فلا يزيده عمله من الله إلا بعدًا. وبالجملة فما كان لله وباللـه فهـو من جند النفس المطمئنة.

وأما النفس الأمارة: فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الـذى يليهـا فهـو يعدهـا ويمنيها، ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسـوء ويزينـه لهـا ويطيـل فـى الأمـل ويريهـا الباطل فى صورة تقبلهـا وتستحسـنها ويمدهـا بـأنواع الإمـداد البـاطل مـن الأمـانى الكاذبة والشهوات المهلكة، ويسـتعين عليهـا بهواهـا وإرادتهـا، فمنـه يدخـل عليهـا ويدخل عليها كل مكروه، فما استعان على النفوس بشىء هو أبلغ من هواها وإرادتهـا إليه، وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنـس فـلا يسـتعينون علـى الصـور الممنوعـة

منهم بشيء أبلغ من هواهم وإرادتهم فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه، ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصورة، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها ، فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة وخربوا المساجد وعمروا البيع والكنائس والخانات والمواخير، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان، ومن عز الطاعة إلى ذُلِّ المعصية ومن السماع الرحماني إلى السماع الشيطاني. ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعداد للقاء إخوان الشياطين، فبينا هو يراعي حقوق الله وما أمره به، إذ صار يرعى الخنازير، وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصبا لخدمة كل شيطان رجيم. والمقصود أن الملك قرين النفس المطمئنة والشيطان قرين الأمارة.

وقد روى أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ. وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾»**[1].

وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب، وزاد فيه عمرو.

قال: سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال: **«إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئا فليحمد الله وليسأله من فضله، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان»** .

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٨٨)، وقال: حديث حسن صحيح. اللمة، هي: ما يقع في القلب من وسوسة أو إلهام.

فالنفس المطمئنة:

فالملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده.

والشيطان وجنده من الكفر؛ يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك.

وقد سلط الله سبحانه الشيطان على كل ماليس له ولم يرد به وجهه، ولا هو طاعة له وجعل ذلك إقطاعه فهو يستتب النفس الأمارة على هذا العمل والإقطاع، ويتقاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها، فهي أحرص شيء على تخليص الأعمال كلها لها وأن تصير من حظوظها فأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان، ومن الأمارة لله، فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغي لنجا به العبد، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يدع لها عملاً واحدًا يصل إلى الله.

كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه: والله لو أعلم أن لي عملا واحدًا وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله.

قال عبد الله بن عمر: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة، لم يكن غائب أحب إلي من الموت إنما يتقبل من المتقين.

وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق، وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ولا يرضى حتى يقدم محبة غيره وخوفه ورجائه، فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم وهذا حال أكثر هذا الخلق، وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكيم السنة، وعدم الالتفات إلى آراء الرجال.

فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله. وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة، جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها فى عدة قوالب، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق، والله يعلم أنها كاذبة، وما مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى قضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها، ولعمر الله ما تخلصت إلا من قضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته، فهى مسجونة فى هذا العالم، وفى البرزخ فى أضيق منه، ويوم المعاد الثانى فى أضيق منهما.

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها، فتخرجه فى صورة مذمومة، وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الأحلام لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات، فضلا عن البلوغ الذى يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيجتنبه. فتريه صورة تجريد التوحيد التى هى أبهى من صورة الشمس والقمر فى صورة التنقيص المذموم، وهضم العظاء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة، والمسكنة والذل والفقر المحض، الذى لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة، وإلا من بعد إذن الله، فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم، ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار، ويقولون: أجعل الآلهة واحدًا إن هذا لشىء عجاب.

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال فى صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم، ومافهموه عن الله ورسوله ، وأن هذا إساءة أدب عليهم، وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم، وأنهم قد فاتهم الصواب.

وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم فتنفر من ذلك أشد النفار، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع وكلام الرسول هو المتشابه الذى يعرض على أقوالهم، فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه، وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم.

وتريه صورة الإخلاص فى صورة ينفر منها، وهى الخروج عن حكم العقل المعيشى والمداراة والمداهنة والتى بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس، فمتى أخلص أعماله ولم يعمل لأحد شيئا تجنبهم وتجنبوه، وأبغضهم وأبغضوه وعاداهم وعادوه، وسار على جادة وهم على جادة، فينفر من ذلك أشد النفار، وغايته أن يخلص فى القدر اليسير من أعماله التى لاتتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله.

وتريه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره فى قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لايطبق وأنه يصير غرضا لسهام الطاعنين وأمثال ذلك من الشبه التى تقيمها النفس السحارة والخيالات التى تخيلها .

وتريه حقيقة الجهاد فى صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير الأولاد يتامى ويقسم المال.

وتريه حقيقة الزكاة والصدقة فى صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه، واحتياجه إلى الناس، ومساواته للفقير وعوده بمنزلته.

وتريه حقيقة إثبات صفات الكمال لله، فى صورة التشبيه والتمثيل فينفر من التصديق بها وينفر غيره.

وتريه حقيقة التعطيل والإلحاد فيها، فى صورة التنزيه والتعظيم، وأعجب من ذلك أنها تضاهى ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من هذا

إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة، فيتباين الفعلان في البطلان ، ويشتبهان في الظاهر.

ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة، فالأول: من المطمئنة والثاني من الأمارة، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، وشرف النفس والتيه، والحمية والجفاء، والتواضع، والمهانة والقوة في أمر الله، والعلو في الأرض، والحمية لله والغضب له، والحمية للنفس والغضب لها، والجود والسرف، والمهابة والكبر، والصيانة والتكبر، والشجاعة والجرأة، والحزم والجبن، والاقتصاد والشح والاحتراز، وسوء الظن، والفراسة والظن، والنصيحة والغيبة، والهدية والرشوة، والصبر والقوة، والعفو والذل، وسلامة القلب والبله، والغفلة والثقة، والغرة والرجاء والتمني، والتحدث بنعم الله والفخر بها، وفرح القلب وفرح النفس، ورقة القلب والجزع، والموجدة والحقد، والمنافسة والحسد، وحب الرياسة وحب الإمامة، والدعوة إلى الله والحب لله والحب مع الله، والتوكل والعجز، والاحتياط والوسوسة، وإلهام الملك وإلهام الشيطان، والإناءة والتسويف، والاقتصاد والتقصير، والاجتهاد والغلو، والنصيحة والتأنيب، والمبادرة والعجلة، والإخبار بالحال عند الحاجة والشكو.

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة، وهومنقسم إلى: محمود ومذموم، كالفرح والحزن، والأسف والغضب، والغيرة والخيلاء، والطمع والتجمل والخشوع، والحسد والغبطة والجرأة والتحسر، والحرص والتنافس وإظهار النعمة، والحلف والمسكنة، والصمت والزهد والورع والتخلي، والعزلة والأنفة والحمية والغيبة.

وفي الحديث: «**إن مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّه وما يكرَهُهُ فَالْغَيْرَةُ التي يحبُها اللَّه الغيرةُ فِي رِيبَةٍ والَّتِي يكرُهَا الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ، وَإنَّ مِنَ الْخيَلاءِ مَا يُحِبّهُ اللَّهُ ومنها مَا يكرهُهُ، فَالتي يُحِبُّ الْخيَلاءُ في الحرب**»[1].

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في الخيلاء في الحرب (٢٦٥٩)، وأحمد في مسنده (٥/٤٤٥) من حديث جابر بن عتيك ﷺ.

وفى الصحيح أيضًا[١]:

«لاحِسَد إلا فِى اثنتينِ: رجلٌ آتَاه اللَّهُ مالا وَسلطَهُ عَلَى هلكتِهِ فِى الحِق، ورجلٌ آتُاه اللَّهُ الحكمَةَ فهو يقضَى بِهَا وَيُعْلمُهَا».

وفى الصحيح أيضًا[٢]:

«إن اللَّهُ رفيقٌ يحَبُ الرفقِ وَيُعطى عَلىَ الرفقِ مالا يُعطى عَلىَ العُنفِ».

وفيه أيضًا[٣]:

«مَنْ أعطَى حَظهُ مِنَ الرفقِ فَقْد أُعطِى حَظهُ مِنْ الخيرِ».

فالرفق شيء والتوانى والكسل شيء، فإن المتوانى يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها فيتقاعد عنها ، والرفيق يتلطف فى تحصليها بحسب الإمكان مع المطاوعة، وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المدارى يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده غن إلباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمدارة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق، وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوى الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ فى تليينها، حتى إذا نضجت أخذ فى طبها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده، ويقطع مادته ثم تابع عليها بالمراهم التى تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: العلم، باب: الاغتباط فى العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٥). من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: استتابة المرتدين، باب: إذا عرض الذمى أو غيره بسبب النبى ﷺ ولم يصرح (٦٩٢٧)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والأداب، باب: فضل الرفق (٢٥٩٣). من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٣) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء فى الرفق (٢٠١٣)، وقال: حديث حسن صحيح، والإمام أحمد فى مسنده (٦/٤٥١). من حديث: أبى الدرداء رضي الله عنه.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لاشيء فاسترها عن العيون بخرقة ثم اله عنها، فلا تزال تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها. وهذا المثل أيضا مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة، فتأمله فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة، فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء، هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق، وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر، حتى يخيل إليها النافع ضارًا والضار نافعًا والحسن قبيحًا والقبيح جميلاً، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر ولهذا يقول سبحانه: ﴿ **فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**﴾[المؤمنون :٨٩].

والذى نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذى أصابهم بعينه وهو أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمراء الأمم بالاستعاذة من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان، إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان.

رَضيعي لبان ثدي أم تَقَاسَما بأسحم داج عوض لا يَتَفَرق

قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[النحل :٩٨].

قال: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[فصلت :٣٦].

وقال: ﴿**وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي**﴾[المؤمنون :٩٧] .

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ* وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ* وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾[الفلق :١-٥].

فهذه استعاذة من شر النفس.

وقال: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ* مَلِكِ النَّاسِ* إِلَهِ النَّاسِ* مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[الناس :١-٦].

فهذه استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب.

فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شأنها فى الشر والفساد.

والقلب: بين هذين العدوين لايزال شرهما بطرقه وينتابه، وأول ما يدب فيه السقم من النفس الأمارة من الشهوة، وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب، ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه فيعوده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات، ويخيل إليه بسحره أن شفاءه فيها، ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما وأنه نقد حاضر، ولذة عاجلة، والداعى إليه يدعو من كل ناحية، والهوى ينفذ والشهوة تهون، والتأسى بالأكثر والتشبه بهم، والرضا بأن يصيبه ما أصابهم، فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعى الإيمان ومنادى الجنة إلا من أمده الله بإمداد التوفيق، وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته، وفتح بصيرة قلبه، فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها، وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وأنها فى الحياة الدائمة، كغمس إصبع فى البحر بالنسبة إليه.

الباب الثالث

الفروق



الفــروق

والفرق بين خشوع الإيمان والنفاق:

أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعم الله وجناياته هو فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما الخشوع النفاق: فيبدو على الجوارح تصنعا وتكلفًا والقلب غير خاشع.

وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق.

قيل له: وما خشوع النفاق.

قال: أن يرى الجسد خاشعا والقلب غير خاشع.

فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذى حشى به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التى نزلت عليه من ربه، فصار مخبتا له، فإن الخبت من الأرض ما تطامن فاستنقع فيه الماء فكذلك القلب المخبت قد خشع وتطامن كالبقعة المطمئنة من الأرض التى يجرى إليها الماء، فيستقر فيها.

وعلامته أن يسجد بين يدى ربه إجلالا له وذلا وانكسارًا بين يديه ، سجدة لايرفع رأسه عنها، حتى يلقاه.

وأما القلب المتكبر: فإنه قد اهتز بتكبره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لايستقر عليها الماء ، فهذا خشوع النفاق.

وأما التماوت وخشوع النفاق، فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعًا ومرآة، ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات، فهو يتخشع فى الظاهر، وحية الوادى، وأسد الغابة رابضٌ بين جنبيه ينتظر الفريسة.

وأما شرف النفس: فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التى تقطع أعناق الرجال. فيربأ بنفسه عن أن يلقيها فى ذلك بخلاف التيه، فإنه خلق متولد بين أمرين: إعجابه بنفسه وإزرائه بغيره، فيتولد من بين هذين التية. والأول يتولد من بين خلقين كريمين إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيًا وضيعًا خسيسًا فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها. وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها وإمداد وليها ومولاها لها. فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله.

وكذلك الفرق بين الحمية والجفاء:

فالحمية: فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى، هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا، ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه، فإن لهم فطامًا تنقطع معه الأكباد حسرات، فلابد من الفطام، فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور، وإن شئت أخر وأنت غير مأجور.

بخلاف الجفاء: فإنه غلظة فى النفس وقساوة فى القلب، وكثافة فى الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء.

والفرق بين التواضع والمهانة:

أن التواضع: يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عمله، وآفاتها. فيتولد من بين ذلك كله خلق، هو التواضع وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبلة، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة: فهى الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السفل فى نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع. والله سبحانه يحب التواضع ويبغض المهانة والضعة.

وفى الصحيح[1]:

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّـى لا يَفْخَـرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**».

التواضع المحمود على نوعين :

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتنابـا فـإن النفـس لطلب الراحة تتلكأ فى أمره فيبدو منها نوع إباء وشرًا هربًا من العبودية، وتثبـت عند نهيه طلبا للظفر بما منع منه فـإذا وضـع العبـد نفسـه لأمـر اللـه ونهيـه فقـد تواضع للعبودية.

والنوع الثانى: تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك، وغضبه الشـديد علـى مـن نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه، وتطامن لهيبته وأخبـت لسلطانه، فهذا غاية التواضـع وهـو يستلزم الأول مـن غـير عكـس، والمتواضـع حقيقة من رزق الأمرين. والله المستعان.

وكذلك القوة : ففى أمر الله هى من تعظيمـه وتعظيـم أوامـر وحقوقـه حتـى يقيمها لله .

والعلو فى الأرض: هو مـن تعظيـم نفسـه وطلـب تفردهـا بالرياسـة، ونفـاذًا لكلمة سواء عز أمر الله أوهان؛ بل إذا عارضـه أمـر اللـه وحقوقـه ومرضاتـه فـى طلب علوه، لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته فى تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله والحميـة للنفـس، فـالأولى يثيرهـا تعظيـم الأمـر والآمـر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفـات التـى يعـرف بهـا فـى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، بـاب: البـراءة مـن الكـبر والتواضع (٤١٧٩). من حديث عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه.

فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه، وهى حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذى ألقى على قلبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق بدره الغضب، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه[1]، **عن موسى بن عمر**: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«كانَ إذا غضِبَ اشتعلتِ قلنسوَّته نارًا»** .

وهذا بخلاف الحمية للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه، فإن الفتنة فى النفس والفتنة هى الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب، فإنما هما حرارتان يظهران على الأركان، حرارة من قبل النفس المطمئنة آثارها تعظيم حق الله وحرارة من قبل النفس الأمارة وآثارها استشعار فوت الحظ.

والفرق بين الجود والسرف:

أن الجواد: حكيم يضع العطاء مواضعه، والمسرف مبذر قد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه. وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل فى المال حقوقًا.

وهو نوعان: حقوق موظفة، وحقوق ثانية.

فالحقوق الموظفة: كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف ومكافأة المهدى وما وقى به عرضه ونحو ذلك، فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف فى الدنيا والثواب فى العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة

---

(١) الأثر: عزاه السيوطى فى الدر المنثور لأبى الشيخ الأصبهانى فى تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف:١٥٠].

قلب وسخاوة نفس، وانشراح صدر بخلاف المبذر، فإنه يبسط يده فى ماله بحكم هواه وشهوته جزافا لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتفقت له. فالأول بمنزلة من بذر حبة فى الأرض تنبت وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرا ولا سفيها. والثانى بمنزلة من بذر حبة فى سباخ وغراز من الأرض، وإن أنفق بذره فى محل النبات بذر بذرا متراكما بعضه على بعض، فذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقى، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته، والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود فى العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده، أقل من قطرة فى بحار الدنيا وهى من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء وجوده لا يناقض حكمته ويضع عطاؤه مواضعه، وإن خفى على أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله، وأى المحال أولى به.

والفرق بين المهابة والكبر:

أن المهابة: أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة فحنت إليه الأفئدة وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور، إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر: فأثر من آثار العجب والبغى، من قلب امتلأ مثلاً بالجهل والظلم ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ فى الإنعام عليه لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقا، ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم لايزداد من الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا.

والفرق بين الصيانة والتكبر:

أن الصائن لنفسه: بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابة شيء من ذلك على غرة بادر على قلعه وإزالته ومحو أثره.

وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعا وآثارًا أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم، مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم.

بخلاف صاحب العلو: فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه، فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون.

والفرق بين الشجاعة والجرأة:

أن الشجاعة: من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنه متى ظن الظفر، وساعده الصبر، ثبت كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر.

وأصل الجبن: من سوء الظن ووسوسه النفس بالسوء، وهو ينشأ من الرية. فإذا ساء الظن ووسوسة النفس بالسوء انتفخت الرية، فزاحمت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرية له، وتضييقها عليه. ولهذا جاء في حديث عمرو بن العاص الذي رواه أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«شَرُّ مَا فِي الْمرءِ جُبنٌ خَالِعٌ، وَشحٌ هَالِعٌ»**[1].

---

(١) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في الجرأة والجبن (٢٥١١)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٠٢). من حديث أبي هريرة

فسمى الجبن خالعًا لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحر وهو الرية. كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر: انتفخ سحرك فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح فوضعت الأمور على غير مواضعها.

فالشجاعة: حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته، فإنها خدم له وجنود، كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده.

وأما الجرأة: فهى إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر فى العاقبة بل تقدم النفس فى غير موضع الإقدام يعرضها عن ملاحظة العارض، فإما عليها وإما لها.

وأما الفرق بين الحزم والجبن:

فالحازم: هو الذى قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه. ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع، ومنه حزمة الحطب.

فحازم الرأى هو الذى اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين، فأحجم فى موضع الإحجام رأيا وعقلا لاجبنًا وضعفا.

العاجزُ الرأى مضياعٌ لفرصته حتى إذَا فَاتَ أمرٌ عَاتبَ القدرا

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح:

أن الاقتصاد: خلق محمود يتولد من خلقين: عدل وحكمة، فالعدل يعتدل فى المنع والبذل. والحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذى يليق به فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[الإسراء :٢٩] .

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[الفرقان :٦٧] .

وقال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا**﴾[الأعراف :٣١] .

وأما الشح: فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعا والهلع شدة الحرص على السيىء، والشره به، فيتولد عنه المنع لبذله، والجزع لفقده. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾[المعارج :١٩-٢١].

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن:

أن المحترز، بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافرا فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التى بها ينجو من المكروه، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذى قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته، فهمه فى تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به، كلما ساء به الظن أخذ فى أنواع العدة والتأهب.

وأما سوء الظن: فهو امتلاءقلبه بالظنون السيئة بالناس، حتى يطفح على لسانه وجوارحه فهم معه أبدا فى الهمز واللمز، والطعن والعيب، والبغض، يبغضهم ويبغضونه، ويلعنهم ويلعنونه، ويحذرهم ويحذرون منه.

فالأول: يخالطهم ويحترز منهم.

والثانى: يتجنبهم ويلحقه أذاهم.

الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز.

والثانى خارج منهم مع الغش والدغل والبغض.

والفرق بين الفراسة والظن:

أن الظن: يخطئ ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعضه إثم.

وأما الفراسة: فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾[الحجر :٧٥].

قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره: أى للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[البقرة:٢٧٣] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[محمد :٣٠].

فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس، وقرب من اللـه، فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه.

وفى الترمذى وغيره:

من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«اتقُوا فراسةَ المؤمنِ فإنهُ ينظرُ بنورِ اللَّهِ»**[1].

وهذه الفراسة نشأت لـه مـن قربـة مـن اللـه، فـإن القلـب إذا قـرب مـن اللـه انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقيه مـن مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه، فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيما يرويه عن ربه عز وجل أنـه قـال: **«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فبى يسمعُ وبى يبطشُ وبى يمشي»**[2] . فأخبر سبحانه تقرب عبده منه يفيـده محبتـه له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله، فسمع به وأبصـر بـه وبطـش بـه، ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليـه، فلا تكاد تخطىء له فراسـة فـإن العبـد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على مـاهو عليـه،

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذى، كتـاب: تفسير القرآن، بـاب: ومـن سـورة الحجـر (٣١٢٧)، وقال: غريب.

(٢) الحديث: أخبره البخارى، كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢). من حديث أبى هريرة ﷺ.

فإذا سمع بالله سمعه على ماهو عليه. وليس هذا من علم الغيب؛ بل علام الغيوب قذف الحق فى القلب قريب مستبشر بنوره غيرمشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس، والتى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان، وبادر من القلب إلى العين، فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يرى أصحابه فى الصلاة وهو خلفه كما يراهم أمامه.

ولرأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة.

ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق.

ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة.

ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة، فخرج إلى المصلى فصلى عليه.

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين، وهم يقاتلون عدوهم فناداه : ياسارية الجبلَ.

ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى فصعد فيه البصر وصوبه وقال أيهم هذا؟

قالوا: مالك بن الحارث.

فقال: ماله قاتله الله إنى لأرى للمسلمين منه يومًا عصيبًا،ودخل عمرو بن عبيد على الحسن.

فقال: هذا سيد الفتيان إن لم يحدث.

وقيل: إن الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام. فدخل رجال.

فقال محمد: أتفرس إنه نجار.

فقال الشافعى: أتفرس إنه حداد، فسألاه.

فقال: كنت حدادًا وأنا اليوم أنجر.

ودخل أبو الحسن البوشنجى والحسن الحداد على أبى القاسم المناوى يعودان، فاشتريا فى طريقهما بنصف درهم تفاحا نسيئة، فلما دخلا عليه.

قال: ما هذه الظلمة، فخرجا.

وقالا: ما علمنا لعل هذا من قبل ثمن التفاح، فأعطينا الثمن، ثم عادا إليه ووقع بصره.

فقال: يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة، أخبراني عن شأنكما فأخبراه بالقصة.

فقال: نعم كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن، والرجل مستح منكما في التقاضي.

وكان بين أبي زكريا النخشبي وبين امرأة سبب قبل توبته، فكان يومًا واقفًا على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها فرفع أبو عثمان إليه رأسه.

وقال: ألا تستحي؟

وكان شاه الكرماني جيد الفراسة لاتخطى فراسته.

وكان يقول: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد.

فقال: إيش هذا الذي ذكر لي عنك ؟

فقال له: أعتقد شيئًا.

فقال له الجنيد: اعتقدت.

فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا.

فقال الجنيد: لا ، فاعتقد ثانيًا.

قال: اعتقدت.

فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا.

فقال الجنيد: لا.

قال: فاعتقد ثالثا.

قال: اعتقدت.

قال الشاب: هو كذا وكذا.

قال: لا.

فقال الشاب: هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى.

فقال الجنيد: صدقت فى الأولى والثانية والثالثة، لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئًا.

فقلت فى نفسى: مثل هذا كل على الناس، فنظر إلى.

وقال: اعلموا أن الله يعلم ما فى ما أنفسكم فاحذروه.

قال: فاستغفرت فى سرى، فنادانى.

وقال: وهو الذى يقبل التوبة عن عباده.

وقال إبراهيم الخواص: كنت فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن الحرمة.

فقلت لأصحابنا: يقع لى أنه يهودى، فكلهم كره ذلك. فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم.

فقال: إيش قال الشيخ فى؟ فاحتشموه، فألح عليهم.

فقالوا: قال إنك يهودى، فجاء فأكب على يدى فأسلم.

فقلت: ما السبب؟

فقال: نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطىء فراسته.

فقلت: امتحن المسلمين فتأملتهم.

فقلت: إن كان فيهم صديق.

ففى هذه الطائفة فَلَبَّست عليكم، فلما اطلع هذا الشيخ علىَّ وتفرسنى علمت أنه صديق.

وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة، وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل محاسنها.

فقال له عثمان: يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه.

فقلت: أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآله وسلم؟

فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

فهذا شأن الفراسة وهي نور يقذفه الله في القلب، فيحظر له الشيء فيكون كما له خطر له، وينفذ إلى العين فترى ما لايراه غيرها.

والفرق بين النصيحة والغيبة:

أن النصيحة: يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد، فتذكر مافيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به، كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لفاطمة بنت قيس، وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم فقال[1]: «**أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**» .

وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه[2]: «**إذا هبطت بلاد قومه فاحذره**».

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين، فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه، لتضع منزلته من قلوب الناس، فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب.

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها (١٤٨٠)، والترمذي، كتاب: النكاح، باب: ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه (١١٣٥). من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٢) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الحذر من الناس (٤٨٦١)، وأحمد في مسنده (٥/٢٨٩)، من حديث عمرو بن الفغواء رضي الله عنه.

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة والقصد:

فإن الراشي: قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل.

فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشي وحده باللعنة.

وأما المهدى: فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان، فإن قصد المكافأة فهو معاوض، وإن قصد الربح فهو مستكثر.

والفرق بين الصبر والقسوة:

أن الصبر: خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوارح، عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة: فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة:

قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة. وقلب مائع رقيق جدا. فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر.

والثاني: بمنزلة الماء وكلاهما ناقص.

وأصح القلوب: القلب الرقيق، الصافي الصلب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وفي الأثر: القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها، وهذا القلب الزجاجي فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة.

وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[الزمر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾[البقرة:٧٤].

وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٣].

فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال هذا بمرضه وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذى ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته، فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الحج:٥٤].

والفرق بين العفو والذل:

أن العفو: إسقاط حقك جودا وكرما وإحسانا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة فى الاحسان ومكارم الأخلاق. وبخلاف الذل، فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[الشورى:٣٩]. فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها، ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح.

فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[الشورى:٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه، والظلم وحرّمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار، وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هـذه الآيـة: كـانوا يكرهـون أن يستذلوا فـإذا قـدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجـز ومهانـة، وهـذا هـو الكمـال الـذى مـدح سبحانه بـه نفسـه فـى قولـه: ﴿فَـإِنَّ اللَّـهَ كَـانَ عَفُـوًّا قَدِيرًا﴾[النساء:١٤٩]. والله غفور رحيم.

وفى أثر معروف:

«حملةُ العرشِ أربعـةٌ: إثنـان يقـولان سـبحانكَ اللهـمَّ ربنـا وبحمـدك لـكَ الحمدُ علَى حلْمِكَ بعدَ علمكَ، واثنانِ يقولان: سبحانكَ اللهمَّ ربنا وبحمدِك لكَ الحمدُ على عفوكَ بعد قدرتك» .

ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨]. أى إن غفرت لهم عن عـزة وهى كمال القدرة، وحكمة وهى كمال العلم فغفرت بعد أن علمت مـا عملـوا وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهلـه بحقيقـة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهابـة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزا ولا انتقـم أحـدا لنفسـه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو؛ ولهذا ما انتقم رسول اللـه صلـى اللـه عليه وسلم لنفسه قـط، وتـأمل قولـه سبحانه: ﴿هُـمْ يَنْتَصِـرُونَ﴾[الشورى:٣٩]. كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصريـن لأنفسـهم لا أن غيرهم هو الذى ينصرهم، ولما كـان الانتصـار لا تقـف النفـوس فيـه علـى حـد العدل غالبًا، بل لابد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحـرم الزيادة وندب إلى العفو.

والمقصود: أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الأمـارة. ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء.

فالانتصار: أن ينتصر لحق الله ومن أجله ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه، فإنه حينئذ ينال حظا من العز الذى قسم الله للمؤمنين،

فإذا بغى عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه بـه غيرة على ذلك العز، أن يستضام ويقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل

فهو يقول للباغى عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد.

وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغى تشفيا فيه وإذلالاً له.

وأما النفس المطمئنة التى خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها، فإذا نالها البغى قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذى أعزها الله به ونالته منه، وهو فى الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثل بعبدين من عبيد الغلة حراثين، ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب نصحا منه لسيده، وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافى على عفوه ووقع منه بموقع.

وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته، كأنه يقول إنما فعل هذا بك جرأة على واستخفافا بسلطانى، فإذا أمكنه من عقوبته، فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به، فذل وانكسر قلبه فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظة، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه، كما روى عن على ﷺ أنه مر برجل فاستغاث به.

وقال: هذا منعنى حقى، ولم يعطنى إياه.

فقال: أعطه حقه. فلما جاوزهما لج الظالم ولطلم صاحب الحق، فاستغاث بعلى فرجع.

وقال: أتاك الغوث.

فقال له: استقد منه.

فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين فضربه عليّ تسع درر.

وقال: قد عفا عنك من لطمته.

وهذا حق السلطان. فعاقبه عليٌّ لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذى جاء إلى أبى بكر رضى الله عنه.

فقال: احملنى فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك -وعنده المغيرة بن شعبة- فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل. فسال الدم فجاء قومه إلى أبى بكر رضى الله عنه.

فقالوا: أقدنا من المغيرة.

فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله لا أقيدكم منه.

فرأى أبو بكر أن ذلك انتصار من المغيرة وحمية لله وللعز الذى أعز به خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه. فترك قوده لاجترائه على الله وسلطانه الذى أعز به رسوله ودينه وخليفته.

فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون.

إن سلامة القلب: تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته، والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفا بتفاصيل الشر سليما من إرادته.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: لست بخب ولا يخدعنى الخب.

وكان عمر أعقل من أن يخدع وأورع من أن يخدع، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[الشعراء:٨٨،٨٩]. فهذا هو السليم من الآفات التى تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التى توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التى توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذى سلم من هذا وهذا.

والفرق بين الثقة والغرة:

أن الثقة: سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها، فكلما قويت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت، ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة، واللفظة كأنها والله أعلم من الوثاق وهو الرباط.

فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلا عليه وحسن ظن به، فصار فى وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو فى وثاقه بقلبه وروحه وبدنه، فإذا سار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار فى وثاق العبودية، فلم يبق له مفزع فى النوائب ولا ملجأ غيره، ويصير عدته فى شدته، وذخيرته فى نوائبه، وملجأه فى نوازله، ومستعانه فى حوائجه وضروراته.

وأما الغرة: فهى حال المغتر الذى غرته نفسه وشيطانه وهواه، وأمله الخائب الكاذب بربه حتى أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى.

والغرور ثقتك بمن لا يوثق به، وسكونك إلى من لا يسكن إليه، ورجاؤك النفع من المحل الذى لا يأتى بخير.

كحال المغتر بالسراب قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[النور:٣٩].

وقال تعالى فى وصف المغترين: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[الكهف:١٠٣،١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شىء، وبدا لهم مالم يكونوا يحتسبون.

وفى أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به.

وشاهد هذا فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ**

﴿مُبْلِسُونَ﴾[الأنعام:٤٤]. وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور وطبع النفس الأمارة الاغترار فإذا اجتمع الرأى والبغى والرأى المحتاج، والشيطان الغرور والنفس المغترة، لم يقع هناك خلاف.

فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه فى عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة، لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿**وَغَرَّتْكُمْ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾[الحديد:١٤].

وقال تعالى ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾[فاطر:٥].

وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال هذا لى أى أنا أهله، وجدير به ومستحق له، ثم قال: وما أظن الساعة قائمة.

فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد فى غروره فقال: ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى: يعنى الجنة والكرامة.

فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى فى آبار الهلاك.

والفرق بين الرجاء والتمنى:

أن الرجاء: يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة فى الإتيان بأسباب الظفر والفوز.

والتمنى: حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ**﴾[البقرة:٢١٨]:

فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته.

وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتــلأ قلبـه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه مــا وعـده الله تعـالى مـن كرامتـه وجنته، فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقًا إليه، وحرصًـا عليـه فهـو شـبيه بالمـاد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه.

وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظـه منهـا، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها، فمثله مثله رجل خطب امرأة كريمة في منصب وشرف إلى أهلها، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر، وإتيان الرجل إلى الحضور، أعلم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور، فتراه المرأة وأكابر النـاس فـأخذ فـي التـأهب والـتزين والتجمـل فـأخذ مـن فضـول شـعره، وتنظف وتطيب، ولبس أجمل ثيابه، وأتى إلى تلك الدار متقيًـا فـي طريقـه كـل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخـان، ومـا هـو دون ذلـك، فلما وصل إلى الباب رحـب بـه ربهـا ومكـن لـه فـي صـدر الـدار على الفرش والوسائد، ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية، فلو أنه ذهب بعد أخـذ هذه الزينة فجلس في المزابل وتمـرغ عليهـا وتمعـك[1] بهـا، وتلطـخ فـي بدنـه وثيابه بما عليها من عذرة وقذر، ودخل ذلك في شعره وبشره وثيابه فجاء علـى تلك الحال إلى تلك الدار، وقصد دخولها للوعد الذي سبق له، فقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه، والإبعاد له مـن بابهـا، وطريقهـا فرجع متحيرًا خاسئا فالأول حال الراجي، وهذا حال المتمني.

وإن شئت مثلت حال الرجلين بملـك هـو مـن أغـير النـاس وأعظمهـم أمانـة وأحسنهم معاملة، لا يضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد، وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه، ظاهر بارز فـي داره للمعـاملين، فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة، لم يجرب

---

(١) تمعك: تمرغ، انظر: القاموس المحيط، مادة: [معك].

عليه غشًا ولا خيانة ولا مكرًا، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه، ما يجب أن يعتمد معهم، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه، وإن صنعها بيده بذل جهده فى تحسينها وتنميقها، وجعل ما خفى منها أحسن مما ظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه، وامتثل ما أمره به السفير وبينه فى مقدار ما يعمله صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شئونه.

وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش، ولا نصح فيها ولا اعتمد فى أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار، بل كان يعملها على ما يهواه هو ومع ذلك فكان يخون الملك فى داره، إذ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانه، ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها، وحرص على إفسادها، ولا شيئا يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه، فمضيا على ذلك مدة.

ثم قيل: إن الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه.

فتأمل هذين المثلين فإن الواقع مطابق لهما، فالراجى على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينه ورجاؤه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها، فإن الرجاء هو امتداد القلب وميله وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر، وأصله من التنحى ورجا البئر ناحيته وأرجاء السماء نواحيها وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعًا عما يقطعه عنه، هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه، وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة.

فإن القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة، وما أعد الله فيها لأهل طاعته، وأهل معصيته خاف وخف مرتحلاً إلى الله والدار الآخرة، وكان قبل ذلك مطمئنا إلى النفس، والنفس إلى الشهوات والدنيا، فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها، طالبًا جوار العزيز الرحيم فى جنات النعيم.

ومن هاهنا صار كل خائف راجيًا وكل راج خائفًا، فأطلق اسم أحدهما على الآخر، فإن الراجى قلبه قريب الصفة من قلب الخائف.

هذا الراجى قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلاً إلى اللـه، قـد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله مادًا إليه قلبه كلـه، وهـذا الخـائف فـار مـن جوارهما ملتجىء إلى الله من حبسه فى سجنهما فى الدنيا فيحبـس معهمـا بعـد الموت ويوم القيامة.

فإن المرء مع قرينه فى الدنيا والآخرة، فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جـار السوء فى الدارين، فأعطى اسم الخائف. ولما سمع الوعد امتد واستطار شـوقا إليـه وفرحا بالظفر به، فأعطى اسم الراجى، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما.

فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما كل خائف راج أمنه مما يخاف، فلذلـك تـداول الاسـمان عليـه. قـال تعـالى: ﴿**مَـا لَكُـمْ لا تَرْجُـونَ لِلَّـهِ وَقَارًا**﴾[نوح:١٣].

قالوا فى تفسيرها: لا تخافون لله عظمة.

وقد تقدم أن الله سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا.

وقد فسر النبى صلى الله عليـه وآلـه وسلم الإيمان بأنـه ذو شعب وأعمـال ظاهرة وباطنة، وفسر الهجرة بأنها هجرة ما نهى الله عنه والمجـاهد مـن جـاهد نفسه فى ذات الله فقال[1]: «**المهاجرُ من هجرَ ما نهَى اللهُ عنه والمجاهدُ مـن جاهَدَ نفسَهُ فى ذَاتِ اللهِ**».

وأما الأمانى: فإنها رءوس أموال المفاليس[2]، أخرجوهـا فـى قـالب الرجـاء، وتلك أمانيهم، وهى تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفـس، فـأظلم مـن

---

(١) الحديث: أخرجه شطره الأول أحمد فى مسنده (١٦٣/٢)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وأخرج شطره الثانى الترمذى، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء فـى فضـل مـن مـات مرابطًا (١٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمـد فـى مسنده (٢٢/٦) مـن حديث فضالة بن عبيد رضى الله عنه.

(٢) المفاليس: جمع مفردها: مفلس، يقال أفلس الرجـل: إذا لـم يبـق لـه مـال ومعنـاه صـارت دراهمه فلوسًا، انظر: النهاية فى غريب الحديث. مادة [فلس].

دخانها، فهو يستعمل قلبه فى شهواتها، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفى حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمى ذلك رجاء، وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها.

قال تعالى: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءًا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا**﴾[النساء:١٢٣].

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته، ولم يجد له من دون الله وليا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصار وليين له، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلا من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعا.

فإذا قالت لك النفس: أنا فى مقام الرجاء. فطالبها بالبرهان.

وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر، ويتكل على الأماني التى يسميها رجاء. والله الموفق.

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها:

أن المتحدث بالنعمة: مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه فيكون، راغبًا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم: فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخًا وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله، والكبر على عباد الله، والفخر بعطية الله، والهون فى غير ذات الله.

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر:

فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب: قال تعالى: ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك**﴾[الرعد:٣٦].

فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحى فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به.

وقال تعالى: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون**﴾[التوبة:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**﴾[يونس:٥٨].

قال أبو سعيد الخدرى: فضل الله؛ القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته الإسلام الذى هداكم إليه، والقرآن الذى علمكم، هو خير من الذهب والفضة الذى تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن، فهذا فرح القلب وهو الإيمان ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدل على رضاه به، بل هو فرق الرضاء، فالفرح بذلك على قدر محبته، فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له.

فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر فى القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه بل هو أجل عطاياه. والفرح فى الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته فى الدنيا فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة فى الدنيا. فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر وهو فرحه بما مَنَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به، وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة.

فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية، وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر.

ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا ليس فى أنواع الفرح فى الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى سفر ففقدها فى أرض دوية مهلكة، فاجتهد فى طلبها فلم يجدها، فيئس منها فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى فى ضوئه راحلته، وقد تعلق زمامها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدى وأنا ربك.

أخطأ من شدة الفرح، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته.

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن، لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشىء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران، ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب، فالحكم لله العلى الكبير.

وها هنا فرحة أعظم من هذا كله، وهى فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجى أيتها الروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب، أبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجى راضية مرضيا عنك يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى.

فلو لم يكن بين يدى التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه، ومنها فتح أبواب السماء لها، وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية، فتفتح، ويصلى عليها أهلها، ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة، فكيف يقدر فرحها، وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها، فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود

فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه فى عليين، ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها، وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به، ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال، ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجسام بجلوسه فى ظل العرش، وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه وثقل ميزانه، وبياض وجهه وإعطائه النور التام والناس فى الظلمة، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلى باب الجنة، وقد أزلفت له فى الموقف، وتلقى خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة، وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه.

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم:

وليست هذه الفرحات إلا	لذى الترحات فى دار الرزايا
فشمرْ ما استطعتَ الساق واجهدْ	لعلكَ أن تفوزَ بذى العطايا
وصمْ عنْ لذةٍ حشيتْ بلاءً	للذاتِ خلصنَ منَ البلايا
ودعْ أمنيةً إنْ لم تنلْها	تعذبْ أو تنل كانت منايا
ولا تستبط وعدًا من رسول	أتى بالحق من رب البرايا
فهذا الوعدُ أدنىَ منْ نعيم	مضى بالأمس لو وفقتَ رايا

والفرق بين رقة القلب والجزع:

أن الجزع: ضعف فى النفس وخوف فى القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد، كان الجزع عناءً محضًا، ومصيبة ثانية قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[الحديد: ٢٢، ٢٣].

فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب، لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافى هذا رقة القلب، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال الله سبحانه، إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرق الناس قلبًا وأبعدهم من الجزع.

فرقة القلب: رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه، وضيق عليه مسالك الآخرة، وصار فى سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق، وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيمًا رقيق القلب بكل ذى قربى، ومسلم يرحم النملة فى جحرها، والطير فى وكره، فضلا عن بنى جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله.

قال أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] **«أرحمُ الناسِ بالعيال»** .

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن فى قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة.

وفى الحديث الثابت: **«لا تنزعُ الرحمةَ إلاَّ من شقيٍ»**[2].

وفيه **«مَنْ لا يرحمُ لايرُحمُ»**[3] .

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٢٣١٦)، بلفظ: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»، وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٦٨٢٠) لابن عساكر بنحو المذكور أعلاه.

(٢) الحديث: أخرجه الترمذى، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء فى رحمة المسلمين (١٩٢٣)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: فى الرحمة (٤٩٤٢). من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الأدب، باب: من ترك صبية غيره حتى تلعب به (٥٩٩٧)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٢٣١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وفيه «ارحمـوُا مَـنْ فـى الأرضِ يَرحمْكـم مَـنْ فـى السـماءِ»[1] رواه أحمـد والحاكم.

وفيه «أهلُ الجنةِ ثلاثةُ: ذو سـلطان مقسـطٍ متصـدق، ورجـلٌ رحيـمٌ رقيـقُ القلبِ بكلِ ذى قُربَى ومسلم، وعَفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ»[2].

والصديق رضى الله عنه إنما فضل الأمة بما كان فى قلبه مـن الرحمـة العامـة زيادة على الصديقية، ولهذا أظهر أثرها فى جميع مقاماته حتى فى الأسارى يـوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له، صلى الله عليه وآله وسـلم، مثـلا بعيسى وإبراهيم. والرب سبحانه وتعالى هو الرءوف الرحيم، وأقرب الخلق إليـه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاتـه. وهـذا بـاب لا يلجه إلا الأفراد فى العالم.

والفرق بين الموجدة والحقد:

أن الوجد: الإحساس بالمؤلم، والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال.

وأما الحقد: فهو إضمار الشر وتوقعه كـل وقـت، فمـن وجـدت عليـه فـلا يزايل[3] القلب أثره.

وفرق آخـر: وهـو أن الموجـدة لمـا ينـالك منـه، والحقـد لمـا ينالـه منـك، فالموجدة وجود ما نالك من أذاه، والحقد توقع وجـود مـا ينالـه مـن المقابلـة، فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطىء الزوال، والحقد يجىء مع ضيـق القلـب، واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه، بخـلاف الموجـدة فإنهـا تكـون مـع قوتـه وصلابته وقوة نوره وإحساسه.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى (٢/١٦١)، والترمذى، كتاب: البر والصلة، بـاب: مـا جـاء فـى رحمة المسلمين (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى اللـه عنهمـا. قـال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التى يُعرف بهـا فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥). من حديث عياض بن حمار المجاشعى.

(٣) يزايل: زايله، فارقه -قال تعالى ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]، انظر القاموس، مادة: [زيل].

والفرق بين المنافسة والحسد:

أن المنافسة: المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك، فتنافسه فيه، حتى تلحقه أو تجاوزه، فهى من شرف النفس وعلو الهمة، وكبر القدر.

قال تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[المطففين:٢٦].

وأصلها من الشيء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلبا ورغبة، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه.

كما كان أصحاب رسول الله صلى الله علية وآله وسلم يتنافسون فى الخير، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضا علية مع تنافسهم فيه، وهى نوع من المسابقة وقد قال تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[البقرة:١٤٨]. وقال تعالى ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[الحديد:٢١].

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضى الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبدا، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة.

قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

وقال: والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقنى إليه.

والمتنافسان كعبدين بين يدى سيدهما يتباريان ويتنافسان فى مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما، ويحثهما عليه، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد: خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة، ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، ويتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها فى العدم، كما قال تعالى ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾[النساء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ**﴾[البقرة:١٠٩].

فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره، أن يعلو عليه ويحب لحاقه به، أو مجاوزته له فى الفضل.

والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرا، فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه، وهذا لا نذمه.

وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة، كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم[1]: **«لا حسدَ إلا فى اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ بهِ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلطَهُ على هلكتهِ فى الحقِ»** أخرجه الشيخان والترمذى.

فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله:

هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعى فى حظها.

فإن الناصح لله المعظم له المحب به، يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هى العليا وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد ناصح الله فى عبوديته وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة فى الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدى به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبد الداعى إلى الله أن يكون فى أعينهم جليلا وفى قلوبهم مهيبا وإليهم حبيبا، وأن يكون فيهم مطاعا

(١) الحديث: أخرجه البخارى،كتاب: العلم، باب: الاغتباط فى العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن (٨١٦). من حديث ابن مسعود .

لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده، لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلاً إليه، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم.

ثم قال: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾[الفرقان:٧٤].

فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته.

فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين.

كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[السجدة:٢٤].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة، لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية، بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين، كان جزاؤه عليها الغرفة في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد

والظلم والفتنة والحمية للنفس، دون حق الله وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد.

والرؤساء فى عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا فى صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم، وتحقيرًا وتصغيرًا كما صغروا أمر الله وحقروا عباده.

والفرق بين الحب فى الله والحب مع الله:

وهذا من أهم الفروق، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا.

فالحب فى الله: هو من كمال الإيمان.

والحب مع الله: هو عين الشرك.

والفرق بينهما أن المحب فى الحب تابع لمحبة الله، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه، كان ذلك الحب له، وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه، لكونه تعالى يحبهم ويبغض من يبغضهم؛ لا لكونه تعالى يبغضهم.

وعلامة هذا الحب والبغض فى الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حبا لإحسانه إليه، وخدمته له، وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضا إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه، ويؤلمه إما خطأ وإما عمدًا، مطيعًا لله فيه أو متأولاً أو مجتهدًا أو باغيًا نازعًا بائنًا.

والدين كله يدور على أربع قواعد: حب وبغض، ويترتب عليهما فعل وترك، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله، فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا فعل فعل لله، وإذا ترك ترك الله، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه.

وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان: نوع يقدح فى أصل التوحيد، وهو شرك.

ونوع يقدح فى كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام.

فالأول: كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله، كما يحبون الله. فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هى محض الشرك الذى لا يغفره الله، ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها، ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه، وفى مرضاته.

فكل من عبد شيئا من لدن عرشه إلى إقرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلها ووليا وأشرك به كائنا ذلك المعبود ما كان، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

والنوع الثانى: محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء فهذه المحبة ثلاثة أنواع، فإن أحبها لله توصلا بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته، أثيب عليها، وكانت من قسم الحب لله توصلا بها إليه، ويلتذ بالتمتع بها، وهذا حال أكمل الخلق الذى حبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكانت محبته لهما عونًا له على محبة الله، وتبليغ رسالته والقيام بأمره.

وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه؛ بل نالها بحكم الميل الطبيعى كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه.

وإن كانت هى مقصوده ومراده وسعيه فى تحصيلها أو الظفر بها، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالما لنفسه متبعًا لهواه.

فالأولى: محبة السابقين.

والثانية: محبة المقتصدين.

والثالثة: محبة الظالمين. فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق، فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة، والمهدى من هداه الله.

والفرق بين التوكل والعجز:

أن التوكل: عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله وثقة به والتجاء إليه، وتفويضًا إليه، ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه، وحسن اختياره لعبده، إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أعظم المتوكلين، وكان يلبس لأمته درعه؛ بل ظهر يوم أُحُد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثًا، فكان متوكلاً في السبب لا على السبب.

وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ، فإما أن يعطل السبب عجزًا منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلاً عن المسبب معرضا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقا تاما، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب.

فهذا توكله عجز، وعجزه توكل، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا.

فأحد الطرفين: عطل الأسباب محافظة على التوكل.

والثاني: عطل التوكل محافظة على السبب.

والوسط: علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب.

وأما من عطل السبب، وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمنٍ، كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد وعطل الحرث والبذر، وتوكل فى حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والري.

فالتوكل نظير الرجاء والعجز نظير التمنى.

فحقيقة التوكل: أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال، ووكل له أن يستخرج له من

حليته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك، كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه الولى بالوكالة الوفى بالكفالة، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان طالبًا للراحة، مؤثرا للدعة.

يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى، ولن أنال مالم يقدر لى مع قوتى، ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى.

فيقال له: نعم، هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعى غيرك، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه، وإذا خفى عليك هذا كله، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعى ولا كد؟

فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقا، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك.

وأيضا فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع مسبباتها، حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل يعطلها اعتمادًا على التوكل، أم يقوم بها مع التوكل.

بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه، فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك، أو من كماله فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر.

ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب، واشتغل به عن ربه،

حليته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك، كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه الولى بالوكالة الوفى بالكفالة، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان طالبًا للراحة، مؤثرا للدعة.

يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى، ولن أنال مالم يقدر لى مع قوتى، ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى.

فيقال له: نعم، هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعى غيرك، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه، وإذا خفى عليك هذا كله ، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعى ولا كد؟

فكم من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شىء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقا، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك.

وأيضا فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع مسبباتها، حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل يعطلها اعتمادًا على التوكل، أم يقوم بها مع التوكل.

بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه، فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك، أو من كماله فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر.

ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب، واشتغل به عن ربه،

وما أثمر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أن ما أورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر ؛ فهو من الملك.

وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك.

وما أورث قلقًا أو انزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكي: يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله؛ فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة؛ فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلبًا يناسبه؛ فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان.

وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات، فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك.

والفرق بين الاقتصاد والتقصير:

أن الاقتصاد: هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له تقصير ومجاوزة ، فالمقتصد قد أخذ بالوسط، وعدل عن الطرفين.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[الفرقان:٦٧].

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾[الإسراء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا**﴾[الأعراف:٣١].

والدين كله بين هذين الطرفين؛ بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع ودين الله، بين الغالي فيه والجافي عنه.

وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه، وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من

مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بنى آدم، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير، وخوفوا من بلى بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان فى الشخص الواحد، كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصرًا مفرطا فى بعض دينه، غاليا متجاوزًا فى بعضه، والمهدى من هداه الله.

والفرق بين النصيحة والتأنيب:

إن النصيحة: إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له، وعليه فهو إحسان محض يصدز عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه، والإحسان إلى خلقه، فيتلطف فى بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضا وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح.

وأما المؤنب: فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقا للذم والإهانة فى صورة ناصح مشفق، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا. ويطلب له وجوه المعاذير.

فإن غلب قال: وإنى ضمنت له العصمة، والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه، والله غفور رحيم. ونحو ذلك.

فيا عجبا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه؛ وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب فى صورة النصح، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير؟

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته، وقال: قد وقع أجرى على الله قبلت أو لم تقبل. ويدعو لك بظهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا بينها فى الناس، والمؤنب بضد ذلك.

والفرق بين المبادرة والعجلة:

إن المبادرة: انتهاز الفرصة فى وقتها ولا يتركها، حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور فى أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة، وقت كمال نضجها وإدراكها.

والعجلةُ: طلب أخذ الشىء قبل وقته، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها.

فالمبادرة: وسط بين خلقين مذمومين: أحدهما التفريط والإضاعة.

والثانى الاستعجال قبل الوقت: ولهذا كانت العجلة من الشيطان، فإنها خفة وطيش وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء فى غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشرور، وتمنعه أنواعًا من الخير، وهى قرين الندامة ، فقل من استعجل إلا ندم، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة.

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى، وإن اشتبهت صورتهما:

إن الإخبار بالحال: يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع فى مثل ما وقع فيه فيكون ناصحًا بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسى به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى .

فقال: يا ابن أخى، لقد ذهب ضوء عينى من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحدًا.

ففى ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكى على التأسى والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما.

ولعل من هذا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم، لما قالت عائشة : وا رأساه.

فقال: **«بل أنا وا رأساه»**[1] أي الوجع القوى بى أنا دونك ، فتأسى بى فلا تشتكى. ويلوح لى فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذى بها، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه، يتألم بتألمه، ويُسرُّ بسروره، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة.

فالمعنى الأول: يفهم أنك لا تشتكى واصبرى فبى من الوجع مثل ما بك فتأسى بى فى الصبر وعدم الشكوى.

والمعنى الثانى: يفهم إعلامها بصدق محبته لها. أى انظرى قوة محبتى لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك، فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمنى ما يؤلمك، كما يسرنى ما يسرك.

كما قيل:

وإنَّ أولى البرايا أن تواسيه عند   السرور الذى واساكَ فى الحزن

وأما الشكوى: فالإخبار العارى عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره، فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له كقولة أيوب ﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[الأنبياء:٨٣].

وقول يعقوب: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾[يوسف:٨٦].

وقول موسى: **«اللهمَّ لَكَ الحمدُ وإليكَ المُشتَكَى وأنتَ المستعانُ وبكَ المستغاثُ وعَلَيْكَ التُّكلاَنُ ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بِكَ»**.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: المرضى، باب: ما رُخِّص للمريض أن يقول إنى وجع، وا رأساه (٥٦٦٦). من حديث عائشة رضى الله عنها.

وقول سيد ولد آدم: «**اللهمَّ إليكَ أشكُو ضَعفَ قُوتِى وقِلَـةَ حِيلَتِى، وهَوانِى عَلَى النـاسِ أنـتَ رَبُّ المستَضْعَفِينَ وأنـتَ ربِّى . إلى مَنْ تكلنى؟ إلى بَعيــدٍ يتجهَّمنى، أو إلى عَدو ملَّكتَهُ أمرِى، إن لم يكنْ بكَ غَضَبٌ علىَّ فلا أُبَـالِى، غَيرَ أنَّ عَافِيَتَكَ أوسعُ لى. أعوذُ بنُورِ وجهكَ الذى أشرَقَتْ لَهُ الظلماتُ وصَلُحَ عَليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ أن يحلَ علىَّ غَضَبُكَ، أو ينزلَ بى سَخطكَ، لك العُتبـى حتى تَرضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ**» رواه الطبرانى، عن عبد الله بن جعفر.

فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافى الصبر بوجه فإن الله تعالى قال عن أيوب: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[ص:٤٤]. مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله «**مسنى الضر**» وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبى إذا قال وفى مع قوله «**إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله**» ولم يجعل ذلك نقصا لصبره، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم.

كما قال بعضهم: لما قال: مسنى الضر، قال تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا**﴾[ص:٤٤]. ولم يقل صبورًا حيث قال: مسنى الضر.

وقال بعضهم: لم يقل: ارحمنى.

وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله، ووصف ربه.

وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر، حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم.

وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكان هذا القائل رأى الشكوى إلى الله تنافى الصبر، وغلط أقبح الغلط، فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى إليه ، فالله يبتلى عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه، وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم.

وهذا باب من الفروق مطول، ولعل إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتابًا كبيرًا، وإنما نبهنا بما ذكرنا على أصوله، واللبيب يكتفي ببعض ذلك، والدين كله فرق، وكتاب الله فرقان، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فرق بين الناس، ومن اتقى الله جعل له فرقانا ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]. وسمى يوم بدر يوم الفرقان، لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه.

فالهدى كله فرقان والضلال أصله الجمع، كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان ومحبته ومحبة الأوثان، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قدره وقضاه، فجعلوا الأمر واحدًا واستدلوا بقضائه وقدره على محبته ورضاه. وجمعوا بين الربا والبيع.

فقالوا: إنما البيع مثل الربا، وجمعوا بين المذكى والميتة.

وقالوا: كيف نأكل ما قتلناه ولا نأكل ما قتل الله. وجمع المنسلخون عن الشرائع بين الحلال والحرام.

فقالوا: هذه المرأة خلقها الله وهذه خلقها، وهذا الحيوان خلقه وهذا خلقه، فكيف يحل هذا ويحرم هذا، وجمعوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وجاءت طائفة الاتحادية فطموا الوادي على القرى وجمعوا الكل في ذات واحدة.

وقالوا: هي الله الذي لا إله إلا هو، وقال صاحب فصوصهم وواضع نصوصهم، واعلم أن الأمر قرآنا لا فرقانا:

ما الأمرُ إلا نسقٌ واحدٌ ... ما فيه من مدحٍ ولا ذم
وإنما العادةُ قد خصصت ... والطبعُ والشارعُ بالحكم

والمقصود: أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان، فأعظم الناس فرقانا بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال، وإنما أتى أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، يرى في ضوئه حقائق الأمور، ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[النور:٤٠].

ولا تستطل هذا الفصل فلعله من أنفع فصول الكتاب والحاجة إليه شديدة، فإن رزقك الله فيه بصيرة خرجت منه إلى فرقان أعظم منه، وهو الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه أهل التعطيل، والفرق بين إثبات الصفات والعلو والتكليم حقيقة، وبين التشبيه والتمثيل، والفرق بين تجريد التوحيد العملى الإرادى وبين هضم أرباب المراتب مراتبهم التى أنزلهم الله إياها، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها، وعدم الالتفات إليها، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه، والاستعانة بفهمه، والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. والفرق بين الحال الإيمانى الرحمانى، والحال الشيطانى الكفرى، والحال النفسانى. والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع على كل واحد، والحكم المؤول الذى نهايته أن يكون جائز الاتباع عند الضرورة ولا درك على مخالفه.

الخاتمـــة



خاتمة

ونحن نختم الكتاب بإشارة لطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور، إذ كل فرق منها يستدعي بسطه كتابًا كبيرًا، فالفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين.

أن توحيد الرسل:

إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لا شريك له فلا يجعل له ندا في قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ، ولا لفظ ولا حلف، ولا نذر، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته، كما أنها معدومة في نفس الأمر لا وجود لها ألبتة، فلا يجعل لها وجودًا في قلبه ولا لسانه.

وأما توحيد المعطلين:

فنفي حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها، فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها، ولا حديثًا يصرح بشيء منها، ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفي حقيقتها، وجعلها اسمًا فارغًا لا معنى له، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجي. على أن من طرد تعطيله منهم علم أنه يلزمه في ما حرف إليه النص من المعنى نظير مافر منه سواء ، فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث في الحقيقة لزم في المعنى الذي حمل عليه النص وإن لا يلزم في هذا فهو أولى أن لا يلزم في الحقيقة، فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع، فهذا طرد لأصل التعطيل والفرق أقرب منه، ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه، ونفى عنه البعض الآخر. واللازم الباطل فيهما واحد، واللازم الحق لا يفرق بينهما. والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيدًا، وإنما هو إلحاد في أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها.

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة:

أن الرسل: نزهوه سبحانه عن النقائص والعيوب التى نزه نفسه عنها، وهى المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته، كالسنة والنوم والغفلة والموت واللغوب، والظلم وإرادته والتسمى به، والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه، وأن يترك عباده سدى هملاً، وأن يكون خلقهم عبثًا وأن يكون خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً لا لثواب ولا عقاب، ولا أمر ولا نهى، وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه، وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين، وأن يكون فى ملكه مالا يشاء ، وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، وأن يكون لغيره معه من الأمر شيء، وأن يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان. وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر اسمًا أو وصفًا أو فعلاً، بل أسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة. فهذا تنزيه الرسل لربهم.

وأما المعطلون: فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال، فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحدًا ونزهوه عن استوائه على عرشه، وأن ترفع إليه الأيدى، وأن يصعد إليه الكلم الطيب. وأن ينزل من عنده شيء أو تعرج إليه الملائكة والروح، وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عاليا عليها، ونزهوه أن يقبض السماوات بيده والأرض بيده الأخرى، وأن يمسك السماوات على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع. ونزهوه أن يكون له وجه، وأن يراه المؤمنون بأبصارهم فى الجنة، وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكًا، وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: من يستغفرنى فأغفر له، من يسألنى فأعطيه، فلا نزول عندهم ولا قول. ونزهوه أن يفعل شيئا لشيء، بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة؛ بل يشاء الشيء ويشاء عباده خلافه، فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب، ولا يشاء الشيء فيكون ما لا يشاء، ويشاء مالا يكون.

وسموا هذا عدلاً كما سمـــوا ذلك التنـزيه توحيدًا، ونزهوه عـن أن يحـب أو يحب، ونزهوه عن الرأفـة والرحمـة والغضـب والرضـا، ونزهـه آخـرون عـن السمع والبصر وآخرون عن العلم. ونزهه آخرون عن الوجود، فقالوا: الـذى فـر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل ، يلزمنـا فـى الوجـود فيجـب علينـا أن ننزهه عنه، فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين.

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل:

ما قاله الإمام أحمد، ومن وافقه من أئمة الهدى:

أن التشبيه والتمثيـل: أن تقـول: يـد كيـدى، أو سـمع كسـمعى، أو بصـر كبصرى، ونحو ذلك.

وأما إذا قلت: سمع وبصر ويد ووجـه واستواء لا يمـاثل شيئًا مـن صفـات المخلوقين؛ بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بيـن الموصـوف والموصـوف فأى تمثيل هاهنا، وأى تشبيه لولا تلبيس الملحدين، فمدار الحـق الـذى اتفقـت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفـه بـه رسـوله مـن غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل إثبات الصفات ونفى مشـابهة المخلوقات، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد حقائق ما وصف الله بـه نفسه فقد كفر، ومن أثبـت لـه حقـائق الأسـماء والصفـات ونفـى عنـه مشـابهة المخلوقات، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

والفرق بين تجريد التوحيد، وبين هضم أرباب المراتب:

أن تجريد التوحيد: أن لا يعطى المخلوق شيئًا من حق الخـالق وخصائصـه، فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليـه ولا يؤله ولا يقسم به على الله، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى، ولا يساوى برب العالمين فى قول القائل: ما شاء الله وشئت، وهـذا منـك ومـن اللـه، وأنـا باللـه وبك وأنا متوكل على الله وعليك، والله لى فى السماء وأنت فى الأرض، وهـذا من صدقاتك وصدقات الله ، وأنا تائب إلى اللـه وإليـك، وأنـا فـى حسـب اللـه

وحسبك، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له، ويسجد لقبره بعد موته ويستغيث به في حوائجه ومهماته، ويرضيه بسخط الله ولا يسخطه في رضا الله، ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله، ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، لم يكن هذا تنقصًا له ولا حطًا من مرتبته، ولو رغم المشركون.

وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: **«لا تُطرُونى كما أطرت النَصَارى ابنَ مريم، فإنمَّا أنا عَبْدٌ فقُولُوا عَبدَ اللهِ ورسُولَه»**[1].

وقال: **«أيها الناسُ ما أحبُ أن ترفعونى فوقَ مَنزِلَتى»** [2].

وقال: **«لا تتخذُوا قَبرِى عيدًا»**[3].

وقال: **«اللهمَّ لا تجعلْ قَبرى وثنًا يعبدُ»**[4].

وقال: **«لا تقُولُوا ما شَاءَ الله وشَاءَ محمدٌ»**[5] وقال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: **«أجعلتنى لله ندا»**[6]، وقال له رجل قد أذنب: اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد.

---

(١) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ الآية[مريم:١٦] (٣٤٤٥). من حديث عمر بن الخطاب .

(٢) الحديث: أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٢٤٩) من حديث أنس بن مالك .

(٣) الحديث: أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٦٧) من حديث أبى هريرة .

(٤) الحديث: أخرجه مالك الموطأ (١/١٧٢). من حديث عطاء بن يسار مرسلاً، وأخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (١/٤٠٦) من حديث زيد بن أسلم معضلاً.

(٥) الحديث: أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب (٤٩٨٠)، وأحمد (٥/٣٨٤) من حديث حذيفة .

(٦) الحديث: أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢١٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

فقال: «عرفَ الحقَ لأهلِهِ»[1].

وقد قال الله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

وقال: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقال: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، أى لـن أجد من دونه من ألتجيء إليه وأعتمد عليـه، وقـال لابنتـه فاطمـة وعمـه العبـاس وعمته صفية «لا أملكُ لكم مِنَ اللهِ شيئًا»[2]. وفى لفظ فى الصحيح «لا أغنـى عنكم من الله شيئا»[3].فعظم ذلك علـى المشـركين بشـيوخهم وآلهتهـم وأبـوا ذلك كله وادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله، وزعموا أن من سـلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم، وقد هضموا جـانب الإلهيـة غايـة الهضـم وتنقصوه فلهم نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الزمر:٤٥].

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها:

إن تجريد المتابعة: أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد، ولا رأيه كائنًا مـن كان، بل تنظر فى صحة الحديث أولا، فإذا صح لك نظرت فى معناه ثانيا، فـإذا تبين لك لم تعدل عنه، ولو خالفك من بين المشـرق والمغـرب. ومعـاذ اللـه أن

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٣٥)، والطبرانى فى الكبير (١/٢٨٦) مـن حديـث الأسود بن سريع رضى الله عنه.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: فى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤].(٢٠٤) من حديث أبى هريرة .

(٣) الحديث: أخرجه البخارى، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد فى الأقارب (٢٧٥٣م)، ومسلم،كتاب: الإيمان، باب: فى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤] (٢٠٦) فى حديث أبى هريرة .

تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها، بل لابد أن يكون فى الأمة من قال به، ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله. بل اذهب إلى النص ولا تضعف.

واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا، ولكن لم يصل إليك هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم، فى حفظ الدين وضبطه. فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك.

فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقًا فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ، ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم فى القول الذى جاء النص بخلافه، أسهل من مخالفتهم فى القاعدة الكلية، التى أمروا أو دعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم فى كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة ، بل يجعل ذلك كالحبل الذى يلقيه فى عنقه يقلده به. ولذلك سمى تقليدًا بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه فى الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول. فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى.

قال الشافعى: أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

إن أولياء الرحمن: لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هم الذين آمنوا وكانوا يتقون.

وهم المذكورون فى أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿**هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[البقرة:٥].

وفى وسطها فى قوله: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ إلى قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[البقرة:١٧٧].

وفى أول الأنفال إلى قوله: ﴿**لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾[الأنفال:٤].

وفى أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[المؤمنون:١١].

وفى آخر سورة الفرقان وفى قوله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾[الأحزاب:٣٥]. إلى آخر الآية.

وفى قوله: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[يونس: ٦٢،٦٣].

وفى قوله: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[النور:٥٢].

وفى قوله: ﴿**إِلا الْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾[المعارج:٢٢،٢٣]. إلى قوله: ﴿**فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ**﴾[المعارج:٣٥].

وفى قوله: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ**﴾[التوبة:١١٢]. إلى آخر الآية.

فأولياء الرحمن: هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله فى الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوًا ولعبًا ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن، ولا المعازف والمثانى، على السبع المثانى.

بَرئنَا إلى اللهِ مِنْ معشر ... بهم مَرضٌ مُوردٌ للضنَا

وكم قُلتُ يا قومُ أنتم على ... شَفَا جُرفٍ مِنْ سَماع الغنَا

فلمَّا استَهانُوا بتنبيهنَا ... تَركْنَا غويًا وما قَدْ جَنَا

وهل يَستجيبُ لدَاعِى الهُدَى ... غَوىٌ أصَار الغِنَاَ ديَدنَا

فعَشْنَا على ملةِ المصَطفى ... ومَاتُوا على تاننا تنتنا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه، وقد ضربوا لمخالفته جأشًا وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

فأولياء الرحمن: المتلبسون بما يحب وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه.

وأولياء الشيطان: المتلبسون بما يحبه وليهم قولا وعملا يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطانى ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور، علمت أنه من أوليائه، فإن اشتبه عليك فاكشفه فى ثلاثة مواطن فى صلاته، ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسوله، وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة، فزنه بذلك لا تزنه بحال، ولا كشف ولا خارق، ولو مشى على الماء وطار فى الهواء.

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى:

فإن الحال الإيمانى: ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص فى العمل وتجريد التوحيد، ونتيجته منفعة المسلمين فى دينهم ودنياهم. وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهى.

والحال الشيطانى: نسبته إما شرك أو فجور، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران،

والشيطان فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله، وكم هلك بهؤلاء من الخلق ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم، ولو شاء الله ما فعلوه، فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب، وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائنا ما كان، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب، وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهرًا وهو برىء منه فى الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن.

وقد يكون الرجل صادقا ولكن يكون ملبوسا عليه بجهله، فيكون حاله شيطانيا مع زهد وعبادة وإخلاص، ولكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة، وجهله بحقائق الإيمان.

وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من لبس منهم بل هو مشتبه صاحب مخاييل ومخاريق، ووقع الناس فى البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ، فحسبوا كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، والفرقان أعز مافى هذا العالم، وهو نور يقذفه الله فى القلب، يفرق به بين الحق والباطل، ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها، فمن عدم الفرقان وقع ولابد فى إشراك الشيطان فالله المستعان وعليه التكلان.

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع:

أن الحكم المنزل: هو الذى أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذى لا حكم له سواه.

وأما الحكم المؤول: فهو أقوال المجتهدين المختلفة، التى لا يجب اتباعها ولايكفر ولا يفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله.

بل قالوا: اجتهدنا برأينا، فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة.

بل قال أبو حنيفة: هذا رأيى فمن جاءنا بخير منه قبلناه.

ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبى يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على مافى الموطأ، فمنعه من ذلك.

وقال: قد تفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فى البلاد وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين.

وهذا الشافعى ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه. وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها.

ويقول: لا تقلدنى ولا تقلد فلانا ولا فلانا، وخذ من حيث أخذوا. ولو علموا رضى الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم، ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم فى شىء، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه فى المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك، فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه.

وأما الحكم المبدل: وهو الحكم بغير ما أنزل الله، فلا يحل تنفيذه ولا العمل به، ولا يسوغ اتباعه، وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم.

والمقصود: التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة ، وما تشترك فيه النفوس الثلاثة وما يتميز به بعضها من بعض، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفى ذلك تنبيه على ما وراءه، وهى نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة، وأما المطمئنة فهى أقل النفوس البشرية عددًا وأعظمها عند الله قدرًا، وهى التى يقال لها ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر:٢٨-٣٠].

والله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا، ولا يجعلنا من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفهارس

فهرس الآيات

الأعراف

الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة الروم

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا....﴾	٣٠، ٣١	٢٦٦، ٢٨٦

سورة السجدة

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾	٩	٢٥٠
﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾	٢١	١٤٦
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً...... يُوقِنُونَ﴾	٢٤	٤١٠

سورة الأحزاب

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾	٧	٢٦٩، ٢٨٣
﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾	٣٥	٤٣١
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.....﴾	٧٢	٢٨١
﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ......﴾	٧٢	٢٢٤

سورة سبأ

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾	٦	١٢٦
﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾	١٠	١٤١

سورة فاطر

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ...... الْغَرُورُ﴾	٥	٣٩٨
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾	١٥	٢٥٧
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾	٢٢	٩١، ٩٦

سورة يس

﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾	٢٦، ٢٧	٣٧
﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾	٥٢	١٦٨
﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٥٤	٢٢٨
﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا.....﴾	٥٤	٢٢٨
﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ.......﴾	٦٠، ٦١	٢٨٣

سورة ص

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾	١٨	١٤١
﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا...... أَوَّابٌ﴾	٤٤	٤٢٠
﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا.......﴾	٧١، ٧٢	٢٩٢
﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾	٧٥	٢٦٤

الطرف	الصفحة
عليك بتقوى الله (عبد الله بن عمر)	١٩٢
فأصبح ربك يطوف فى الأرض	١٨٩
فأكون أول من يفيق	٨٠
فإذا كان كافرًا جاءه ملك الموت	١٦٠
فإذا مرض الرجل (ابن عباس)	٢١٧
فترد روحه إلى مضجعه	١٦٢
فضل الله؛ الإسلام (ابن عباس)	٤٠٣
فضل الله؛ القرآن (أبو سعيد الخدرى)	٤٠٣
فهو يفعل له ذلك يوم القيامة	١٦٨
فيأتون آدم فيقولون أنت آدم	٢٦٤
فيفتح له باب الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها	١٤٤
فيفتح له طاقة إلى النار	١٤٧
فيقال لها: اخرجى راضية مرضيًا عنك	١٤٧
فيهبطون على قدر فراغهم من غسله (عبد الله بن عباس)	١٨٧
قالت قريش لليهود (عبد الله بن مسعود)	٢٦١
قد وجب أجرك	٢٤٢
قولى السلام على أهل الديار (عائشة رضى الله عنها)	٢١٤
كان إذا غضب اشتعلت (زيد بن أسلم)	٣٨٢
كان رسول الله ﷺ أرحم الناس (أنس بن مالك)	٤٠٦
كفى ببارقة السيف على رأسه فتنة	١٥٥،١٥٣
كل مولود يولد على الفطرة (أبو هريرة)	٢٨٥
كل ميت يختم على عمله	١٥٢
لا أدرى أبعث قبلى أم جوزى بصعقة الطور	٨٣
لا أغنى عنكم من الله شيئًا (أبو هريرة)	٤٢٩
لا تتخذوا قبرى عيدًا (أبو هريرة)	٤٢٨
لا تطرونى (عمرو بن الخطاب)	٤٢٨
لا تقولوا ما شاء الله (حذيفة بن اليمان)	٤٢٨
لا تنزع الرحمة (أبو هريرة)	٤٠٦
لا حسد إلا فى اثنتين (ابن عمر) ، (ابن مسعود)	٣٧٣، ٤٠٩
لا يصلى أحد عن أحد (عبد الله بن عباس)	٢٢١،٢٢٢،٢٤٠
لا يصوم أحد عن أحد (مالك بن أنس)	٢٢١

الطرف	الصفحة
المسلم إذا سئل فى قبره	١١٠
المطمئنة المصدقة (ابن عباس)	٣٦٢
من أعتق نسمة مؤمنة (على بن أبى طالب)	١٧٧
من أعطى حظه.... (أبو الدرداء)	٣٧٣
من سن خيرًا فاستن	٢١٢
من سن فى الإسلام (جرير بن عبد الله)	٢١١
من قتله بطنه لم يعذب فى قبره	١٥٤
من لا يرحم (أبو هريرة)	٤٠٦
من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة	١٥٥
من مات مبطونًا مات شهيدًا	١٥٤
من مات مريضًا مات شهيدًا	١٥٦
من مات وعليه صوم رمضان (عبد الله ابن عمر)	٢٢٢، ٢٤١
من مات وعليه صيام صام عنه وليه (عائشة) (ابن عمر)	٢١٥، ٢١٧، ٢٢١، ٢٣٩، ٢٤٠
المهاجر من هجر ما نهى الله عنه (أبو هريرة)	٤٠١
نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة	١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ٢٠٣، ٣٠٥
نعم لو كان على أمها دين (ابن عباس)	٢١٨
نعم، فدين الله أحق (ابن عباس)	٢١٦
هذا الذى تحرك له العرش	١١٥
هذا مقعدك (البراء بن عازب)	١٨٦
هكذا نبعث	٩٥
هل رأى أحد منكم رؤيا	١١٨
هل وجدتم ما وعدتم ربكم حقًا	٢٣
هى أرض الجنة (عبد الله بن عباس)	١٩٥
هى المانعة المنجية	١٥٣
وأما المنافق والكافر فيقال: له ما كنت تقول	١٥٩
وأما عليون فالسماء السابعة (كعب الأحبار)	١٩٣
وأن أرواح الشهداء	٢٠٢
وأنه يرى مقعده من الجنة	١٨٦
والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع	٢٣

فهرس مسائل الكتاب

فهرس المحتويات